جامعة أبو القاسم سعد الله- الجزائر 2 – بوزريعة.

كلية العلوم الانسانية و الاجتماعية

قسم الفلسفة

مذكرة لنيل شهادة الماجستير

القيم الأخلاقية و الجمالية عند سيغموند فرويد دراسة تحليلية نقدية ومقارنة

إعداد الطالب:

قدور رشيد

إشراف:

أ،د/ هني خديجة

السنة الجامعية:2015/2014

جامعة أبو القاسم سعد الله- الجزائر 2 – بوزريعة.

كلية العلوم الانسانية و الاجتماعية

قسم الفلسفة

مذكرة لنيل شهادة الماجستير

تحت عنوان:"القيم الأخلاقية و الجمالية عند سيغموند فرويد،دراسة تحليلية نقدية ومقارنة"

اعداد الطالب: قدور رشيد

اشراف: أ،د/ هني خديجة

تتكون لجنة المناقشة من:

1-الأستاذ الدكتور يوسف زرافة رئيسا.

2-الأستاذة الدكتورة هني خديجة مقررا.

3- الدكتورة حنيفي جميلة عضوا.

4- الدكتورة أسماء بلهادي عضوا.

كلمة شكر وتقدير

أتوجه بخالص الشكر والعرفان الى كل من ساهم في اخراج هذا البحث الى حيز الوجود و أخص بالشكر والتقدير الأستاذة الدكتورة **"هني خديجة"**التي لم تبخل علي بإرشاداتها و نصائحها و توجيهاتها و تشجيعاتها خلال سنوات تلمذتي المباشرة على يدها و خلال فترة اشرافها على بحثي المتواضع .

سعداء أولئك الذين كان لهم أساتذة ،سعداء الذين بحثوا عن الكتب وقرعوا الأبواب ،و تلقوا ما يحتاجون بوجوه فارحة و بصدور رحبة كتلك التي يمتاز بها أساتذتنا بقسم الفلسفة .

الباحث.

الاهداء

الى الزملاء الأعزاء.

تحية محبة وامتنان.

الى أمي و الى روح المرحوم أبي الطاهرة.

الى أسرتي التي تحملت عناء بحثي.

الى كل أساتذة وطلبة قسم الفلسفة.

الى كل من يريد سبر أغوار النفس الانسانية ،وفي كامل أعماقها و أبعادها.

الى كل من يعشق التحليل النفسي الفرويدي .

الى كل محبي الصدق والحقيقة .

الى كل هؤلاء أهدي هذا البحث المتواضع

الباحث .

الفهرس

المقدمة 01

الفصل الأول: نشأة الدين و الأخلاق و طبيعتهما 07

المبحث الأول:الطوطمية و نشأة الأخلاق و الدين.....08

أولا-الطوطمية كديانة و كنظام اجتماعي.

ثانيا- أصل الطوطمية

ثالثا-الخطيئة الأولى و نشأة الدين و الأخلاق:

1-رهاب الأطفال.

2-الوليمة الطوطمية(نظرية التضحية).

3-الخطيئة الأولى (قتل الأب الأول أو البدائي) نواة الطوطمية.

رابعا- الأساس والطبيعة السيكولوجية للأخلاق.

المبحث الثاني :التحليل السيكولوجي للدين/ المعتقدات الدينية مجرد أوهام. 53

أولا-لا عقلانية المعتقدات الدينية في نظر فرويد.

ثانيا-عقدة أوديب و القلق والضائقة البشرية مصادر للدين.

ثالثا- مستقبل الدين.

رابعا- فرويد والديانة اليهودية.

الفصل الثاني:القيم الجمالية /مصدر الابداع الفني و طبيعة الذوق الجمالي.....74

المبحث الأول : الأسس النفسية للفن / الفن والكبت الجنسي. 75

أولا- اللاشعور منبع الابداع الفني

ثانيا-عقدة أوديب و المرض النفسي والتسامي.

ثالثا-تطبيقات التحليل النفسي على الشخصيات الفنية و الأعمال الأدبية.

أ-ليوناردو دافنشي.

1-تحول الدافع الشبقي الى جنسية مثلية سلبية(اللوطية)

2-العصاب القهري و تسامي الدافع الشبقي بطريقة قهرية في ابداعات ليوناردو الفنية و أبحاثه العلمية(تحول الكبت الجنسي الى رغبة في البحث و حب الاطلاع)

ب-دوستويفسكي ورواية الاخوة كارامازوف.

1-دوستويفسكي فنان مبدع.

2-الوجه الأخلاقي في الفنان.

3-دوستويفسكي المذنب أو الخاطئ

4-دوستويفسكي العصابي.

المبحث الثاني:اللعب ، الأحلام، النكتة و دورها في الابداع الفني، و طبيعة الذوق الجمالي. 96

أولا- اللعب والإبداع الفني.

ثانيا –الأحلام و الابداع الفني.

-الهذيان و الأحلام في الفن من خلال تحل فرويد لرواية غراديفا للكاتب الألماني ولهام جنسن .

ثالثا- النكتة و الابداع الفني.

رابعا- طبيعة الذوق الجمالي عند فرويد.

الفصل الثالث:القيم بين التحليل النفسي الفرو يدي و الفلسفة العقلية الكانطية ،مع دراسة نقدية للتحليل السيكولوجي للقيم.....139

المبحث الأول: القيم بين سيغموند فرويد و كانط او بين التحليل النفسي و الفلسفة العقلية الكانطية.....140

أولا-القيم الأخلاقية بين الكانطية والفرويدية.

ثانيا-حقيقة الدين بين التحليل النفسي الفرويدي و الفلسفة العقلية الكانطية

ثالثا-القيم الجمالية بين التحليل النفسي الفرويدي و الفلسفة العقلية الكانطية.

المبحث الثاني:دراسة نقدية للتفسير السيكولوجي للقيم عند فرويد. 158

أولا-نقد تفسير التحليل النفسي للنشأة القيم الأخلاقية وطبيعتها.

ثانيا-نقد التحليل السيكولوجي للدين.

ثالثا-نقد التحليل السيكولوجي للفن.

الخاتمة.....198

قائمة المصادر والمراجع.....201

المقدمة

1-الاطار العام للبحث:

يندرج البحث الذي نحن بصدده ضمن مجال القيم ،و النشاط القيمي قديم ،قدم السلوك الانساني،حيث طرح الفكر الانساني مشكلة القيم ،منذ أن تساءل عن شأن الوجود وقيمته،ليعرف:هل لهذا الوجود قيمة تستحق.؟ وعن الغايات التي نهدف اليها من نشاطاتنا في الحياة ،لمعرفة: هل لها قيمة تستحق لأن نمضي في دربها أم لا.؟ و هل للمواضيع التي يطرحها الفكر في الوجود قيمة جديرة بالاهتمام أم لا.؟

والمبحث الذي يدرس القيم يسمى "Axiologie" الأكسيولوجيا،و هي كلمة مشتقة من اليونانية،مركبة من شطرين : « Axia » و« Logos » ،يعني الأول،القيمة أو ما هو ثمين، و يعني الثاني،علم أو مبحث و معناها علم القيم أو مبحث القيم ،كما تعني فلسفة القيم، وهو مبحث فلسفي مستقل يدرس مشكلة القيم بمختلف أنواعها:الاقتصادية والأخلاقية و الجمالية....الخ وهو مبحث من مباحث الفلسفة، إضافة إلى مبحث الأنطولوجيا « Ontologie » وهي نظرية أو مبحث الوجود Epistémologie ، و مبحث الايبستمولوجيا و هي الدراسة النقدية لمبادئ و فروض و نتائج العلوم المختلفة.

إن مبحث الأكسيولوجا ،مبحث قديم ،مادام الاشتقاق اللغوي لهذا الاسم إغريقي،ولأن استقراء تاريخ الفكر الفلسفي يوضح لنا بجلاء بأن كل فلسفة لها مسعى قيمي ، لكن مشكلة القيمة لم تطرح بصورة مستقلة عن المشكلات الفلسفية والميتافيزيقية المحضة، إلا في العصر الحديث .

و قد أردت الخوض في مبحث الأكسيولوجيا ،و بالخصوص المعاصرة،للبحث عن إشكالية مصدر القيم الأخلاقية و طبيعتها عند العالم النفساني،"سيغموند فرويد"*و يندرج هذا البحث ضمن تطبيق نظرية التحليل النفسي على مجال غير الأفراد،أي على المجتمعات والحضارات و كيفية نشأة القيم و طبيعتها ،و هذا ما يمكن تسميته بالجانب الفلسفي في فكر "فرويد" وبذلك نسلط الضوء على المصدر النفساني للقيم و الطبيعة النسبية لها

---

*-سيغموند فرويد Sigmund Freud-1856-1939م)طبيب نمساوي من أصل يهودي ،اختص بدراسة الطب العصبي ،يعتبر مؤسس التحليل النفسي.

وتحليل هذا الرأي ودراسته دراسة تحليلية نقدية والوقوف على جوانب القوة والضعف فيه، ومدى مشروعيته.

و في اشكالية البحث:

إذا كانت الحياة الاجتماعية في وجودها وتنظيمها تتوقف على منظومة قيمية أخلاقية من خير وشر أو حلال وحرام تضع حدودا لتصرفات الأفراد وبالتالي تضع حدا للهمجية والوحشية،وعلى قيم جمالية تكمل القيم السابقة، فما مصدر هذه القيم الأخلاقية والجمالية عند فرويد؟ هل تعود في أصلها إلى الإنسان أم إلى مصدر أخر متعالي مفارق للطبيعة؟ وهل هي عبارة عن إسقاطات ذاتية وبالتالي ذات طبيعة نسبية أم مستقلة في نشأتها عن الإنسان وبالتالي ذات طبيعة موضوعية مطلقة؟ و بمعنى أكثر خصوصية:إذا كان الإنسان يتأرجح بين الطبيعة البيولوجية التي تدعوه إلى إشباع غرائزه وبين الطبيعة الاجتماعية التي تدعوه إلى كبتها،فكيف يمكن التوفيق بين هذا الصراع (بين مبدأ اللذة ومبدأ الواقع) في تأسيس القيم عند فرويد.؟

2-الخطة:

وقد عمدت إلى تقسيم البحث إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول، يحتوى على مبحثين، **في المبحث الأول،** حاولت الإجابة عن ما يلي :ما مصدر القيم الأخلاقية عند"فرويد".؟هل هي ذات مصدر إنساني أم ذات مصدر ميتافيزيقي،متعالي يتجاوز إرادة الإنسان.؟ و كيف نشأت الأخلاق والدين.؟ و ما طبيعة العلاقة بينهما.؟و ذلك بالبحث عن الطوطمية،كمؤسسة اجتماعية و و دينية، وجدت في المجتمعات البدائية،في كل من أستراليا و أمريكا الشمالية وغيرها،و قد تم عرض مجموعة من التحظيرات ،تميزت بها المجتمعات البدائية،و بالخصوص تحريم زنى المحارم و وجوب الزواج الخارجي. و من ثمة، تعرفت على طبيعة الأخلاق،من حيث إذا كانت لها طبيعة نفسية، وبالتالي، نسبية متغيرة أم لها طبيعة موضوعية مستقلة عن ذوات الأفراد.

و في **المبحث الثاني،** حاولت معرفة حقيقة المعتقدات الدينية عند "فرويد"،هل تستند في وجودها على أساس عقلي يدفعنا إلى التصديق بها أم هي مجرد تعبير عن قلق طفولي يعيشه الفرد ،و بالتالي مجرد أوهام وخيالات يتم التخلي عنها مستقبلا.؟ وما وظيفة الدين عند مؤسس التحليل النفسي.؟ و ما حقيقة الديانة اليهودية،عنده.؟ و ما أصل مؤسسها"موسى" ..؟ هل أصله عبراني يهودي أم مصري وتم مصادرة اسمه من

طرف اليهود.؟ وما علاقة المسيحية و الإسلام بالديانة اليهودية.؟ وهل الدين ذو مصدر متعالي مفارق للطبيعة،أساسه الوحي المنزل أم ذو مصدر إنساني صنعه الأبطال والعظماء أمثال "موسى".؟

الفصل الثاني،لقد تم تقسيمه إلى مبحثين،في **المبحث الأول**،حاولت الإجابة عن التساؤلات التالية: ما مصدر الإبداع الفني عن"فرويد".؟لماذا يبدع الفنان.؟ و كيف تتم عملية الإبداع.؟ وتم توضيح ذلك بتطبيق التحليل النفسي على الشخصيات الفنية، وكيف يمكن للإبداع الفني أن يكون انعكاسا لنفسية الفنان،وتعبيرا عن عقده النفسية و صراعاته الداخلية،و تجسيما لشخصيته و تعبيرا عن فلسفته في الحياة.؟

و في **المبحث الثاني**،حاولت الإجابة عن ما يلي:ما دور الأحلام و اللعب والنكتة في الإبداع الفني.؟ و كيف يمكن للتحليل النفسي أن يفسر الأعمال الأدبية و الفنية.؟ وهل يمكنه أن يطلع على الكيفية التي بنى بها الروائي روايته.؟

وفي الأخير حاولت الإجابة عن تساؤل، يتعلق بطبيعة الذوق الجمالي، عند "فرويد" وهو: ما طبيعة الذوق الجمالي عند "فرويد" .؟ هل له طبيعة موضوعية، فتكون المتعة الجمالية مرتبطة بالعمل الفني ذاته أم له طبيعة ذاتية ،ترتبط بعوامل نفسية متعلقة بالمتلقي ذاته.؟ و ما مصادر المتعة التي تحصل للمتلقي للعمل الفني.؟

الفصل الثالث،و هو ينقسم بدوره إلى مبحثين،**المبحث الأول**،تناولت فيه دراسة مقارنة بين مؤسس التحليل النفسي ومؤسس الأخلاق العقلية"ايمانويل كانط"" Emmanuel Kant"*،في المطلب الأول،تناولت،القيم الأخلاقية بين "كانط" و "فرويد"،و حاولت معرفة مصدر الواجبات الأخلاقية عند كل منهما،من حيث إذا كان الضمير أو الوعي الأخلاقي، مستمد من العقل أم مكتسب من الوسط الاجتماعي، ومن حيث إذا كان كيانا مستقلا عن وعي الأفراد أم هو جزء من الجهاز النفسي تشكل تدريجيا ابتداء من الطفولة، و بذلك تعرفت على طبيعة الواجبات الأخلاقية التي يفرضها الضمير.من حيث إذا كانت ضرورية و كلية و مطلقة أم ذاتية و نسبية.

و في المطلب الثاني، وضعت مقارنة بين مؤسس فلسفة الدين و مؤسس التحليل النفسي ،في المسألة الدينية، فحاولت الإجابة عن التساؤل التالي: هل هناك نقاط تجمع بينهما في نظرتهما للدين.؟و في المطلب الثالث قمت

---

*-ايمانويل كانط(1724-1804م) :فيلسوف ألماني،مؤسس الفلسفة النقدية،معروف بالثالوث النقدي:نقد العقل الخالص،نقد العقل العملي،و نقد ملكة الحكم.

بمقارنة بين الفيلسوفين،في نظرتهما للقيم الجمالية، و حاولت معرفة مصدر الإبداع الفني عندهما من حيث إذا كان مصدره نفسي،يرتبط بالدوافع اللاشعورية الجنسية المكبوتة والمرتبطة بمرحلة الطفولة أم يعود إلى العبقرية باعتبارها ملكة فطرية خاصة بالفنان. وهل الفنان شخصية مرضية أم طبيعية عادية ؟ وهل حكم الذوق الجمالي ذاتي ،مادته الخام الغرائز أم ذاتي،يتصف بالكلية و الموضوعية ،خال من المصلحة.؟

و قد تضمن **المبحث الثاني**،دراسة نقدية للتفسير السيكولوجي للقيم عند "فرويد" ،و قد تعرضت بالتحليل إلى جملة الانتقادات التي تدحض نشأة الأخلاق وطبيعتها،ثم الانتقادات التي تدحض التحليل السيكولوجي للدين،حيث حاولت معرفة ما إذا كانت، فعلا المعتقدات الدينية مجرد أوهام تعبر عن قلق طفولي يعيشه الفرد. و إذا كانت كذلك، فكيف يمكن التوفيق بين الحالة النفسية التي يعيشها الفرد و الخوارق الطبيعية.؟ وهل فعلا الدين يرتبط بعقدة أوديب .؟ وكما حاولت معرفة ما إذا كانت العلاقة بين الأب و الابن التي تتضمنها عقدة أوديب كامنة في كل الأديان. وهل فعلا يتم التخلي عن الدين مستقبلا .؟ وما مصداقية نظرة "فرويد" لحقيقة الديانة اليهودية.؟

و قد رجعت إلى نصوص الكتاب المقدس في عهده القديم عند المسيحيين،و قارنتها برأي مؤسس التحليل النفسي في الدين، وفي ختام هذه الانتقادات تناولت اعتراضات تلميذه "كارل غوستاف يونغ"*،ثم مقاربة "اريك فروم" الدينية،عالم نفس مدرسة فرانكفورت،من خلال كتابه"الين والتحليل النفسي".

و في الأخير،كان نصيب التحليل السيكولوجي للفن من الانتقادات،فحاولت معرفة مدى مصداقية تحليل "فرويد" لطبيعة الفن ومصدره،ومن حيث ،هل فعلا العلة الأولى للإبداع الفني هي اللاشعور.؟ والى أي مدى يمكن قبول آلية الإبداع المتمثلة في التسامي.؟ و ما مدى مصداقية تطبيقات نظرية التحليل النفسي الفرويدية على الشخصيات الفنية و على الأعمال الأدبية .؟ وما هي الانتقادات الموجهة لنظرية التحليل النفسي الفرويدية في

---

* -كارل غوستاف يونغ" Karl goustaf Young(1875-1961م):عالم نفساني و طبيب عقلي،انشق عن فرويد و أسس علم النفس التحليلي، وهو يقوم على التقليل من أهمية الماضي و دور الجنس، ومقابل الاهتمام باللاشعور والرموز

*-اريك فروم (1900-1980م):عالم نفساني ،وفيلسوف إنساني ألماني أمريكي،ولد في مدينة فرانكفورت و هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية،من Irik Fromm مؤلفاته:الهروب من الحرية(1941)التحليل النفسي والدين(1950)،أزمة التحليل النفسي..

الإبداع الفني.؟ و في هذا السياق أشرنا إلى وجهة نظر الناقد الأدبي الفرنسي "جان بليمان نويل" « J .B.noel »*في "الاشعور النص" والى وجهة نظر "جاك لاكان"« Jacques Lacan" و اللاشعور لغة .

كما تناولت وجهة نظر المنشقين عن "فرويد" في الإبداع الفني،الأول"أدلر"* و الثاني "كارل غوستاف Karl goustaf Young يونغ". أو ما يعرف بالفرويدية الجديدة أو ما بعد الفرويدية.* بمختلف اتجاهاتها منها أصحاب علم النفس الأنا* ومن هؤلاء "أرنست كريس" "Ernist krissونظريات العلاقة بالموضوع*،والتي من أبرز ممثليها "ميلاني كلاين" "Milani Klein »* "و "حنا سيجال"Hanna sigal ".*

و في الخاتمة:توصلت الى نتائج لهذا البحث.

و في منهج الدراسة :

عمدت إلى انتهاج المنهج التحليلي النقدي ، الذي يمكننا من فهم حقيقة القيم الأخلاقية و الدينية والجمالية ،في نشأتها وطبيعتها عند "فرويد" و فحص أطروحته و تشريحها والوقوف على مدى منطقيتها وواقعيتها.

---

*-جان بليمان نويل: ناقد أدبي فرنسي،أول من استخدم عبارة النقد النفسي للأدب.

*-جاك لاكان(1900-1980م):محلل نفساني،أشتهر بقراءته التفسيرية ل"فرويد" وبالتحليل النفسي الفرو يدي في فرنسا.

*-ألفرد أدلر Alfred Adler(1870-1937م):عالم نفساني سويسري، مؤسس علم النفس الفردي،و هو يرى أن الشعور بالنقص هو محرك السلوك.

*post-freudienne-الفرويدية الجديدة أو ما بعد الفرويدية،هي مدرسة تمثل جملة من الاتجاهات ،كانت نتيجة انسلاخها وانشقاقها عن الفرويدية الكلاسيكية بسبب عدم قبولها لمسلمات التحليل النفسي،وجاءت بمثابة تكميل لنظرية فرويد.ومن أهم النقاط التي يشترك فيها هؤلاء:رفض نظرية فرويد المتعلقة بالييدو، دحض المسلمات حول الحتمية الجنسية للسلوك البشري و الأسباب الجنسية للعصاب،والموقف النقدي لعقدة أوديب،الاهتمام بجوانب الحياة الذهنية، التأكيد على تأثير الأخرين في الفرد،الشر والنزعة العدوانية والتدميرية متجذرة في الطبيعة البشرية،عند فرويد،بينما ترجع الفرويدية الجديدة الشر في الانسان الى فشل الأهل في ممارسة مسؤولياتهم الاجتماعية للتربية.

*-علم النفس الأنا: هو يشير إلى أن الأنا قوة فعالة ومنظمة في التكامل و التحكم في الاستجابات السلوكية،و أجزاء النفس التي افترضها "فرويد" أطلق عليها اسم النظرية التركيبية،ما هي الا عبارة عن أقسام وظيفية للنفس وليست أقسام تركيبية .

*-أرنست كريس(1900-1957م):محلل نفساني نمساوي وباحث في تاريخ الفن.

*-نظريات العلاقة بالموضوع:هي النظريات التي تركز على الخبرة الجمالية من خلال العلاقات المبكرة للطفل مع الأشياء و الأشخاص و خاصة الأم.

*-ميلاني كلاين(1882-1960م):عالمة نفس ألمانية الأصل،تنحدر من أسرة يهودية،اتجهت في أبحاثها نحو دراسة التكوين النفسي للأطفال،لم تدرس،علم النفس أو الطب النفسي،و بالصدفة،قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى، قرأت مقالات "فرويد" ،فشغفت بالتحليل النفسي.

*-حنا سيجال(1918-2011م):محللة نفسانية بريطانية.نمساوية الأصل.

و الأسباب الدافعة لاختيار الموضوع هي:

أولا: لأنه بحث جديد لم يسبق لأي باحث أن تناوله ونزل محطاته بالتحليل والتدقيق، فرغم أن "سيعموند فرويد" غني عن التعريف في مجال علم النفس إلا أن البحث في مجال القيم الأخلاقية والجمالية من حيث نشأتها وطبيعتها عنده،أي تطبيقات التحليل النفسي على نشأة الدين والأخلاق و وكيفية قيام المجتمعات ،و نشأة الحضارات،بمعنى الجوانب الفلسفية في فكر" فرويد" هو موضوع جديد حسب علمنا ،ما عدا بعض الأبحاث نشرت لكنها لم تتطرق إلى الموضوع بصورة كافية ،فلا يوجد أي باحث طرق باب موضوع القيم عنده بشكل واف.

ثانيا:لأنه موضوع ثري يجعلنا نعود إلى المجتمعات البدائية في تفكيرها، في تصور "فرويد" الذي تمكن من توظيف الطاقة الرمزية للأساطير في اكتشاف خفايا النفس البشرية وبالتالي في تفسيره لنشأة الدين القيم الأخلاقية و طبيعة كل منهما،و بذلك نغوص في تخصص جديد هو الأنثروبولوجيا النفسية.*

ثالثا: ولأن "سيغموند فرويد" أخرج من قسم الفلسفة وحصر بين جدران معهد علم النفس مع أننا لا ننسى بأن لهذا العالم النفساني العظيم مشارب فلسفية تغذي منها،و دراسات فلسفية هامة و التي أشرنا إليها أنفا، لذلك أردنا من خلال بحثنا المتواضع أن نطلق صراحه ونعيده إلى أمه الفلسفة"قسم الفلسفة".

رابعا:و لأنه كان ل"سيغموند فرويد" تأثيرا كبيرا في الفكر المعاصر،فهو كما يقول مؤرخو تاريخ الأفكار أحد العمالقة الثلاث،إلى جانب "شارلس داروين"* و نظريته في "النشوء و الارتقاء" و إلى جانب "كوبرنيك"*،إن الثورة التي أحدثها شبيهة بالثورة الكوبرنيكية،حيث جرح نرجسية الإنسان و أزال القناع عن مركزية الذات و الوعي الإنساني،و لأن تأثيره لم يقتصر على الجوانب الطبية والنفسية،فحسب،بل تعداه إلى عالم الفن و الأدب.

---

*-anthropologie psychologiqueالأنثروبولوجيا النفسية:موضوعها يتحدد في العلاقة بين الثقافة و الشخصية،وهذه العلاقة تسير في اتجاهين متكاملين: اتجاه ،يأخذ أثر الثقافة في الشخصية،و اتجاه ،يأخذ أثر الشخصية في الثقافة،و قد ساعد ظهور الأنثروبولوجيا النفسية،علماء النفس في الوصول إلى فهم أفضل للمبادئ التي تحكم تشكيل الشخصية و أثارها.

*- تشارلس روبرت داروين "Charles robert Darwin":(1809-1882م)عالم تاريخ طبيعي بريطاني،أشتهر كمؤسس لنظرية التطور.

*-نيكولاس كوبونيك"-Nicolas copernicus"(1473-1543م):راهبا و عالما و رياضيا وفيلسوفا و فلكيا و قانونيا وإداريا بولنديا،كان احد أعظم علماء عصره،أول من صاغ نظرية مركزية الشمس،وكون الأرض جرما يدور في فلكها،في كتابه"ثورات الأجواء السماوية"،يعتبر مؤسس علم الفلك الحديث.

الفصل الأول

نشأة الأخلاق و الدين وطبيعتهما.

سنحاول في هذا الفصل،أن نتعرف على مصدر الأخلاق و الدين عند "سيغموند فرويد"،و ذلك بالبحث عن أصل الطوطمية"totémisme "باعتبارها تمثل الشكل البدائي للدين، وبالتالي المصدر الذي انبثقت منه التقييدات الأخلاقية في المجتمعات البدائية،فالطوطمية عقيدة و مؤسسة اجتماعية،وفي الجانب الاجتماعي تتجلى القيم الأخلاقية، ثم نتعرف على طبيعة الأخلاق، و مادام هناك ارتباط وثيق بين الأخلاق والدين فإننا نواصل البحث في التحليل السيكولوجي للدين عند مؤسس التحليل النفسي و نظرته" للعقيدة الموسوية.

المبحث الأول :الطوطمية ونشأة الأخلاق والدين

أولا-الطوطمية كديانة وكنظام اجتماعي: قبل البحث عن حقيقة الطوطمية كعقيدة وكمؤسسة اجتماعية لابد أن نبحث عن أصل هذه الكلمة ومعناها ،ف"الطوطم" totem اقتبسه الانجليزي "ج،لونغ"*" j.long " من قبائل الهنود الحمر في أمريكا الشمالية ، وأدخله باسم totam سنة 1791م(1) ،و الطوطم هو كائن حي قد يكون حيوانا من الحيوانات غير المؤذية والتي يؤكل لحمها أو حيوانا خطيرا ومهاب ومؤذ أو نبات أو ظاهرة طبيعية (ماء،مطر ...الخ) تعتقد القبيلة أو العشيرة بأنه سلفها أو أصلها(اسم لجماعة ولنسب)، والعلاقة بين الطوطم والجماعة البشرية ينتج عنها **الديانة الطوطمية** ، إذن **الطوطمية totémisme** ديانة مركبة من رموز وأفكار وطقوس تعتمد على العلاقة بين جماعة إنسانية وموضوع طبيعي هو الطوطم ،ويرى "سيغموند فرويد" من

---

*-جون لونغ :مفكر انجليزي مغمور،كان يعمل ترجمان في شركة هندية ،استعمل هذا المصطلح في كتابه "رحلات و أسفار مترجم هندي"،واستعملت كلمة طوطمية في الدراسات الأنثروبولجية لأول مرة من قبل العالم الاسكتلندي "جي ،مكيلين" في عام 1870م،والطوطمية كانت موجودة لدى العرب في الجاهلية،حيث كانت لكل قبيلة صنم خاص بها على صورة حيوان أو على صورة جزء من الإنسان ،رغم وجود جدل بين المؤرخين حول إمكانية اجتياز العرب لمرحلة الطوطمية أم لا ،والذي يرجح الكفة هو اشتمال العرب القدماء على أسماء حيوانات،وقد أخذت كلمة طوطم من "الأوجيبوا"وهي لغة ألغونكية يتحدث بها هنود البحيرات الكبرى في أمريكا الشمالية،وتعني "الأقارب"

1-سيغموند فرويد ،**الطوطم والحرام**تر/ جورج طرابيشي (دار الطليعة للطباعة والنشر-بيروت،الطبعة الثانية،عدم وجود سنة الطبع) من هامش ص 11.

*- الأنثروبولوجيا:كلمة مركبة من كلمتين يونانيتين:anthropos ومعناها الإنسان وlogos ومعناها "علم" أي هي علم الإنسان، ولها تعريفات مختلفة منها :علم الإنسان وأعماله وسلوكه،علم الجماعات البشرية وسلوكها وإنتاجها.

خلال أبحاثه التي اعتمد فيها على الكثير من الأنثروبولوجيين* أمثال "جيمس فريزر"* James George» Frazer "وروبرتسون سميث""W.Robertson Smith" * أن قبائل أستراليا الأصليين وهم أكثر البشر توحشا من بين القارات الخمس ،يسودها نظام الطوطمية ، فهي تنقسم إلى عشائر ، وكل عشيرة تحمل اسم الطوطم*،الذي يمثل في المقام الأول سلف العشيرة أو القبيلة وفي المقام الثاني وروحها الحامي،و يوجب على أفراد الجماعة الالتزام المقدس بالامتناع عن قتله أو إتلافه أو أكل لحمه ،و أي انتهاك لهذه الالتزامات يسبب العقاب، وهذه الصفة ملازمة لكل أفراد النوع من الحيوان أو النبات أو للظاهرة الطبيعية، ولا ينطبق على فرد واحد من الحيوان أو النبات،ويتم انتقال صفة الطوطمية وراثيا بحسب عمود الأم ثم بحسب عمود الأب في مرحلة لاحقة،و أفراد الطوطم يرتبطون فيما بينها ارتباطا روحيا وثيقا بالتبعية لطوطمهم وبالتالي للقبيلة أولا وبالقرابة الدموية ثانيا والتي أساسها وحدة الانتماء للعصب الواحد ،وهي أقوى من رابطة الدم والأسرة بالمعنى الحديث للكلمة.(2)حيث يقول:"كانت المصادر الرئيسية التي اعتمدت عليها في دراساتي في هذا الميدان هي كتب "ج،فريزر" المشهورة "الطوطمية والزواج الخارجي" "ثم الغصن الذهبي" وهي كنز من الحقائق و الآراء النفسية ،ولكن فريزر لم يكن له غير أثر ضئيل في توضيح مشاكل الطوطمية،فكثيرا ما عدل تعديلا جوهريا في أرائه في هذا الموضوع."(3)

وقد أكتشفت ولا تزال إلى يومنا هذا تكتشف مؤسسات طوطمية ،ليس لدى بدائيي أستراليا فقط بل كذلك لدى هنود أمريكا الشمالية ،وفي الهند الشرقية ،وفي أقوام إفريقيا ،ولدى الشعوب الآرية والسامية البدائية في أوروبا و أسيا ،ولدى شعوب الأرخبيل الأوقيانونسي*، الأمر الذي جعل كثير من العلماء يعتقدون بأن الطوطمية مرحلة

---

*-جيمس جورج فريزر (1854-1941):عالم أنثروبولوجيا اسكتلندي، أهم مؤلفاته:الغصن الذهبي،الطوطمية والزواج الخارجي

*- و،روبرتسون سميث (1846-1894): عالم طبيعيات وفقيه وشارح التوراة وعالم أثار،مستشرق اسكتلندي وهو معروف بكتابه ديانة الساميين الذي يعتبر نصا أساسيا في مقارنة الأديان، ومن محرري الموسوعة البريطانية.

*- مع العلم أن الطوطم أنواع:طوطم العشيرة،الطوطم الخاص بالفرد،أي لكل فرد طوطمه الخاص به،والطوطم العام:تتحد حوله مجموعة من العشائر .

2-المصدر نفسه الفصل الأول زنى المحارم ص، ص،9-11.

3-سيغموند فرويد-**حياتي والتحليل النفسي**،تر/ مصطفى زيور وعبد المنعم المليجي(دار المعارف،منتدى مكتبة الإسكندرية،مصر ،عدم وجود رقم الطبعة،سنة 1994) ص101.

*-الأرخبيل الأوقيانونسي:أوقيانوسيا باللاتينية Océanie أشتقت من الكلمة اليونانية okeanosأي المحيط ،منطقة تتمركز في المحيط الهادي،تتكون من=

ضرورية وهامة في تطور الفكر البشري. (1)

والطوطمية في حقيقتها نظام ديني من جهة واجتماعي من جهة ثانية ،فمن الناحية الدينية تتجلى في علاقة الاحترام المتبادلة بين أفراد القبيلة وطوطمها،حيث يعتقد هؤلاء بأنهم منحدر ون منه ،وينجم عن هذا الاعتقاد امتناعهم عن قبضه أو أكله أو قتله،وأحيان يحظر لمسه،بل أحيانا لا يجوز النظر إليه ولا مناداته باسمه الحقيقي،إلا في بعض المناسبات التي تعتبر طقوس تكفيرية ،حيث يقتل حيوان الطوطم وتقام خلالها احتفالات تكفيرا عن الذنب، وفي المقابل ينتظر أفراد القبيلة أو العشيرة من طوطمهم المحاباة والحماية الكافية فإذا كان من الحيوانات الخطرة مثل الثعابين السامة أو الكواسر رأت فيه العجز عن إلحاق الأذى بأفرادها ، وإذا وقع العكس طرد الضحية من القبيلة"أقول:الحق أن الطوطمية هذه يمكن أن تعد صيغة أولى للدين في تاريخ البشرية."(2)

أما من الناحية الاجتماعية تتمثل في الالتزامات المتبادلة بين أفراد القبيلة، منها تحريم زنى المحارم ووجوب الزواج الخارجي، بمعنى تحريم العلاقات الجنسية والزواج بين أعضاء الطوطم الواحد والتزامات من قبيلة اتجاه قبيلة أخرى،و أي انتهاك لهذا التحظير يسبب العقاب لصاحبه من طرف أفراد القبيلة أو العشيرة كلها ،وأفراد القبيلة يعتبرون أنفسهم إخوة وأخوات ومن الواجب أن يتضافروا فيما بينهم وأن يحموا بعضهم بعضا،فإذا قتل عضو من العشيرة على يد شخص غريب تعد القبيلة التي ينتمي إليها القاتل هي المسؤولة عن فعلته الإجرامية حيث تطالب العشيرة التي ينتمي إليها القتيل بالتكفير عن الذنب ،إن الروابط الطوطمية أقوى من الروابط الأسرية ،وهكذا يكون الجانب الاجتماعي أهم في الطوطمية لأنه **يمثل المعايير الأخلاقية التي يلتزم بها الأفراد**(3) حيث يقول فرويد:"ولكن أكثر ما اجتذبني الطوطمية،أول أساليب النظام الاجتماعي قي القبائل البدائية ،أسلوب اتحدت فيه بدايات النظام الاجتماعي بدين ساذج وسيطرة صارمة لعدد ضئيل من نواهي التابو* في ذلك

= مجموعة من الجزر المرجانية والبركانية مقسمة عرقيا إلى مناطق فرعية مثل:بوليزيا،مايكرونيزيا ،ماليزيا،ميلانيزيا(تسمى حاليا أستراالاسيا)

1-سيغموند فرويد"**الطوطم و الحرام** "هامش ص 11.

2-سيغموند فرويد،**موسى والتوحيد**،تر/جورج طرابيشي(دار الطليعة للطباعة والنشر،بيروت ،لبنان، الطبعة الرابعة ،1986)ص 110

3-المصدر نفسه "**الطوطم والحرام**"، ص،ص،136-140.

*-التابو،tabou:كلمة بولينيزية ،من العسير ترجمتها،وعند فرويد لها دلالتين:تطلق على المقدس،والمكرس،وعلى المحظور المدنس،من المصدر السابق =.

النظام الكائن المقدس هو دائما حيوان تدعي القبيلة أنها انحدرت منه ومن الدلائل كثير يثبت أن كل جنس من الأجناس ،أيا كانت درجة رقيه قد مر لا محالة بطور الطوطمية."(4)"فقد علمنا أن الطوطمية نظام ينوب مناب الدين لدى بعض الأقوام البدائية في أستراليا و أمريكا وإفريقيا ويقدم المبادئ للتنظيم الاجتماعي."(5)

وقد استرعت انتباه "فرويد" الخصائص الملازمة للطوطمية و هي تحريم قتل الحيوان الطوطم وتحظير الزواج والعلاقات الجنسية بين أفراد العشيرة أو القبيلة أو ما يسمى بزنى المحارم وقانون وجوب الزواج الخارجي، ومدى تشدد البدائيين في معاقبة كل من ينتهك هذه المحرمات ففي أستراليا يعاقب الاتصال الجنسي بشخص من عشيرة محرمة بالموت ، وفي قبيلة "تا-تا-تهي" في بلاد الويلز* في الجنوب ،الرجل المذنب يقتل والمرأة تعض وتطعن بالرماح في مواضع شتى من جسمها إلى أن تلفظ روحها أو تكاد، والسبب في عدم قتلها حالا هو أنها فعلت ذلك إكراها.

رأى "فرويد" إننا لا نملك تفسيرا وفهما للكيفية التي أمكن لهذه الخصال أن تتسلل إلى الطوطمية والتي ترتبط بالشعوب المتمدنة أو المتحضرة ،مع العلم أن الزواج الخارجي كان يرمي إلى أهداف أخرى غير تحظير العلاقات المحرمية بين الأم والأخت ،فهو يحرم الرجل من الاتصال الجنسي بأي امرأة من نفس القبيلة ،أي التي تربطه بها رابطة الدم أو يشترك معها في وحدة العصب ،والشيء الوحيد الأكيد هو دور الطوطم بصفته الجد الأول يلعب دور في هذا التحظير،فجميع الأفراد الذين ينحدرون من طوطم واحد يشتركون في الدم و يؤلفون أسرة واحدة كانت سببا في تحظير المطلق للاتصال الجنسي ،ويبدو كأنه يسلط على هؤلاء البدائيين خوف

=، ص31،و يمكن أن تترجم بالحرام.

4- سيغموند فرويد،المصدر نفسه،**"حياتي والتحليل النفسي"** ص101

5-المصدر نفسه**"الطوطم والحرام "**ص131

5 - Sigmund Freud .Totem et tabou .traduit de Lallemand en 1923 par dr s Jankélévitch (.impression 1951 .édition électronique réalisé avec traitement de texte Microsoft Word)page 77

*- قبيلة تا-تا-تهيta-ta-thi:قبيلة تقع في بلاد الويلز(بالانجليزية wales)بلد يعتبر جزء من المملكة المتحدة ،وجزيرة بريطانيا العظمى تحدها انجلترا شرقا والمحيط الأطلسي والبحر الايرلندي غربا،بلغ عدد سكانها في عام 2011م 3ملايين.

طبيعي من حب المحارم،يتساءل: من أين استقى هؤلاء البدائيون المتوحشون هذه الخصال التي تضاهي تقريبا خصال الشعوب المتحضرة.؟ وكيف حلت الجماعة الطوطمية محل الأسرة الفعلية.؟

يرى "فرويد " أنه فعلا حلول الرابطة الطوطمية محل الرابطة الأسرية كان السبب الوحيد الممكن في هذا التحظير،لأن منح الفرد الحرية الجنسية تتخطى حدود العلاقات الزواجية والتي تستوجب أن تكون خارج القبيلة أو العشيرة ،يؤدي إلى انتهاك قرابة العصب الواحد وحتى حب المحارم.

و يستدل فرويد على هذا بأن لغة القبائل الأسترالية و أغلبية الشعوب الطوطمية لها علاقة بهذه الخاصية،فالتسميات التي ترتبط بالقرابة لا تشير إلى علاقة بين فردين بل تؤلف نظاما تصنيفيا ،فمثلا الإنسان يطلق اسم "الأب" لا على الذي أنجبه فحسب بل على كل شخص يمكنه أن يتزوج أمه ويصير أباه ،ويطلق اسم "الإخوة"و "الأخوات" لا على أبناء والديه بل على أولاد جميع الأشخاص الذين كان من الممكن أن يكونوا والديه،فهذه الأسماء لا تعبر عن علاقات طبيعية (أسماء قرابة) و إنما عن علاقات اجتماعية، ونجد بقايا نظام التصنيف هذا في حضارتنا،فمثلا الأطفال يسمى جميع أصدقاء وصديقات والديهم باسم"عمي" أو "خالتي"(1) وقد اخذ هذه الحقائق التاريخية عن "لويس هنري مورغان" "Henri Morgan " *

إن التعابير اللغوية السابقة يمكن تعليلها بسهولة إذا أرجعناها إلى مؤسسة الزواج الجماعي والتي لا تزال قائمة إلى حد اليوم لدى قبائل الأورابونا والديبري* وهذا ما ذهب إليه كل من "جيلن"" Francis James gillen * ""وسبنسر"" Walter Baldwin Spencer "* حيث يمارس عدد من الأزواج حقوقا زوجية على

---

*-قبائل الأورابونا urabuna والديبري dieri:قبائل أسترالية.

1-سيغموند فرويد ،المصدر نفسه ، ،ص،ص 12-15

*-لويس هنري مورغان:أنثر وبولوجي أمريكي(1818-1881م)أرخ للمجتمع البدائي ووضع تصورا نشونيا وماركسيا للأنثروبولوجيا الاجتماعية،وله دراسة مشهورة بعنوان" المجتمع القديم ،مباحث في خطوط التقدم البشري من الوحشية إلى الهمجية،إلى الحضارة ""م"

*-جيلن (1855-1912) :أنثر وبولوجي أسترالي.

*- والتر بلدين وسبنسر: (1860-1929)بيولوجي و أنثر وبولوجي بريطاني من أهم مؤلفاته:القبائل الأصلية في أستراليا الوسطى .

عدد من النساء و الأطفال، الذين ينجبون من هذا الزواج يعدون إخوة و أخوات حتى و إن لم يكونوا من أم واحدة ،هذا بالنسبة لرهاب المحارم المرتبط بالجماعة ،لكن الذي يستدعي الانتباه أكثر هو وجود طائفة من التحظيرات ترمي إلى منع المعاشرة الجنسية الفردية بين الأقارب الأقربين تماثل التحظيرات التي تتقيد بها المجتمعات المعاصرة،موجودة لدى المجتمعات الأسترالية ولدى كثير من المجتمعات البدائية الأخرى، وهي تتقيد بها بصرامة دينية ،تثبت أن هؤلاء البدائيون أكثر وسوسة منا نحن،هذه التحريمات هي بمثابة تقييدات أخلاقية تلتزم بهذه المجتمعات، وحسبنا أن نقدم أمثلة عن البعض منها ساقها "فرويد في كتاب "الطوطم والحرام"،في ميلانيزيا* نجد تحظيرات تستهدف صلات الأبناء بالأم و الأخوات ، فالصبي في ليبرز أيلاند و هي إحدى جزر الهيرديس الجديدة* عندما يبلغ سنا معينا يقام له احتفال طقسي بالبلوغ،ويترك البيت الأموي ،ويذهب للإقامة في الدار المشتركة club ،فيها ينام ويتناول وجبات طعامه،ويحق له أن يزور البيت الأموي للمطالبة بالطعام ولكن في غياب أخواته، ويجب أن يتناول طعامه على مقربة من الباب، وإذا التقى الأخ و الأخت خارج البيت فعليها أن تولي الأدبار وتختبئ ، ولا يجوز أن يتلفظ باسم أخته.

وبالنسبة للأم تلتزم بتحظيرات أوسع من الابن ،فمثلا لا تقدم له الطعام مباشرة بل تكتفي بأن تضعه أمامه، ولا تخاطبه كفرد أو كابن بل تستخدم ضمير المخاطب الجمع"أنتم" ، وهذه العادات نفسها نجدها في "كاليد ونيا الجديدة" فعندما يلتقي الأخ والأخت لابد أن تختبئ في الأدغال ، وهو يسير في الطريق دون أن يلتفت إليها.

غير أن التحظير الأكثر غرابة هو الذي يطال الصهر والحماة وهو سائد لدى القبائل الأسترالية، والميلانيزية والبولينيزية *و لدى زنوج إفريقيا ،فمثلا في جزر سليمان* لا يحق للرجل أن يرى حماته أو أن

---

*-ميلانيزيا Mélanésie :وتعني الجزر السوداء(بالانجليزيةBlak islands) هي منطقة ممتدة من الجنوب الغربي للمحيط الهادي إلى بحر أرافورا شمال شرق أستراليا،وأول من استعمل هذا المصطلح جولز دومونت درفيل في 1832م وتضم مجموعة من الجزر والأرخبيلات منها:بابوانيو غينيا ،وكاليدونيا الجديدة،وبسمارك(وهي جزء من بابانيو غينيا منذ 1975م)

*الهيرديس الجديدة New heberides:إحدى جزر ميلانيزيا(أو جزر السود) .

*-القبائل البولينيزية:Polynésie من الكلمة اليونانية polus nonuc وتعني كثير،وnesos vnooc وتعني جزر،هي مجموعة من الجزر المنتشرة في المحيط الهادي منها:جزر هاواي،تاهيتي،ساموا،تونجا،وجزر بولينزيا الفرنسية:سوسايتي،ماركيوساس،نيوزلاندا.....الخ،ولغة المنطقة هي البولينيوية.

*-جزر سليمان:Solo mon islands ،دولة تقع في جنوب المحيط الهادي،تتألف من أكثر من 990جزيرة ،عاصمتها هونيارا،لغتها الرسمية،الانجليزية.

يكلمها ،وإذا التقى بها يتظاهر بأنه لا يعرفها ،ويغدو مسرعا حتى يبتعد عن الأنظار(1). وفي قبائل الزولو*يخجل الرجل من حماته، حيث يتفادى الالتقاء بها، فهو لا يدخل إلى الكوخ إذا كانت هي بداخله،وعندما يلتقيها يختفي كلاهما خلف شجرة،وإذا تعذر عليهما التحاشي تعقد المرأة خصلة من العشب تقيدا بالأصول ،وتصريف العلاقات بينهما يتولاه شخص ثالث، وفي قبيلة"بازوغا" وهي قبيلة زنجية تقيم في منابع النيل لا يجوز للرجل أن يكلم حماته إلا وهي في غرفة أخرى ولا يجوز أن يراها، إن هذه التحظيرات هي إجراءات وقائية ضد حب المحارم(2)

ويعرض "فرويد" قائمة من التقييدات الحرمية التي عرفت بها المجتمعات البدائية والتي تمثل التابو(في اللغة الانجليزية taboo)وهي تطلق على المقدس والمدنس أو على المحظور أو المحرم، ويستعمل مصطلح مناقض له في البولينيزية وهو" Noa" وتعني ما هو عادي.(3) ويهدف التابو إلى تنظيم حياة البدائيين وذلك كالتالي:حماية أشخاص أشراف أمثال الكهنة والزعماء،حماية أشياء لها قيمة من أي ضرر ممكن ،حماية الضعفاء،النساء، الأطفال،الرجال بصفة عامة من المانا* **Mana**،الوقاية من الأخطار الناجمة عن ملامسة الجثث وامتصاص بعض الأطعمة،واتقاء الاضطرابات التي قد تقع أثناء انجاز بعض الأعمال المهمة في الحياة ،حماية البشر من قوة الألهة والجن أو غضبها،حماية الأطفال الذين يولدون أو الرضع من مختلف الأخطار التي يمكن أن تهددهم،وحماية ملكية الأفراد كأدواتهم وحقولهم من السرقة،ومصدر التابو قوة سحرية خاصة مباطنة للأشخاص،قادرة على الانتشار في كل الاتجاهات،تقف مناوئة ضد كل من انتهك تابو ،فيكون مصيره الموت،إن

1- سيغموند فرويد،المصدر نفسه،**الطوطم والحرام**،ص ص 19-23.

*-قبائل الزولو:(بالانجليزية zulu)مجموعة من القبائل الإفريقية اشتهرت بخصائصها الباسلة،استوطن معظمهم جنوب إفريقيا،وينتشر بعضهم في زيمبابوي وزامبيا،وموزمبيق،ولغتهم هي البانتو،يؤمنون باله يسمى انكولانكولو(بالانجليزية unkulunkul)أي"اله عظيم جدا"هو الذي خلق كل الموجودات .

2- نفس المصدر ،ص ،24.

3-نفس المصدر، ص31.

*المانا:مصطلح مأخوذ من قبيلة ميلانيزيا ،وتعرف بأنها الإحساس بقوة غيبية طاغية ،سحرية كامنة في كل الموجودات والأشخاص،دون أن تختلط بها،أو هي قوة خفية تعمل بذاتها وتنتقل من الأشياء إلى الموجودات أو العكس،ويمكن اعتبار المانا اله تتجه إليه العشيرة أو القبيلة بالقرابين والطقوس عن طريق عبادة شكله وهو الطوطم. و في نظر علماء الاجتماع هي أصل فكرتنا عن العلة

التابو المنتهك يثأر لنفسه من تلقاء نفسه،والمجتمعات البدائية هي على اقتناع بأن انتهاكها لأي تحظير يعقبه عقابا صارما فمثلا الشخص الذي أكل من لحم حيوان محظور يسقط في الاكتئاب العميق وينتظر الموت ،وهي تجهل علة هذه التقييدات الحرمية و لا يخطر ببالها أن تبحث عن أصلها،وهي تخضع لها خضوع طبيعي، وفي تطور لاحق للبشرية شرعت البشرية في تكوين تصور عن الآلهة وعن الجن ،وأصبح العقاب الفوري ينتظر من الألهة،ثم أضحى المجتمع هو الذي يتولى معاقبة المنتهكين للتابوات.

غير أن التابوات قد تكون دائمة كالكهنة والملوك،والأموات ،وثانوية عابرة ترتبط بمجالات معينة مثل الطمس والنفاس وحالة المحارب قبلها وبعدها والقنص والصيد،وعامة تتعلق بالأشياء المأكولة والحرية وحرك التنقل والاتصال.إن الحرام كما يعتقد به بدائيو بولينيزيا في نظر "فرويد" ليس بعيدا عنا،ونشعر بأن نفس التحظيرات التي نخضعها نحن حاليا بمقتضى الأخلاق والأعراف لها علاقة بالحرام البدائي.(1)

وان التابوات(الحرمات) التي أشرنا إليها سابقا استقاها فرويد عن "جيمس فريزر" وبالخصوص من كتابي"الحرام" و"الغصن الذهبي"حيث تتقيد المجتمعات البدائية بمجموعة من التحظيرات يفرضها زعماء وكهنة القبائل الغرض منها خدمة منافع وامتيازات معينة ،وتصنف إلى ثلاثة:**حرمات متصلة بالأعداء،وبالزعماء،وبالأموات**،فبالنسبة للأولى لابد أن نعلم بأن قتل الإنسان في هذه المجتمعات كان يتقيد بمجموعة من الأحكام تمثل عادات حرمية،وفي مقدمتها **عادات التصالح مع العدو**،فمثلا في جزيرة تيمور* بعد عودة العشيرة المنتصرة حاملة رؤوس أعداء القتلى تقدم الأضاحي لتهدئة أرواح الأعداء ،مصحوبة بغناء يبكي فيه العدو المنهزم يلتمس غفرانه :"لا يأخذنك الغضب علينا،فلدينا هنا معنا رأسك،ولو لم يحالفنا الحظ فأغلب الظن أن رؤوسنا نحن كانت هي التي ستعرض الآن في قريتك ،ولقد قدمنا لك أضحية لسكن روعك،و الآن

1-سيغموند فرويد،نفس المصدر"**الطوطم والحرام**" ص ص،33-37.

*-تيمور:بالانجليزية TIMUR وباللغة الفرنسية Timor،جزيرة تقع جنوب شرقي أسيا،شمال بحر تيمور،أحد فروع المحيط الهادي ،وهي مقسمة حاليا إلى:جزء شرقي مستقل تحت اسم جمهورية تيمور الشرقية،أما الجزء الغربي يتبع اندونيسيا ،وتعني كلمة تيمور في اللغة المالاوية"شرق" نسبة إلى موقع الجزيرة في شرق الأرخبيل.

ينبغي أن يرضى روحك ويدعنا في سلام." وفي قبيلة الدایاك* عندما يعود أفراد القبيلة حاملين برأس عدو إلى قريتهم يقيمون احتفالات تدوم شهورا كاملة،و يطلقون على هذا الرأس أغلى وأجمل الأسماء،ويضعون في فمه أحسن قطع الطعام،والحلوى والسكائر،ويتضرعون منه أن ينسى أصدقاؤه القدامى،وان يحب مضيفوه الجدد الذين أصبح واحدا منهم. (1)

إضافة إلى عادات التصالح مع العدو نجد **تقييدات حرمية** تلتزم بها الشعوب البدائية ،منها الحداد،فمثلا في القبائل المتوحشة في أمريكا الشمالية بمجرد أن يقتل فرد من قبيلة شوكتاو* عدو من الأعداء يلتزم حداد يدوم شهرا.

وفي قبيلة "تيمور" لا يمكن لقائد الحملة أن يعود مباشرة إلى بيته ،بل يخصص له كوخ يمضي فيه شهرين،وفي أثناء هذه المدة يقوم بأفعال تطهرية :يحرم عليه رؤية زوجته،ولا يتناول الطعام بنفسه،بل شخص آخر يناوله الطعام ،وفي بعض القبائل الأخرى يحبس الرجال الذين قتلوا العداء أسبوعا كاملا في منازلهم ويمنع عليهم الاتصال بزوجاتهم،و أصدقائهم و لا يلمسون الأطعمة بأيدهم ولا يقتاتون إلا بنباتات هيئت لهم في أنية خاصة ،و مبرر هذا التقييد الأخير هو لا يجوز لهم أن يشموا رائحة دم الموتى و الا سقطوا مرضى وماتوا.(2)

وفي بعض القبائل في غينيا الجديدة يعد كل من قتل عدوا أثناء المعركة "مدنسا"و يشار إليه بنفس اسم المرأة الحائض أو النافس،وغيرها من التقييدات الأشد غرابة والتي نجهل مصدرها.

وبالنسبة للحرمات الثانية **المتعلقة بالسادة**،فان موقف الشعوب البدائية من ملوكها وكهنتها،يحكمهما مبدآن متكاملان أكثر مما هما متناقضان،وهما ضرورة التوقي منهم،ووجوب وقايتهم،والوصول إلى هذين الهدفين يتم بمراعاة جملة من الأحكام الحرمية ،لكن لماذا يجب التوقي من السادة.؟ لأنهم أشخاص غير عاديين يحملون قوة

---

*قبيلة الدایاك dayaks:هم السكان الأصليون الذين قطنو جزيرة بورنيو بين أنونيسيا و ماليزيا ،ولازالت تحتفظ بعاداتها وتقاليدها منذ 3000سنة.

1-سيغموند فرويد، المصدر نفسه ،ص53،54

*-قبيلة شوكتاو،chctaw:قبيلة أمريكية تقع في الجزء الشرقي من أوكلاهوما الحالية شمال النهر الأحمر.

2-المصدر نفسه ،ص56

سحرية غامضة وخطرة تنتقل بالتماس مثل الشحنة الكهربائية فتتسبب في موت أشخاص عاديين لا يملكون الحماية، ومن أمثلة التي استقرأها "فرويد" عن هذه الحرمات،قبائل النوبا* في شرقي إفريقيا تعتقد أن الموت محتوما على الفرد إذا ما أقبل على بيت ملكها الكاهن،و لكنه يمكن أن ينجو منه إذا ما لمس الملك كتف الفرد اليسرى،لأن الملامسة التي تأتي من يد الملك وسيلة شفاء وحماية ضد الشرور التي تأتي من هذه الملامسة بالذات،فكأن الملامسة الثانية مقصودة من الملك فتصبح قوة شفائية،وفي عهد غير قديم كان ملوك انجلترا يمارسون الملامسة الملكية للشفاء من الأمراض،ففي سنة 1633م يقال أن الملك"تشارلز الأول"* شفى مئة مريض مصاب بداء الغدب* دفعة واحدة،ثم مارس ابنه"تشارلز الثاني" امتياز الشفاء الملكي للغدب* على نطاق واسع،ويقال أنه شفى أكثر من ألف مريض مصاب بداء الخنازير*. (1)

و هناك أمثلة عن تداعيات القوة الخطرة للكهنة والملوك،فقد تسببت ولاعة زعيم من قبيلة الماوري* في وفاة عدد كبير من الأشخاص،فبعدما ضاعت من الزعيم التقاطها آخرون واستعملوها لأغراضهم،وعندما علموا بأنها ملك لزعيم،ماتوا جميعا خوفا،وان الوقوف على كنه هذه الأحكام الحرمية يجعلنا نقف على التناقض الذي تتضمنه،بين قدرة الملك باعتباره يتحكم في مصير الناس والعالم والأشياء،فالبشر جميعا بحاجة إليه لحمايتهم وبين حاجة هؤلاء الكهنة والملوك أنفسهم إلى الحماية من خلال ابتداع الحرمة وفي تأسيس مراسم البلاط وآدابه.،وكأن الملك القادر على كل شيء عاجز عن حماية نفسه.(2)

غير أن هؤلاء الملوك والكهنة يخضعون إلى تقييدات تثبت أن الملكية القديمة لم تكن استبدادية،فالملك في

1- سغموند فرويد،المصدر نفسه"**الطوطم والحرام**"ص ص،57-60.

*-قبائل النوبا(ة)N ouba:قبائل تسكن المنطقة الواقعة في شمال السودان وجنوب مصر،وكان القدماء المصريين يطلقون على بلاد النوبة بلاد كوش ،وهي منطقة تمتد من أسوان حتى مدينة سوبا التي أصبحت تعرف باسم الخرطوم.

*-تشارلز الأول:1 the King Charles ولد في 19 نوفمبر 1600 وتوفي في 30 يناير 1649م هو ملك انجلترا واسكتلندا وايرلندا ما بين(1625-1649)

*-داء الغدب:التهاب العقد السلي.

*-داء الخنازير: بالإنجليزية Swine influenza هو أحد أمراض الجهاز التنفسي التي تسببها فيروسات أنفلونزا، وهذا النوع من الفيروسات يتسبب في تفشي الأنفلونزا بصورة دورية، وفي عام 2009م تم التعرف على 6 فيروسات لأنفلونزا الخنازير 3 h2n h3n2 h3n1 h1n2 H1n1 .

*-قبيلة الماوريMaori :هم السكان الأصليون لنيوزلندا وجزر كوك،وكلمة الماوري تعني العادي في اللغة الماورية،

2-المصدر نفسه،ص61.

هذه الشعوب البدائية لا يحيا إلا من أجل أفراد قبيلته ،فمادام ملكهم ،لابد أن يوفر لهم الحماية والرعاية الكافية ،وإذا لم يريد حمايتهم ،عليه أن يترك مكانه لإله أخر،لذلك يحيا شبه حبيس في منظومة من الطقوس،ومحاطا بشبكة من التحظيرات والعادات،(1)فمثلا في غينيا يعيش الملك الكاهن "كولولو" منفردا في الغابة ،حرام عليه أن يلمس الأرض أو يغادر بيته،وحرام عليه حتى أن ينهض من كرسيه الذي ينام عليه جالسا ،لأنه لو تمدد لينام لتوقفت الرياح عن الهبوب،واضطربت أحوال الملاحة، فوظيفته تتمثل في السهر على بقاء الأحوال الجوية عادية،وهذا نموذج عن التقييدات الصارمة التي يعيشها الملوك البرابرة.(2)

ونظرا لصرامة التقييدات المفروضة على الملوك والكهنة قد أصبح المنصب الملكي الكهنوتي غير مرغوب فيه ،فلدى زنوج السرياليون كانت محاولة فرض المنصب الملكي تقابل بمقاومة شرسة مما اضطر أغلب القبائل إلى إيكال هذا المنصب للغرباء. (3)

أما بالنسبة **لحرمة الأموات** فإنها تنمو عند أغلب البدائيين عن عنف حاد سواء من خلال العواقب الناجمة عن الاحتكاك بالموتى أو في الكيفية التي يعامل بها هؤلاء الموتى ،فمثلا لدى قبيلة الماوري يصبح كل من لمس ميتا أو حضر دفنا مدنسا ويمنع عليه كل اتصال بأصحابه،والذي يتلوث من جراء الاحتكاك بميت لا يستطيع أن يدخل بيتا أو يلمس شخصا أو شيئا بدون أن يدنسهما،و لا يحق له حتى أن يلمس الطعام بيديه،اللتان تصبحان غير صالحتين للاستعمال،الطعام يوضع أمامه وعليه أن يتدبر أمره كيفما يشاء :أن يأكل بشفتيه وأسنانه بينما يديه خلف ظهره،و العادات الحرمية التي تفرض على الذي يحتك بجسم واحدة في كثير من المجتمعات البدائية"إن العادات الحرمية التي تفرض عقب الاحتكاك الجسمي بميت،واحدة في كل بولينيزيا،و ميلانيزيا وشطر من إفريقيا وأهم هذه العادات إطلاقا حظر لمس الطعام وإجبار الشخص الواقع عليه الحظر على تناول الطعام بوساطة آخرين والواقعة التي تجر الإشارة إليها،أن الملوك –الكهنة في بولينيزيا ،وربما أيضا في جزر هاواي* يخضعون للتقييدات ذاتها في أثناء ممارستهم لأفعالهم المقدسة.."(4)

1-سيغموند فرويد،المصدر نفسه،.62

2-المصدر نفسه،ص 64.

3-المصدر نفسه ، ص 66.

4- المصدر نفسه ص 72،أخذ الفكرة عن جيمس فريزر من كتاب "الحرام" .

وبالنسبة للتقييدات التي تفرض على أقارب الميت والذين يتوجب عليهم الاحتكاك بالميت كاليتامى والأرامل والوالدين و الأيامى فإنها مشتركة إلى حد ما بين كثير من الأقوام البدائية رغم تباعد ها،كالأستراليين والبولينيزيين،الصاموئيد *في سيبيريا والتودا* في الهند الجنوبية،مغول بلاد التتار،طوارق الصحراء الكبرى،والأينو* في اليابان والأكامبا* والنا ندي* في إفريقيا،وغيرها من الشعوب.فمثلا في إحدى القبائل في كولومبيا البريطانية* ،يجب على الأرامل والأيامى أن يعيشوا في عزلة تامة خلال فترة الحداد،و لا يجوز أن يلمسوا أحدا أو شيئا ،لا بأيديهم ولا برؤوسهم و بأجسامهم ،و أدواتهم التي يستخدمونها لا تعود صالحة بالنسبة إلى الآخرين،ويحظر على أي شخص الاقتراب من الكوخ الذي يسكنه أحد هؤلاء،لأن ذلك يكون نحسا بالنسبة إليه ،وإذا وقع عليه ظل احد من هؤلاء الحادين وقع مريضا ،و الرجل الأرمل في مقاطعة ميكيو في غينيا الجديدة* ،يفقد كل حقوقه المدنية ويعيش فترة زمنية منبوذا،لا يجوز له أن يشتغل بالزراعة ،ولا يظهر بين الناس،وإذا رآه أحد وبالخصوص امرأة يختفي بسرعة، وتفسير هذا آن الرجل الذي فقد زوجته يتجنب أي

---

*-جزر هاواي:باللغة الانجليزية" Hawaii"هي ولاية أمريكية ،على شكل أرخبيل من الجزر في المحيط الهادي،تتكون من 19 جزيرة رئيسية،تعد أخر الولايات التي انضمت إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

*-الصاموئيد،Samoyèdes des Sibérie:قبائل تقطن في الاتحاد السوفياتي

*-التودا: Todas هي قبيلة رعوية صغيرة تعيش في الأماكن المعزولة في جنوب الهند،ومن عاداتها تمارس تعدد الأزواج الأشقاء،حيث تتزوج المرأة الإخوة في العائلة الواحدة،وهي من أكثر القبائل انغلاقا على نفسها.

*-الأينو: بالإنجليزية (Aïnos) سكان اليابان الأصليين ،قبل وفود أسلاف اليابانيين من البر الصيني ،يقطنون بالجزر اليابانية وأكثرهم في جزيرة هوكايدو،ويتحدثون لغة اينو ،وهي تختلف عن اللغة اليابانية ولازالت عاداتهم وتقاليدهم قائمة إلى الآن،كانت لهم حروب مع اليابانيين استمرت 3قرون.

*-الأكامبا،Akambas:هي قبائل افريقية تقطن في كثير من الدول الإفريقية من بينها الصومال وكينيا

*-النانديles Nandi،:يطلقون على أنفسهم أذا ندي وهي قبيلة تقطن جنوب السودان تتراوح أعدادهم ما بين 1مليون إلى 4 ملايين في إفريقيا و500 ألف في السودان.

*-كولومبيا البريطانية،باللغة الانجليزية" British colombia"،مقاطعة كندية تقع في غرب البلاد،أصبحت مستعمرة كولومبية سنة 1871م، عاصمتها،فيكتوريا.

*-مقاطعة ميكيو في غينيا الجديدة" le District mekeo de la nouvelle guinée britannique"، جزيرة تقع في جنوب غرب المحيط الهادي،شمال أستراليا،تعد من أكبر جزر العالم ،النصف الغربي من الجزيرة يحكم بواسطة أندونيسيا(تسمى غينيا الجديدة الغربية) وبقية الجزيرة تمثل معظم مساحة دولة **بابوا**"PAPAOUASIE" غينيا الجديدة التي استقلت عن أستراليا سنة 1975.**و ميكيو**،مجموعة من القبائل تمثل جزء من سكان هذه دولة ،كما أنها تمثل لغة يتكلم بها سكان هذه المنطقة.

إغراء ،ونفس الأمر بالنسبة للأيم، التي يجب عليها أن تكافح الشهوة نفسها.(1)

ومن اغرب عادات حرمة الحداد عند البدائيين هي تحظير النطق باسم الميت،لأنهم يعتقدون بأن الاسم جزء من شخصية الفرد ،لذلك مناداة باسمه يعتبر جزءا من شخصيته، واحتكاكا بها، والهدف من هذه التحظيرات هو إبقاء روح الميت بعيدا،لأن روح الميت لا يفارق الأقارب الباقين على قيد الحياة،وتبقى تحلق عليهم طوال فترة الحداد،فهؤلاء البدائيون يتقيدون بهذه الطقوس خوفا من حضور الروح ومن احتمال رجوع الميت و بعض القبائل في إفريقيا تعمد إلى تغيير اسم الميت بعد وفاته مباشرة،وعندئذ يصبح بإمكان النطق باسمه بلا خوف،أي تفسير سبب هذه التحظيرات في نظر "فونت" هو أن المرحوم العزيز يتحول لحظة وفاته بالذات إلى عفريتا ،وما على الباقين على الحياة إلا أن يتوقعوا منه موقفا عدائيا،فعليهم أن يتحاشون هذا الأمر بتلك الطقوس،يرى "فرويد" أن فكرة الأموات ينقلبون إلى جن وعفاريت عند البدائيين تدفعنا إلى التساؤل:ما هي الأسباب التي دفعت بهم إلى أن يعزوا موتاهم هذه الصفات التي تعبر عن انقلاب وجداني.؟ لماذا كان المرحوم قبل وفاته عزيزا محبوبا من طرف الأقارب و أصبح لحظة وفاته عدوا لهم.؟(2)

ينطلق "فرويد" من تفسير"فونت"مع إسقاط معطيات التحليل النفسي عليه ،فتصور الجن والعفاريت عبارة عن إسقاط للمشاعر العدائية التي يكنها الباقون على قيد الحياة للأموات،وعليه الحرام عرف النور في ازدواجية،هي الحانية أو الحب للقريب، والعداء اتجاهه أي **المقدس** ،**والمدنس** ،وهكذا تكون كلمة "حرام" تنطوي على الدلالة المزدوجة لهذه الازدواجية الوجدانية"إن إسقاط العداء اللاشعوري على الجن والعفاريت هو السمة المميزة لحرمة الموتى."(3)

إن التحظيرات الحرمية السابقة هي بمثابة تقييدات أخلاقية تفرض نفسها من تلقاء نفسها لا تستند إلى أي سبب أو اعتبار ،فهي ليست أوامر إلهية لذلك يبقى أصلها مجهولا والذي نعلمه هو"أن الحرمات في تصورنا تحظيرات سحيقة القدم ،فرضت فيما غير من الخارج على جيل من البشر البدائيين،أو لقنت من قبل جيل سابق

1-سيغموند فرويد،المصدر نفسه"**الطوطم و الحرام**"ص ص72-75.

2-المصدر نفسه ، ص ص 75-81.

2- المصدر نفسه ،ص 87.

عليه،وكانت هذه التحظيرات تطال أنشطة كان لدى أولئك الناس ميل شديد إلى أدائها ،ثم بقيت التحظيرات قائمة جيلا بعد جيل ،وربما فقط بحكم التقليد المتناقل عن طريق السلطة الأبوية والاجتماعية."(1)و يقول" إن أقدم التحظيرات الحرمية و أهمها إطلاقا تتمثل بالقانونين الأساسيين للطوطمية:عدم جواز قتل الحيوان الطوطم،ووجوب تحاشي العلاقات الجنسية مع أفراد الجنس الأخر المنتمين إلى الطوطم نفسه....وهما أقدم إغراءات البشر وأقواها."(2)

وهو الأمر الذي كان بمثابة الحس الإشكالي الذي دفع ب"فرويد" إلى التساؤل عن أصل هذه التحظيرات الملازمة للطوطمية :كيف يتسنى لهذه المجتمعات البدائية(مجتمعات ما قبل التاريخ)أن تسن لنفسها قوانين تحظر الزواج داخل القبيلة أو العشيرة ،وبين الأقارب(تحريم حب المحارم) والذي يعد الزواج الخارجي ترجمان له،و غيرها من **التقييدات الأخلاقية** الأخرى و الأكثر غرابة ،والتي تحدثنا عنها سابقا و بعضها لازال لدى بعض المجتمعات المعاصرة.؟وما مصدر هذه التحظيرات.؟ وقد رأى أن الولوج إلى كنه هذه التحريمات يرتبط بمعرفة **أصل الطوطمية وطبيعتها**،"وفي كل الأحوال يعتقد أن **"التابو"** الذي ظهر في أزمنة بعيدة من تاريخ تطور المجتمع البدائي،يحافظ على قيمته و أهميته في الحياة النفسية للإنسان المعاصر أيضا،ويرى فرويد أن هذا التابو من حيث طبيعته السيكولوجية ليس شيئا أخر سوى (الواجب القطعي) عند كانط"" Emmanuel Kant " * لذا أن الفهم التحليلي النفسي للأخلاقيات يتم استنباطه من قبله ،من معالجة دراسة ظهور التابو لأن شرح التابو حسب فرويد بإمكانه إلقاء الضوء على المنشأ الغامض لواجبنا القطعي الخاص بنا."(3) "و نرى أيضا أن ما نصفه بأنه خرافة لم يكن سوى خيط رفيع من الحس الخلقي افتقدناه نحن المتحضرين."(4)

1-المصدر نفسه،ص،47.

2-المصدر نفسه،و نفس الصفحة.

*-ايمانويل كانط :(1724-1804) فيلسوف ألماني،مؤسس الفلسفة النقدية،فهو أول من أخذ العقل إلى محكمة النقد.من أهم مؤلفاته:نقد العقل الخالص،نقد العقل العملي،نقد ملكة الحكم،الدين في حدود مجرد العقل.

3-فليري ليبين ،**فرويد-التحليل النفسي والفلسفة الغربية المعاصرة**،تر/ زياد الملا،مراجعة تيسير كم نقش،(دمشق دار الطليعة الجديدة ،الطبعة الأولى 1997) ص103 .

4-سيغموند فرويد،**الحب والحرب والحضارة والموت**،دراسة وترجمة،د،عبد المنعم الحفني(دار الرشاد،القاهرة،الطبعة الأولى 1992)،ص36

ثانيا-أصل الطوطمية : يعرض"فرويد" في كتابه "الطوطم والحرام" ثلاث نظريات في أصل الطوطمية: الاسمية، ،والسوسيولوجية(الاجتماعية)، والسيكولوجية وينتقد كل واحدة منها، وأولها:

النظريات الاسمية:les théories nominalistes و هي ترى بأن مصدر الطوطم هو العلامات الأشعرة (heraldic bodges) التي أراد الأفراد والأسر وقبائل الشعوب البدائية أن يتميزوا بها عن بعضهم بعضا،ومن دعاته"أ،ك،كين" في كتابه الاثنولوجيا* (Ethnologie) والأنثروبولوجي الانجليزي " فريد يريك ماكس موللر*" "Friedrich masc. Müller" في كتابه مساهمات في علم الميثولوجيا* (Contributions to the Science of Mythology)،فالطوطم في نظره إما أن يكون شعار للعشيرة أو اسم لها أو اسم لسلف العشيرة أو اسم لشيء توقره،وقد رأى كل من"غارسيلازو دي لافيغا""Garcilaso de la Vega " * و"أندرو لانغ" " Andrew Lang"* أن الحاجة العملية إلى تميز القبائل عن بعضها البعض ،هي التي أرغمتها على اتخاذ أسماء،غير أن هذه التسمية من الخارج تطلقها كل قبيلة على الأخرى،ورغم أن هذه الأسماء قد استعيرت من الحيوانات إلا أن هذا الأمر لا يدهشنا لأنها لم تكن مجلبة للعار في نظر البدائيين ويستشهد "لانغ" بأمثلة مقتبسة من عهود تاريخية ليست بعيدة عنا،تسمى بها الأفراد أنفسهم عن طيب خاطر،مثل (المعدمون،التوري) وهذه الظاهرة نفسها موجودة في اللغة العربية مثل(الصعاليك،تأبط شرا...الخ) ونفس الرأي تبناه"هربارت سبنسر"* "Herbert spencer" الذي رأى بأن بعض الأفراد أظهروا صفات استوجبت إطلاق أسماء حيوانات عليهم، فاكتسبوا ألقابا و أورثوها إلى أسلافهم، ونظرا لغموض اللغات البدائية،فقد فهمت الأجيال اللاحقة بأن هذه

---

*الاثنولوجيا:باللغة الانجليزية Ethnology.وباللغة الفرنسية Ethnologieفرع من فروع الأنثروبولوجيا،وتعرف بأنها علم يدرس الإنسان ككائن ثقافي،أو علم يعني بانجازات الشعوب وأحوالهم الثقافية والحضارية

*-أ،ك،كين: أنثروبولوجي انجليزي.

*-ماكس موللر:عالم لغوي ألماني(1823-1900) أشتهر بدراساته المقارنة في مجالات اللغة والدين وعلم الأساطير.

*الميثولوجيا : mythogy،باللغة الانجليزية،علم الأساطير،وهي تشير إلى مجموعة من الأساطير الخاصة بالثقافات التي نعتقد أنها صحيحة وخارقة،تستخدم لتفسير الأحداث الطبيعية و شرح الطبيعة الإنسانية،وفي السياق العلمي تعني الميثولوجيا "قصة مقدسة" أو "قصة تقليدية" أو قصة عن الآلهة"لكنها لا تعني قصة كاذبة،فالعلماء يستخدمون كلمة"الأساطير الدينية" دون قصد الإساءة إلى الدين.

*-غارسيلازو دي لافيغا: (1539-1916) مفكر وكاتب من البيرو مشهور بمؤلفه:les commentaires royans des incas

*- أندرو لانغ: (1844-1912)رجل أدب وشاعر وناقد أدبي،معروف بأبحاثه في الفولكلور وفي الميثولوجيا والدين .

*-هربارت سبنسر: (1820-1903)فيلسوف بريطاني،ساهم في ترسيخ مفهوم الارتقاء وأعطى له أبعادا اجتماعية.

الأسماء شاهدة على انحدارهم منها ،فتحولت الطوطمية إلى عبادة الأسلاف.

غير أن تحليل هذه النظريات يقودنا إلى اعتراض غير قابل للدحض هو أن الطوطم تسمية لجماعة وليس لفرد،ولو كان الطوطم اسما لفرد لما أمكن له أن يتناقله الأولاد ،لأن نظام الوراثة كان بحسب عمود الأم وهذا الاعتراض يمثل وجهة نظر "فيزون" "Lorimer fison"* كما أن هذه النظريات لم تفسر لنا الأهمية التي اكتسبتها التسمية ،أي كيفية نشوء النظام الطوطمي(1).

النظريات السوسيولوجية: les théories sociologiquesمن بين الآراء التي تصب في الأصل الاجتماعي للطوطمية نجد رأي"إميل دوركايم"*"Emile Durkheim" الذي اعتبر الطوطم ممثل لديانة الجماعة في كتابه "الأشكال الأولية للحياة الدينية،النظام الطوطمي في أستراليا " les Formes élémentaires de la vie Religieuse système totémique en Australie » (2)،و انطلاقا من موقفه المنهجي الأساسي، إن الحقيقة الاجتماعية سببها حقيقة اجتماعية أخرى،الطوطمية تمثل الشكل الأكثر بدائية وبساطة للدين،يوازيه شكل بدائي من التنظيم الاجتماعي هو العشيرة،وهي تمثل نسق من الأفكار تعطي للعشيرة تمثيلا كاملا عن العالم ،ليس الحيوان أو النبات مصدر الطوطمية ،إن الطواطم هي التمثيل المادي للقوى غير المادية فيها وهذه القوى ليست إلا الضمير الجمعي،و بذلك تكون الطوطمية دين، لكن ليست بتلك الحيوانات أو النباتات أو تصورات الناس ،و إنما بتلك القوى المجهولة وغير الشخصية،و هي موجودة في تلك الكيانات لكنها ليست ممتزجة بها ،إذن العشيرة هي المصدر المطلق للدين،و كيف تخلق العشيرة الديانة الطوطمية.؟ عن طريق **الانفعال الجمعي*** الذي يمثل لحظات كبرى من الوعي والرقي تحققه الجماعة.

وبناءا على ما سبق،الطوطمية هي التمثيل الرمزي للضمير الجمعي،و الضمير الجمعي يأتي بدوره من

---

*-لورمي فيزون: (1832-1907) أنثر وبولوجي أسترالي.

1- سيغموند فرويد،المصدر نفسه"**الطوطم والحرام** " ص ص144-147. 1-Sigmund Freud. Ibid. **totem et tabou.** Pp .84-87

*- إميل دوركايم (1858-1917م) :فيلسوف وعالم اجتماعي فرنسي،يعتبر احد مؤسسي علم الاجتماع الحديث،من أهم مؤلفاته تقسيم العمل الاجتماعي،قواعد المنهج في علم الاجتماع، الانتحار و الحولية السيوسيولوجية.

2-المصدر نفسه،ص 148.

*-الانفعال الجمعي:إن المقدس لا ينبع من المجال النفسي الفردي، بل هو ظاهرة جماعية مشتركة، فالدين ينبع من الجماعة وليس من المخاوف والقلق والمساءلة و الانبهار و التعجب الكامن في الوعي الفردي، وهذا الموقف يشترك فيه مع ابن أخته مارسيل موس"marcel Mauss".

المجتمع،لذلك فان المجتمع مصدر الضمير الجمعي والطوطمية.

و قد التمس"أ،ك،هادون""Alfred cort hadon "* حججا تؤيد الميول الاجتماعية لنشأة الطوطمية حيث افترض أن كل قبيلة بدائية كانت تقتات في أول الأمر من نوع واحد من أنواع الحيوانات أو النباتات،وربما كانت تتاجر به أيضا ،بحيث تتخذه وسيلة للمقايضة بمنتجات لقبائل أخرى ،فمن الطبيعي أن تعرف هذه القبيلة بهذا الاسم ،ويتولد لدى أفرادها اهتماما خاصا بهذا الحيوان الذي يلعب دورا كبيرا في حياتها.

رغم أن هذه النظرية أكثر عقلانية إلا أنها تعرضت إلى انتقادات مفادها أن الحالة البدائية التي تتحدث عنها هذه النظرية لم نعثر على أثر لها عند البدائيين لأنهم قارتون،والقارت هو الذي يأكل كل شيء،ولم تبين لنا كيف اتخذ هؤلاء البدائيون موقفا دينيا من الطوطم بحيث أصبح يحرم قتله وأكله ،بعدما كان مصدر طعامهم.(1)

وقد سلم "جيمس فريزر" بالتفسير الاجتماعي للطوطمية بعد اطلاعه على أبحاث "جيلين" "وسبنسر"اللذان وصفا منظومة متكاملة من العادات والتقاليد والمعتقدات الطريفة عند قبائل الأرونتا* ومن بينها طقس الأنتيشيوما"Intichiuma "* فالبدائيون في نظره كانوا"يؤلفون جمعية سحرية ،إن جاز القول للإنتاج والاستهلاك ،وكانت كل عشيرة طوطمية تكلف بتأمين وفرة مادة غذائية بعينها،وإذا لم تكن الطواطم مما يؤكل،بل حيوانات خطرة أو مطر أو ريح الخ،كانت العشيرة تكلف بالاهتمام بهذا الضرب من الظاهرات لتطرد أفاعيلها الضارة . ربما أن العشيرة لا يجوز لها أن تطعم منه إلا في أدنى الحدود،فقد كانت تعمل على تموين العشائر الأخرى بهذه المادة الثمينة مقابل مقايضتها بالمواد التي كانت تكلف بها هذه القبائل بدورها."(2) لقد سلم "فريزر" بأن كل عشيرة طوطمية كانت تقتات من طوطمها في بادي الأمر لكنه لم يستطيع تفسير سبب إقلاعها عن هذا الأمر في التطور اللاحق لها، حيث افترض أن هذا التقييد ناتج من ملاحظة امتناع الحيوان عن أكل سائر الحيوانات نوعه، من ثم استنتج البدائيون لو فعلوا ذلك لأضروا بعملية تقمص طوطمهم،وفي الدور الذي

---

*- ألفرد كورت هادون (1855-1940): من مؤسسي الأنثروبولوجيا البريطانية الحديثة،من أهم مؤلفاته مقدمة لدراسة علم الأجنة.

1-المصدر نفسه، ص 148،149

*-الأرونتا:باللغة الفرنسية Arunta،قبيلة من السكان الأصليين الأستراليين تقطن وسط أستراليا.

*-طقس الأنتيشيوما:Intichiuma ،احتفال طقسي ،يقوم أفراد قبيلة الأرونتا،يهدف إلى مكاثرة الموضوع الطوطمي المأكول بوسائل سحرية.

2-،سيغموند فرويد ،المصدر نفسه"**الطوطم والحرام**" ص151.

يلعبه كسلطان حامي لهم،أو رغبة في كسب ود الحيوان عن طريق المحافظة على حياته.

إن هذا التفسير يقوم على الاعتقاد بالطبيعة البدائية لمؤسسات الأرونتا ،وهذا الرأي كان محل اعتراض من طرف كل من "إميل دوركايم" و"لانغ" لأن الأرونتا يمثلون أكثر تطورا من بين القبائل البدائية في أستراليا، ومؤسساتهم تمثل مرحلة انحلال الطوطمية أكثر من بدايتها،ولم يفسر لنا كيف تأتى للزواج أن ينتقل من داخل القبيلة إلى خارجها.(1)

إن البحث عن حقيقة هذا التفسير في نظرنا يقودنا إلى اعتباره بيولوجيا وليس سوسيولوجيا ،لأن أصل الطوطم هو حاجات الأفراد الطبيعية أو البيولوجية .

النظريات السيكولوجية: les Théories psychologiquesمن دعاتها "جيمس فريزر" وهي ترتكز على الاعتقاد بأن "النفس الخارجية" أي الطوطم يمثل ملجأ أمينا تلجأ اليه النفس لتنجو من الأخطار التي تهددها ،فعندما يرتبط البدائي بطوطمه يصبح هو ذاته غير قابل للأذى ،ويمتنع عن إلحاق الأذى بحامل نفسه،مادام الفرد لا يعرف أي فرد من أفراد النوع الحيواني حامل لنفسه يمتنع إلحاق الأذى بالنوع الحيواني كله، ثم توقف فريزر عن ربط الطوطمية بالاعتقاد بالنفوس .

كما تحدث عن تفسير أخر للطوطمية مفاده ملاحظته لجهل الأرونتا للعلاقة بين الحمل والفعل الجنسي،أي تنفي هذه القبائل الأبوة ،وتعتقد بأنه أثناء إحساس المرأة بالحمل يكون قد غادر أحد الأرواح المهيأة للبعث أحد الأجسام القريبة وهو مهيأ للدخول إلى جسم المرأة الحامل وستنجبه كما لو كان طفلا،ويكون للطفل نفس الطوطم الذي لسائر الأرواح المقيمة في المكان نفسه.(2)

إن هذه النظرية في الحمل عاجزة عن تفسير الطوطمية،لأنها تفترض طوطما سلفا،لكن إذا افترضنا بأن المرأة التي كانت تعتقد بالحيوان أو النبات أو الحجر الذي يشغل ذهنها أثناء شعورها بالحمل قد دخل جسمها وولد في شكل إنسان، يكون هذا تبرير لوحدة الهوية بين الإنسان وطوطمه وسائر التحظيرات باستثناء تحريم زنى المحارم.

1-سيغموند فرويد،المصدر نفسه،ص،151،152.

2-نفس المصدر والفصل ص 152،153.

إن الاعتراض الموجه إلى"فريزر" هو أن البدائيين لا يجهلون الأبوة بل كانوا في كثير من الأحيان يعرفون الوراثة حتى بحسب عمود الأب.

وقد صاغ "فريزر" هذه النظرية" قبل أن يطلع على أبحاث"سبنسر" و"جيلين" اللذان أجريا أبحاث على قبيلة الأرونتا،تسير في اتجاه التفسير السوسيولوجي للطوطمية.

ومن بين النظريات السيكولوجية نجد تفسير"فونت"" Wilhelm Wundt "الذي يرى بأن الطوطمية ترتبط بالاعتقاد بالنفوس أي "الإحيائية * "Animisme وهي ترتكز على واقعتين أساسيتين حاسمتين :أولاهما الموضوع الطوطمي الأكثر بدائية والأكثر انتشارا هو الحيوان،وثانيتهما ،هو أن الحيوانات الطوطمية الأكثر انتشارا هي تلك التي لها نفس مثل الثعابين والطيور والفئران،ونظرا لقدرتها العظيمة على الحركة والطيران في الأجواء وعلى إثارتها الرعب في الإنسان جعلت الإنسان البدائي يعتقد بأنها حاملة للنفوس التي فارقت الأجسام.(1) لكن هذه النظرية عاجزة هي الأخرى عن تفسير أصل الطوطمية ،وينطبق عليها نفس الاعتراض الموجه إلى" جيمس فريزر".

ثالثا-الخطيئة الأولى ونشأة الدين والأخلاق: يرى"فرويد" أن عصب المشكلة يكمن في البحث عن مصدر وعلة تحريم زنى المحارم ووجوب الزواج الخارجي و يشير إلى أن الدراسات والأبحاث فيما يتعلق بالعلاقة بين الطوطمية والزواج الخارجي مختلفة،بحيث نجد أنفسنا أمام تصورين:تصور يجعل الزواج الخارجي جزء من مؤسسة الطوطمية*،وتصور ثاني يفصل بينهما*حيث يقول" وعلى هذا النحو تجدنا أمام تصورين،أحدهما يتمسك

---

*- ولهام فونت: (1832-1920)عالم نفساني ألماني ،مؤسس علم النفس التجريبي،أنشأ معمل في ألمانيا في جامعة ليبرج الألمانية لإجراء التجارب على أشخاص حقيقيين ،من أشهر مؤلفاته :مبادئ علم النفس التجريبي ويتكون من ثلاث مجلدات.

1-نفس المصدر ، ص156

*-الإحيائية: المعنى الضيق لها تعني نظرية التصورات المتصلة بالنفس،وبالمعنى الواسع نظرية الكائنات الروحية بصفة عامة،وتعني أيضا مذهب حيوية الطبيعة،التي نعتقد أنها جامدة،وعن طريقها نعتقد بروحية الحيوان وبقوة المانا،فالعالم يغمره عدد كبير من الكائنات الروحية المضمرة لنية النفع أو الأذى بحسب هذا الاعتقاد، عن فرويد نفس المصدر ص 101،100

*- التصور الذي يجعل الزواج الخارجي جزءا من الطوطمية:من بين دعاته إميل دوركايم ،فالحرام المرتبط بالطوطم كان يستتبع بالضرورة تحظير الاتصال الجنسي بامرأة تنتمي نفس طوطم الرجل،إضافة إلى "لانغ" الذي يختلف مع دوركايم في التفاصيل.

*-التصور الذي يفصل بينهما: من أنصاره "جيمس فريزر" و"ماك لينان" الذي جعل الزواج الخارجي يرتبط بعادات اقتناء النساء عن طرق خطفهن من القبائل الغريبة فصار الزواج من نساء القبيلة نادرا واستثنائيا.

بالظواهر البدائية فيرى في الزواج الخارجي جزءا أساسيا من النظام الطوطمي ،بينما ينكر ثانيهما هذه الرابطة ،و لا يعتقد إلا بتطابق عرضي بين هاتين السمتين المميزتين للحضارة البدائية."(1) يتساءل فرويد: من أين ينبع الخوف من زنى المحارم ، ذلك الخوف الذي يعد أصل الزواج الخارجي .؟

لا يمكن تفسير رهاب زنى المحارم بالنفور الفطري الغريزي من المعاشرة الجنسية بين ذوي القربى،و هو بذلك،يرد على التفسير الذي دعى إليه "ادوارد وسترماك"*"Edward westermak" بالاعتماد على ملاحظات "جيمس فريزر" أخذها من كتاب "الحرام"، لأنه على العكس من ذلك،إن الغرائز والنوازع الطبيعية تدعو إلى زنى المحارم ،والقانون الوضعي يشجب اقتراف هذه الجرائم،ولولا النوازع الطبيعية الفاسدة لما وجدت الجرائم،ولما وجد قانون،وعليه بدلا من التسليم بوجود نفور طبيعي من زنى المحارم ،نستنتج وجود دوافع طبيعية تدعو إليه.إن الرغبات الجنسية الأولى للإنسان المراهق هي ذات طبيعة محرمية ،وهذه الرغبات المقموعة تلعب دورا كبيرا في ظهور العصاب.* "le Névrose" (2) استقراء "فرويد" لتاريخ البشرية يثبت أن زنى المحارم الذي يجرح مشاعرنا،كان ذائعا في أوساط الأسرة الفرعونية الملكة في مصر وعند بعض الشعوب القديمة ،بل كان امتيازا مقدسا عند الملوك، ممثلي الآلهة على الأرض، إضافة إلى أن علاقات الحب بين المحارم لم تكن مستكرهة سواء عند الإغريق أو في العالم الجرماني.حيث يقول:" بل يسعنا أن نقول انه

1-المصدر نفسه **"الطوطم والحرام"**ص 157

*-ادوارد وسترماك: أنثر وبولوجي فنلندي(1862-1939)يعتبر حجة في تاريخ الأخلاق وعادات الزواج أهم كتبه تاريخ الزواج عند الإنسان،له كتب عديدة في العادات المغربية،الأفكار الأخلاقية أصلها وتطورها،مستقبل الزواج في الحضارة الغربية،المسيحية والأخلاق.

2-المصدر نفسه، ص ص160-162.

*-العصاب: وباللغة الانجليزية Neurosisهو نوع من الخوف الذي يؤدي إلى اضطراب في الشخصية ،وفي الاتزان النفسي،غير مصحوب بتغير بنيوي في الجهاز العصبي،ترافقه في كثير من الأحيان أعراض هستيرية،و للعصاب أعراض هي:الاكتئاب،الخوف، غياب الشعور بالعواطف،القلق الوساوس.ويعرف بأنه اضطرابات وظيفية غير مصحوبة باختلال جوهري في إدراك الفرد للواقع كما هو الحال في الأمراض الذهانية،وهناك نوعان من الأعصبة:الأعصبة الفعلية مثل النوراستينيا،وعصاب القلق،والأعصبة النفسية أهمها الهستريا والعصاب ألوسواسي،عن الموسوعة النفسية،د/عبد المنعم الحفني،الطبعة الرابعة 2002م،مكتبة مدبولي القاهرة.ص140

تقليدا مقدسا.فقد كان من الطبيعي أن يجد الفرعون في شخص أخته وزوجته الأولى والرئيسية،و لم يتوانى خلفاء الفراعنة،البطالسة*،عن حذو حذوهم،هكذا ، نجد أنفسنا ميالين إلى الافتراض بأن حب المحارم، و في مثالنا بين الأخ و الأخت، كان امتيازا مرموقا على الملوك، ممثلي الآلهة على الأرض ومحظورا على عامة الناس."(1)

كما ينتقد "فرويد" التصور الذي يرد تحريم زنى المحارم إلى ملاحظة الشعوب البدائية للأخطار التي تنطوي عليها زيجات العصب الواحد،من منظور التناسل،حيث يرى على لسان "إميل دوركايم"،أن البدائيين لم يشتغلوا بصيانة الذرية من العواقب الضارة لزيجات العصب الواحد،فلا يمكن أن نرد هذا التحظير إلى أسباب تتعلق بعلم الصحة وحفظ النسل(2) حيث يقول إميل دوركايم " إنهم عاجزون عن توقع الآفات البعيدة التي يمكن أم تصيب ذريتهم."(3)

إن أصل الخوف من زنى المحارم ،وبالتالي الطوطمية من حيث هي شكل من أشكال الدين ،ومن حيث هي تنظيم اجتماعي يؤسس القيم الأخلاقية،استنبطه "فرويد" من خلال أبحاثه المتعلقة ، **برهاب"** la Phobie " **الأطفال و بالوليمة الطوطمية(نظرية التضحية).**

1-رهاب*الأطفال: اعتمد "فرويد" كثيرا على الأبحاث التحليلية النفسية في معالجة الحالات العصابية لرهاب الأطفال من الحيوانات ،وبالخصوص أبحاث الدكتور"فونت" والتي أثبتت حقيقة هذه الظواهر بأنها مجرد خوف من الأب يسقطه المريض على الحيوانات،فأرهبة(الأحصنة،الكلاب، القطط،الدجاج) نابعة من الخوف

---

*-البطالسة:نسبة إلى بطليموس،اسم أطلق على ملوك مصر الهلنيستيين،أي ذوي الأصول الإغريقية،خلفاء بطليموس المعرفين بالبطالسة،وقد حكموا من 306 إلى 30 قبل الميلاد،وعددهم 16 حاكما،أشهرهم:بطليموس الأول-سوتير،بطليموس الثاني-فيلادلفسا،بطليموس الثالث-أفر جانس،كيلوبيترا(اسم جمع سبع ملكات البطالسة) أشهره كيلوباترا الخامسة .

1- سيغموند فرويد، المصدر نفسه **"موسى والتوحيد "** ص168

2-سيغموند،فرويد**"الطوطم والحرام"** ص162،163

3-المصدر نفسه ، من هامش الصفحة 163.

*-الرهاب أو الفوبيا: يعني الخوف المرضي،مرض نفسي يعرف بأنه خوف متواصل من مواقف أو نشاطات معينة،أو مجرد التفكير فيها،هذا الخوف الشديد يجعل المصاب عادة بعيش ضيق وقلق، ومن أنواعه الرهاب الاجتماعي،والرهاب المحدد الذي ينقسم إلى أنواع منها رهاب الحيوانات،من طبيعة البيئة...الخ.

رهاب الخلاء:الخوف من مغادرة المنزل، الخوف من الأماكن العامة المفتوحة...الخ

المستشعر من الطفل إزاء الأب إلى الحيوانات.

ومن الأمثلة على ذلك،رهاب طفل تحدث عنه الدكتور "وولف" في سن التاسعة،كان يشكو منذ أربع سنوات من رهاب الكلاب ،فبمجرد أن يرى كلبا يركض أمامه ينطلق في الصراخ والبكاء،ويقول "أيها الكلب الصغير لا تأخذني، سأكون لطيفا.""أي المقصود من هذا لن أستمني ،وهذا الأمر موجه إلى الأب الذي حظر عليه الاستمناء،و قد وجد"فرويد "بأن هذا التفسير ينسجم مع تفسيره لحقيقة هذه الظواهر المرضية.(1)

إن الواقعة التي كان لها الصدى الكبير في توجيه أبحاث فرويد نحو نواة الطوطمية هي "قصة هانز الصغير"(باللغة الانجليزية the little Hans)التي عرضها وحللها في كتاب"التحليل النفسي لرهاب الأطفال" حيث أصيب برهاب الأحصنة(thePhobie of horses)في الأربع سنوات و8 أشهر من العمر،وقد كان طفلا ذكيا،له نهم كبير للمعرفة لا يتوقف عن طرح الأسئلة، وتربى تربية حرة من والديه ، وظهرت حالة الرهاب عنده بعد بضعة أشهر من ميلاد أخته"أنا"وقد بدأ رهابه من إبائه الخروج من البيت خوفا من الحصان ،ويخاف من دخول الحصان إلى غرفته ليعضه.وقد تولى والد هانز بعلاج ابنه تحت إشراف"فرويد"،إذ دون ملاحظات مفصلة عن سلوك ابنه قبل أن يتم عامه الثالث،والتي أصبحت بمثابة تقرير عن تاريخ الحالة،فكان "فرويد" يقدم توجيهات للأب ،وهذا الأخير يقدم ملاحظات له ،إلى أن شفي هانز بعد أربعة أشهر من العلاج.(2)

وقد كشف التحليل عن الموقف الازدواجي الملتبس من الطفل إزاء الأب،المتمثل الحانية والعدائية،والصراع الداخلي القائم بينهما،أي الكراهية المتولدة من مزاحمة الأب للطفل في أمه،والحنو والإعجاب للأب باعتباره مصدر حماية ،هذا الصراع أسقطت مشاعره على موضوع بديل هو الحصان،وهذا يعنى أن "هانز الصغير"

1-المصدر نفسه ،ص 168

2-سيغموند فرويد،**التحليل النفسي لرهاب الأطفال(هانز الصغير)**، تر،جورج الطرابيشي (دار الطليعة للطباعة والنشر،بيروت لبنان،الطبعة الأولى1984م)من المقدمة،ص،6،7،مع العلم أن فرويد عرض قصة هانز الصغير في عدة مؤلفات أخرى منها:خمس حالات في التحليل النفسي،الحياة الجنسية،تفسير الأحلام،الكف والعرض والحصر،الطوطم والحرام

ما كان يخاف الأحصنة فحسب بل كذلك يحبها،هذه الواقعة والتي تعرف بعقدة أوديب*(Complexe d'Oedipe)،والتي تعتبر نواة الأعصبة بصفة عامة ،نقطة مركزية في تفسير الطوطمية لأن الطفل حول مشاعره إزاء الأب تجاه أحد الحيوانات.فالطفل في تحليل الواقعة كان يبدي إعجابا كبيرا اتجاه الأب بسبب كبر أعضاؤه التناسلية،وفي نفس الوقت يرى فيه منافسا تجاه الأم،وخطرا يتهدد أعضاؤه التناسلية،وهذا ما يسمى **بعقدة الخصاء***Complexe de castrationوسبب ذلك أن أمه هددته بأن أباه سيقطع عضوه الذكري.

والواقعة الثانية قصة رواها الدكتور"ساندور فيرنزي*""Sandor Ferenczi "عن الطفل الصغير"أرباد"،التي تبدأ منذ كان في عمره عامين ونصف،عندما كان ذات يوم في الريف و أراد أن يبول في الخم ،فعضت قضيبه دجاجة،ولما عاد في العام الموالي إلى المكان نفسه تخيل نفسه دجاجة،وصار كل ما يجري شغله الشاغل،يقلد الدجاج في صوته،ولا يتكلم إلا عن الدجاج،ولا يعرف أغاني سوى التي يكون فيها ذكر للطيور،فكان موقفه من حيوانه الطوطم (الدجاج)ازدواجيا :كره وحب شديدان ،ولعبته المفضلة هي عراك الدواجن،يفرح ويبتهج كثيرا عندما يحضر عراك الدواجن،ويمكنه أن يرقص ساعات حول جثث الدجاجات،فكان

---

*- هانز الصغير:لابد من الإشارة إلى أن الكثير من نقاد فرويد اعترضوا على تحليله لحالة "هانز الصغير" ومن بينهم "اريك فروم" الذي ينتمي الى ما بعد الفرويديةPostfreudien حيث خصص فصلا كاملا في كتابه"أزمة التحليل النفسي"،حيث أعاد تحليل حالة"هانز الصغير" بتحليل مغاير،وخلاصة تحليله هو أن فرويد اخفق في تحليله للحالة،لأن موقفه من المجتمع البورجوازي الذي يمثله والد هانز هو موقف النقد الليبرالي اللاجذري،فهو ارتأى أن تكون التربية الليبرالية مثالية ،ولكنه تغافل،العنف المتمثل في تهديد أمه بالخصاء،والكذب،حيث ادعت أمه أنها تملك عضو ذكري .

*-عقدة أوديب:باللغة الانجليزية(Oedipus complexe) يقال لها العقدة الأم أو الأساس أو النواة مفهوم أنشاه فرويد واستوحاه من أسطورة أوديب الإغريقية ،عقدة نفسية تطلق على الذكر يحب والدته ويتعلق بها ويغير عليها من أبيه ويكرهه،وهي مقابلة لعقدة الكترا عند الأنثى،عن الموسوعة النفسية ،د،عبد المنعم الحفني،ص 504.

*-عقدة الخصاء:باللغة الانجليزيةCastration complexe تعني خوف الطفل من أبيه أن يقطع عضوه الذكري إذا تمادى في ميله الجنسي نحو أمه ،يرتبط الخصاء بالكبت الذي يتعلمه لرغباته الجنسية،تجاه أمه"عقدة أوديب"،حيث تتحول الطاقة الشهوانية التي لم تجد المتصرف الأصلي لها إلى طاقة عدوانية تجاه الأب،وعقدة الخصاء هي تطور طبيعي لعقدة أوديب.عن الموسوعة النفسية،د عبد المنعم الحفني،ص506

*-ساندور فيرنزي (1873-1933م)محلل نفساني مجري صديق وتلميذ فرويد من أهم مؤلفاته: le. les Fantasmes provoques et leur danger traumatisme. l enfant dans l'adulte

يعرف كيف يسقط رغبات على الحيوان الطوطمي،فقال في يوما ما "أبي ديك،و أنا الآن صغيرا،أنا صوص،لكن يوم أكبر سأصير دجاجة،ويوم سأكبر أكثر بعد سأصير ديكا." وكان يحب أن يتوعد الأخرين بالخصاء،لأنه شعر هو نفسه بأنه مهددا بالخصاء،من جراء ممارسته الاستمنائية.

وعلة اهتمامه بما يجري في ساحة الدواجن هو إشباع فضوله الجنسي من ملاحظاته للعلاقات الجنسية التي تجري بين الديك والدجاجة،وتطريق البيض وتفقيس الصوص،والذي يعود هو الأخر إلى اهتمامه بما يجري في الأسرة البشرية،وقد قال لإحدى الجارات مسقطا رغباته لما لاحظه في عالم الدواجن"سأتزوجك أنت وأختك،وبنات عمي الثلاث،والطاهية.....كلا بل أمي بدل الطاهية."

و يكشف تحليل الواقعة التشابه الكبير بينها وبين الطوطمية في نقطتين أساسيتين،هما:التماهي*L'identification، التام بالحيوان الطوطمي وازدواجية العواطف اتجاهه(الحب والكراهية)،لذلك يمكن أن ندرج الأب محل الحيوان الطوطمي(1) وذلك على صيغة الطوطمية(إسقاط مشاعر الأب على الحيوان الطوطمي)وهي النقطة المركزية التي انطلق منها "فرويد" لتفسير الطوطمية،ويستند على وجهة نظر "جيمس فريزر" الذي رأى بان التماهي يمثل جوهر الطوطمية في قوله:" إن الطوطمية هي تماهي الإنسان مع طوطمه."(2)

و يصل إلى استنتاج بأن الوصيتين الرئيسيتين في الطوطمية،القاعدتين الحرميتين اللتين تؤلفان ونواتها ،وهما تحظير قتل الطوطم،وتحظير الزواج من امرأة تنتمي إلى نفس الطوطم، تتطابقان مضمونا مع جريمتي أوديب الذي قتل أباه وتزوج أمه،ومع عقدة أوديب عند الطفل،أي رغبتي الطفل البدائيتين،واللتان يؤلف كبتهما نواة الأعصبة، ومن المحتمل أن يكون النظام الطوطمي قد تولد من شروط عقدة أوديب،كما هو الحال في رهاب هانز الصغير من الحيوانات،و انحراف أرباد الصغير.(3)

---

*-التماهي: عملية لاشعورية يكتسب بها الفرد خصائص شخص أخر تربطه به روابط انفعالية قوية، وهنا يتقمص الطفل صفات الحيوان

1- سيغموند فرويد ،المصدر نفسه"**الطوطم والحرام** "ص ص170-172.

2- المصدر نفسه ،من هامش ص،173،أخذه فرويد من جيمس فريزر، كتاب"الطوطمية والزواج الخارجي"م،ص4،5.

3- المصدر نفسه،ص 173.

وهكذا يتمكن "فرويد"من افتراض تفسير للطوطمية من إسقاط رهاب الأطفال من الحيوانات الذي يتضمن عقدة أوديب على النظام الطوطمي ،بمعنى أنه ربط بين صفات الأب كما يراه الطفل بالمفهوم الأوديبي و الموقف الازدواجي للبدائي تجاه طوطمه،فيصبح الطوطم أبا.،حيث يقول في كتابه حياتي والتحليل النفسي:"كانت نقطة بدايتي هي ذلك التقابل البارز بين أمرين اللتين حرمتهما الطوطمية(أعني تحريم قتل الطوطم وتحريم الاتصال الجنسي بأية امرأة من عشيرة الطوطم نفسها) وعنصري عقدة أوديب(قتل الأب واتخاذ الأم زوجا) فأغراني ذلك أن أساوي الطوطم الحيوان بالأب ،والواقع أن الشعوب البدائية تفعل ذلك صراحة،إذ تقدسه بوصفه الأب الأول للعشيرة،وبعد ذلك جاءت لمعونتي واقعتان من التحليل النفسي،إحداهما حالة طفل عرضت "الفرنتزي"،بررت لنا القول"بعودة طفلية" للطوطمية" و الأخرى تحليل مخاوف الأطفال من الحيوانات،التي غالبا ما تبين أن الحيوان بديل من الأب،بديل حول إليه الخوف من الأب ،الخوف الذي تتضمنه عقدة أوديب" (1)

ولكي يثبت "فرويد" الاستنتاجات السابقة ،يتجه إلى ذكر وتحليل خاصية من خاصيات الديانة الطوطمية،وهي:

2- الوليمة الطوطمية(نظرية التضحية):استقصى "فرويد" هذا الطقس الغريب عن "روبرتسون سميث" من كتابه"ديانة الساميين"،حيث يجتمع أفراد القبيلة أو العشيرة في مناسبة احتفالية سنوية يضحى فيها بحيوان طوطمي يمثل أب العشيرة وإلهها،،ويعامل الحيوان المضحى به كأنه عضوا من القبيلة أو العشيرة.وهو أقدم شكل للتضحية،والتضحية في شكلها الأول لم تكن لها الدلالة التي اكتسبتها في العصور اللاحقة،عرض يقدم للإله بهدف استمالته واكتساب عطفه، وإنما كانت فعلا اجتماعيا بين الإله وعباده"فعل تواصل واتحاد بين المؤمنين وربهم."*(2)

إن الشكل الأقدم للتضحية هو الأضحية الحيوانية، حيث كان لحمها ودمها يستهلكان بالتشارك بين الإله

1-سيغموند فرويد، المصدر نفسه،"**حياتي والتحليل النفسي**"،ص 101،102.

*-هناك اعتراضات من طرف كثير من المفكرين على نظرية التضحية أثارها كثير من الباحثين أمثال:مار يليه،هوبرت ماوس،ليست مجهولة عن "فرويد" ويشير إليها ،لكنها لا تغير من موقفه اتجاه أفكار وربرتسون سميث.

2-سيغموند فرويد،المصدر نفسه، "**الطوطم والحرام**" ،ص175.

*- هذا ما يسمى بالبعد السيوسيونفسي للوليمة الطوطمية،وهذا الطقس الديني يشبه ظاهرة "الوعدة" في مجتمعات المغرب العربي .

وعباده،وتمثل طقسا دينيا رسميا ،وعيدا تحتفل به العشيرة،والقوة المعنوية* للوليمة الطوطمية مستمدة من تصورات سحيقة في القدم ،إن الأكل والشرب مع شخص رمزا لتعزيز الروابط الاجتماعية وتمتين العلاقة بين الأفراد،ولفرض الالتزامات المتبادلة،وبعض العادات لازالت سائدة إلى يومنا هذا عند بعض العرب في الصحراء"فمن شارك بدويا في كسرة من الخبز أو احتسى جرعة من لبنه،لا يعود عليه أن يخشى من عدواته،بل يسعه على العكس أن يطمئن إلى معونته وحمايته.وعلى الأقل مادام الطعام المأكول بالتشارك باقيا،بحسب ما يفترض في الجسم.(1)"والقوة المعنوية التي تعزى إلى الأكل والشرب تأتي من وحدة العصب، أو وحدة الدم التي تربط أفراد العشيرة فيما بينهم.

وهكذا يغدو الحيوان الطوطم الذي يحظر قتله وأكله و إلحاق الأذى به في الأيام العادية،من طرف أفراد العشيرة، مباحا في التضحية ،بحيث يقتل بمنتهى القساوة من أفراد العشيرة،وتأكله نيئا بلحمه ودمه وعظمه،ويرتدي الأفراد الملابس التي تجعلهم على شبه بالطوطم،ويقلدونه في حركاته و أصواته،و الغرض من ذلك،أنهم يريدون أن يظهروا وحدة هويتهم،فالمأكل المشترك والمشاركة في المادة الواحدة الداخلة إلى الجسم يخلقان بين أعضاء القبيلة رابطة مقدسة،و ليست هذه الرابطة سوى حياة الحيوان المضحى به بالذات على اعتبار أن هذه الحياة تكمن في لحمه ودمه وتنتقل عبر الوليمة يوم التضحية إلى الأعضاء المشاركين

و بعدما ينفذ العمل ينطلق الحداد، فيبدأ الحزن والبكاء،و التأوهات،و سبب ذلك هو الخوف من العقاب جراء تنفيذ جريمة القتل،والهدف في نظر"ر،سميث"هو إبعاد تبعية جريمة القتل المنفذة عن عاتق العشيرة،و بعد الحداد يجري احتفال صاخب مرح ،عبارة عن انتهاك احتفالي منظم للنواهي والمحرمات،تتحقق وتشبع فيه الغرائز،وهنا نستشف طبيعة العيد،الذي يميزه الابتهاج الناتج من استباحة ما هو محظور في الأيام العادية(2)

و يعرض "روبرتسون سميث" نماذج عديدة لقبائل تتقيد بهذا الطقس الديني ،فمثلا في "إحدى القبائل الهندية في كاليفورنيا تتعبد طائر كبير من الجوارح يدعى السقاوة* ،تقتل فردا من فصيلته سنويا ،وبعد ذلك

1-سيغموند فرويد،المصدر نفسه ،ص 176.

2- المصدر نفسه،ص 183.

*-السقاوة،(Oiseau de proie(la buse: طائر من الجوارح ينتمي إلى فصيلة العقبان تمتلك مناقير ضخمة تستخدمها في تمزيق لحم الطرائد.

تبكي الطائر القتيل،وتحفظ جلده،وريشه،ويسلك هنود الزوني* في المكسيك الجديدة المسلك عينه اتجاه سلحفاتهم المقدسة." و يأخذ "فرويد" برأي" ربرتسون سميث" الذي يقول"إن القتل الطقسي والالتهام المشترك للحيوان الطوطمي،المحظورين في الأيام العادية،ينبغي أن يعدا من السمات البليغة الدلالة للديانة الطوطمية."(1)

و يرى "فرويد "على لسان صاحب "ديانة الساميين" أن الوليمة الطوطمية سبقت عهد عبادة الآلهة الشبيهة بالإنسان،هذه الأخيرة وجدت في عصر لاحق،فمثلا القديس نيلوس* تحدث عن عادة التضحية لدى البدو في صحراء سيناء في أواخر القرن الرابع ميلادي،كانت الأضحية جمل ،تمدد على مذبح غليظ من الحجر،ثم يأمر رئيس القبيلة بأن يطوف أفرادها ثلاث مرات حول المذبح،وهم ينشدون،ثم يطعن الحيوان بطعنة أولى و يشرب من الدم الذي ينبجس من الجرح،ثم تتهجم القبيلة على الحيوان،فيقطع كل عضو بسيفه قطعة من اللحم ويلتهمها بسرعة.(2)

بعد أن تعرفنا على الوليمة الطوطمية كطقس ديني تميزت به الشعوب البدائية،يحق لنا أن نتساءل:مادام الحيوان الطوطمي رمز مقدس ،يحظر قتله،فلماذا ،يقتل في هذه المناسبة.؟ ولما ذا يعقب القتل حداد ثم يتحول إلى احتفال بهيج .؟ وكيف يمكن تفسير البكاء على قتل الحيوان المحظور والفرح والغبطة لقتله، في نفس الوقت.؟أليس هذا التناقض أو الازدواجية (الحانية والعدائية)لازالت قائمة إلى يومنا هذا عند أطفالنا والمتمثلة في العقدة الأبوية.؟

إن التحليل النفسي لهذا الطقس الديني الغريب يدعم ما كان "فرويد" قد توصل إليه في أبحاثه عن رهاب الأطفال من الحيوانات التي تتضمن خوف الطفل من الأب اتخذ بديلا له هو الحيوان،فالحيوان الطوطمي يقوم مقام الأب،وهذا ما يبرر لنا لماذا هذا الموقف الازدواجي والمتناقض من البدائي تجاه طوطمه،فمن جهة تحريم

1- سيغموند فرويد،نفس المصدر "**الطوطم والحرام**"ص،182

*-هنود الزوني:uni Z قبائل هندية تقطن في أمريكا الشمالية.

*-القديس نيلوس:هو القديس نيلوس السينائي st.Nilus the Elder تلميذ القديس "يوحنا الذهني الفم" عمل بعض الوقت حاكما لمدينة القسطنطينية،استقال سنة 390م بعدما شعر برغبة شديدة لحياة الوحدة ،حيث اتفق هو وزوجته عن الابتعاد عن العالم،فقصد برية سيناء ليترهب،مؤلف كتاب""الأدب زهدي"

2ـــــالمصدر نفسه ،ص 181.

قتله ،ومن جهة ثانية العيد الذي يعقب موته،بعد الحزن والبكاء عليه ،وهذه صورة لعقدة أوديب التي لا زالت قائمة إلى يومنا هذا عند أطفالنا.(1)

استطاع "فرويد" في مسار التفكيك الرمزي لهذه النظرية أن يستكشف الأسباب الحقيقية التي تجعل أفراد القبيلة يستبيحون طوطمهم في أوقات معينة وبطقوس محددة ،وهي أسباب سيكولوجية،فهذه الاستباحة لرمز الأب هي استعادة الذكرى الإجرامية السابقة**"قتل الأب الأول"** التي تعتبر نواة الطوطمية.حيث يقول في كتابه"حياتي والتحليل النفسي"ولم يبقى لي إلا القليل كي أقرر أن قتل الأب هو نواة الطوطمية ونقطة البداية في نشأة الديانة واستوفيت هذا العنصر الناقص(أبحاثه النفسية على رهاب الأطفال من الحيوانات التي تتضمن عقدة أوديب وإسقاطها على المجتمعات البدائية وموقفها المزدوج اتجاه طوطمها)عندما اطلعت على كتاب روبرتسون سميث"ديانة الساميين".أوقفنا المؤلف(وهو موهوب جمع بين العلم الطبيعي والإحاطة بالكتاب المقدس.) على ما يعرف بوليمة الطوطم،باعتبارها جزءا رئيسيا في الديانة الطوطمية.يقتل الحيوان الطوطم الذي كان من قبل مقدسا،مرة كل عام،يقتل في مراسيم خاصة على مرأى من جميع أعضاء العشيرة،ويلتهم ثم يناح عليه بعد ذلك ،ويعقب الحداد احتفال كبير."(1) وهكذا يصل "فرويد" تفسير الأصل الحقيقي للديانة الطوطمية و ذلك كالتالي:

3-الخطيئة الأولى (قتل الأب الأول أو البدائي) نواة الديانة الطوطمية:استنادا إلى الأبحاث السابقة،وانطلاقا من فرضية "داروين" التي ترى بأن الشكل البدائي للمجتمع البشري تجسد في شكل عشيرة بدائية(النقيل البدائي) يحكمها أب ذكوري ،قوي ،شجاع ،باسل،ومستبد ،سيد جماعته،يحتفظ لنفسه بحق الممارسة الجنسية مع جميع الإناث،سواء كن نسوته أو بناته ،ويعاقب من الأبناء كل من يفاجئه في وضع جنسي مع امرأة أو فتاة أو يطمح إلى سلطة الأب،بالطرد أو بالخصي،فكان الأبناء المطرودين مكرهين على العيش في جماعات صغيرة،لا يعرفون من سبيل إلى اقتناء النساء إلا بطريقة الخطف أو السبي،وكان يتوصل بعضهم أن يخلق لنفسه مركزا

1- سيغموند فرويد، نفس المصدر ،ص 184

2ـــسيغموند فرويد، نفس المصدر**"حياتي والتحليل النفسي"** ص102

يماثل مقام الأب،بينما الأطفال الصغار كانوا يتمتعون بمكانة مرموقة،تحت رعاية وحب الوالدين.(1) وبالاعتماد على أبحاث"أتكنسون" التي تدعم فرضية داروين عن فكرة النقيل البدائي،والذي يقول في كتابه"شريعة البدائيين":"عصابة من إخوة فتيان،يعيشون معا في ظل نظام العزوبة القسرية،أو في أحسن الأحوال من علاقات تعدد الأزواج مع امرأة واحدة وأسيرة،ونقيل كهذا يبقى ضعيفا بسبب عدم نضج أعضائه،،ولأنه متى حاز بمرور الزمن قوة كافية ،وهذا أمر محتوم،فسينتهي به الحال بفضل هجمات متضافرة ومتجددة باستمرار إلى أن ينزع من الطاغية الأبوي زوجته وحياته معا."(2)

و بالاستناد إلى مقارنته في عالم الحيوان،بعض قطعان القردة الشبيهة بالإنسان،حيث من الشائع استئثار ذكر واحد من القطيع بجميع الإناث(3)، وهذه الفكرة يدعمها"واتكنسون" حيث أمضى وقتا طويلا في كاليد ونيا الجديدة، تسنى له أن يدرس السكان الأصليين،و أكد بأن النقيل البدائي كما افترضه"داروين" "يلاحظ بصفة مطردة لدى قطعان الثيران والخيل المتوحشة ،وتنتهي دوما إلى قتل الأب،ويسلم علاوة على ذلك،بأن قتل الأب يعقبه تحلل للنقيل جراء الصراع الشرس الذي ينشي بين الأبناء المنتصرين."(4)

يستنتج"فرويد" معقولية هذه الفرضية، ويرى أن هناك مرحلة أخرى من التنظيم الاجتماعي أعقبت هذه المرحلة ،فذات يوم التم شمل الإخوة المطرودين ،وتفاهموا فيما بينهم،فقتلوا أباهم ،وأكلوه والتهموه نيئا ،اذ كانوا من أكلة لحوم البشر،وأستطاع كل واحد أن يحقق بمفرده ما لم يستطع أن يحققه في عهد العشيرة الأبوية،و من المحتمل جدا أن هؤلاء الإخوة"العصابة الأخوية" يحبون أباهم ويتخذونه قدوة ،وفي نفس الوقت يكرهونه لأنه اعترض سبيل تلبية رغباتهم الجنسية،حيث كان كل واحد يتمنى أن يحتل مكانه،وهي العلاقة التي تؤلف مضمون

1-سيغموند فرويد، المصدر نفسه،"**موسى والتوحيد**" ،ص 113،مع العلم أن نفس الفكرة مكررة في عدة مؤلفات أخرى مثل الطوطم والحرام،ص،184،185،و يشير إليها في كتاب "الحب والحرب والحضارة والموت"في الفصل الثالث"الحضارة ومتاعبها"ص،64،65،وفي علم النفس الجماهير، الفصل العاشر:الجمهور والعشيرة البدائية،ص 107

2- سيغموند فرويد،المصدر نفسه، "**الطوطم والحرام**" ، هامش الصفحة ،185،186،أخذها فرويد من كتاب شريعة البدائيين لأتنكسون،ص220،221

3-ادغار بيش،**فكر فرويد،تر/** جوزف عبد الله،(المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر والتوزيع،بيروت،لبنان،الطبعة الثانية 1993) ،ص107.

4-سيغموند فرويد،المصدر نفسه ،من هامش الصفحة 186.

عقدة أوديب "و حسبنا أن نفترض أن العصابة الأخوية التي شقت عصا الطاعة،كانت تعتمل فيها إزاء الأب مشاعر متضاربة،تؤلف بحسب ما نعلمه،المضمون الازدواجي للعقدة الأبوية لدى كل طفل من أطفالنا،ولدى كل معصوب من معصوبات،فقد كانوا يكرهون الأب ،الذي كان يعترض بمنتهى العنف سبيل حاجتهم إلى القوة وسبيل متطلباتهم الجنسية،ولكنهم كانوا ،علاوة على كرههم له،يحبونه ويعجبون به."(1)

ويعقب قتل الأب مرحلة أخرى يتحلل فيها النقيل البدائي جراء الصراع الشرس بين الإخوة المطرودين على خلافة الأب ،لفترة طويلة من الزمن ،لرغبة كل واحد أن يستأثر بالميراث وحده وكله،ثم تأتي مرحلة يدرك فيها الأبناء عدم جدوى تلك الصراعات،و أفضى بهم الأمر إلى التفاهم بعقد اجتماعي،وذلك تحت شعورهم بالندم والذنب جراء فعلتهم الإجرامية فقرروا تجسيد صورة الأب على هيئة طوطم، وأضافوا إليه هالة من التقديس والحصانة فحل الحيوان الطوطمي كبديل للأب في أذهان الإخوة،يرمز إلى روح الأب الأول للقبيلة،الذي قام بحمايتها ودفع الخطر عنها،ومن هذا المنطلق يحتل طوطم القبيلة مرتبة التقديس،ويرقى إلى درجة التحريم،فلا يجوز قتله أو صيده أو أكله،وهكذا وبموجب هذه العقيدة الطوطمية التزم أبناء القبيلة التزاما مقدسا بأن لا يقتلوا طوطمهم أو يأكلوه على مستوى النوع،فربما كان الهدف هو التخفيف من غلواء الشعور بالذنب الذي ساور الأبناء القتلة،والوصول إلى التصالح مع الأب. "فلربما حاولوا عن طريق هذا المسلك أن يخففوا من غلواء الشعور بالذنب الذي كان يقض مضاجعهم،و أن يصلوا إلى التصالح مع الأب....و كانت الطوطمية تنطوي أيضا على محاولة تبرير،فأرجح الظن أن الأبناء كانوا يريدون في رؤوسهم الفكرة التالية:"لو كان الأب عاملنا كما نعامل الطوطم لما كان أغرانا بقتله." على هذا النحو كانت الطوطمية تسهم بقسطها في تحسين الموقف وفي انساء الأبناء الحديث الذي تدين له بولادتها."(2)

إذن،الطوطمية ،ولدت بجريمة قتل الأب البدائي ،و نشأت الخطيئة الأصلية التي كانت الأصل في ظهور التقييدات الدينية والاجتماعية والأخلاقية،حيث تم تحريم قتل الحيوان الطوطم،وتم الالتزام بطقوس دينية من

1-سيغموند فرويد،المصدر نفسه ،ص،186

2- المصدر نفسه ،ص 189 .

أفراد القبيلة اتجاهه،وهو من طبيعة دينية، و ميلاد أول شكل للتنظيم الاجتماعي،يقوم على نكران الغرائز،وضرورة التقيد بالتزامات متبادلة وضرورة إنشاء مؤسسات لها طابع حرمي،لا يجوز انتهاكها،وبذلك ولدت المعايير الأخلاقية،وتأسست الحقوق والواجبات(أي ميلاد الدين والأخلاق والقانون)،وامتنع كل فرد أن يحتل مكان والده أو أن يمتلك أمه أو أخته،وهكذا تم تحظير حب المحارم Inceste وسن الزواج الخارجي Exogamieوتم تحظير القتل(تحريم اقتتال الإخوة) (1)"وسفك الدماء لاحقا والذي يمكنه أن يحدث بسبب المنافسة بين الإخوة على استحواذ الحق في الجلوس في مكان الأب وامتلاك الحقوق الخاصة باست ملاك النساء." حيث استبدلت العشيرة الأبوية بالعشيرة الأخوية ويرى "فرويد" انه لأول مرة في تاريخ الإنسانية تظهر التحريمات الموجهة إلى كبح أقوى الغرائز الإنسانية،وتشوقات البشر"أنه لأول مرة في تاريخ تطور البشرية ظهرت المحظورات الأساسية الموجهة إلى لجم تشوقات البشر العنيفة والمحددة بنظام غامض يتبدى في الاغواءات والكوابح وفي ميل الإنسان لإرضاء أهوائه مع الامتناع في أن واحد عن خرق "التابو""(2)

وبوجهة تحليلية أخرى إن الأبناء وكل الإخوة غير الأشقاء أدركوا أن المصير الذي حل بالأب سوف يحل بالضرورة بهم،ما لم يؤلفوا حلفا فيما بينهم،يحرم القتل والزواج من داخل القبيلة، فظهر الزواج الخارجي،وتم تشريع قوانين تحرم اقتتال الإخوة فيما بينهم،وهكذا جريمة قتل الأب الأول، أدت في واقع الأمر إلى انتقال الإنسانية من المرحلة الطبيعية إلى المرحلة الحضارية،أي أدت إلى بناء مجتمع جديد على أساس عقد اجتماعي خاص يتضمن التنازل عن الغرائز والتزامات متبادلة بين الأفراد "ومن الآن فصاعدا سينهض المجتمع على أساس خطيئة مشتركة،على أساس جريمة أقترفت بالتكافل،و سينهض المجتمع على أساس الشعور بالندامة،و ستنهض الأخلاق على أساس ضرورات المجتمع من جهة أولى و على أساس الحاجة الى التكفير المتولدة عن الشعور بالذنب من جهة ثانية."(3) و يقول "فرويد" في هذا الحال يكون لنا أن نفترض أيضا الحفزات العدائية

1-سيغموند فرويد، المصدر نفسه"**موسى و التوحيد**"ص 114.

2-فليري ليبين،المرجع نفسه "**فرويد التحليل النفسي والفلسفة الغربية**"،ص 104.

3-سيغموند فرويد،المصدر نفسه"**الطوطم و الحرام**"ص 191.

حيال الأب و الرغبة الخيالية في قتله والتهامه ،كانت كافية بحد ذاتها لاستثارة الاستجابة الخلقية التي خلقت الطوطمية والحرام و على أساس هذا الفرض ،سنتملص من ضرورة إرجاع بدايات حضارتنا ،التي نعتز بها أيما اعتزاز إلى جريمة فظيعة تجرح مشاعرنا كافة."(1)

إن عقدة أوديب الكبرى و الموقف الازدواجي الذي تتضمنه، المتمثل في المحبة إزاء الأب و العداء اتجاهه ولدت الشعور بالذنب لدى الإخوة،فتولد عنه الحرمين الأساسيين في الطوطمية،و هما :تحظير القتل،و تحريم زنا المحارم، وكل الانتهاكات المماثلة، وهما الحرامين الاثنين اللذين تبدأ بهما الأخلاق،بمعنى الرغبتين المقموعتين:العداء اتجاه الأب، والرغبة في قتله،و الميل الى الم جنسيا ،يشكلان الأرضية الأساسية لميلاد الحرام،أي الأخلاق ،والقانون والحضارة الإنسانية. و هاتين الرغبتين لا زالتا كامنتين لدى أطفالنا إلى حد الآن،بدليل أبحاث "فرويد" على رهاب الأطفال من الحيوانات"على هذا النحو يكون الشعور بالذنب لدى الابن قد ولد الحرامين الأساسيين في الطوطمية،و اللذين لن يلبثا أن يختلطا بالرغبتين المقموعتين في عقدة اوديب."(2)

و قد بقيت العلاقات القائمة على ازدواجية العواطف مع الأب مستمرة مع الحيوان الطوطمي،بنشوء الديانة الطوطمية،،أي ظلت الجماعة الطوطمية تحتفظ للحيوان الطوطمي بالانفعالات الثنائية نفسها(التبجيل و البغض و الخشية معا) ومن ثم كان الطوطم بالرغم كونه موضع العبادة و الحماية ،كان يقتل و يلتهم من أفراد الجماعة ،و كان ذلك يتم في احتفال بطقوس خاصة هي الوليمة الطوطمية التي تحدثنا عنها سابقا،بمعنى يلاقي الطوطم نفس المصير الذي لاقاه الأب "و قد حافظت العلاقات مع الحيوان الطوطمي على ازدواجية العواطف التي كان يوحي بها الأب،فقد كان الطوطم،يعد من جهة أولى سلفا متجسدا،روحيا،حاميا للعشيرة ،من الواجب أن تقدم له،بصفته هذه ضروب المراعاة والإجلال ،و صار يحتفل من جهة ثانية بعيد يلاقي فيه الحيوان الطوطمي مصيرا مشابها ،لذاك الذي لاقاه الأب."(3) و هكذا،فان استباحة قتل الطوطم في أوقات معينة وبطقوس محددة هو عيد يحي فيه الأبناء ذكرى انتصارهم على والدهم، وفي نفس الوقت هي استباحة جديدة لرمز الأب و استعادة لفعلة الأبناء

1-سيغموند فرويد،المصدر نفسه،ص.208

2-المصدر نفسه،ص .187

3-سيغموند فرويد،المصدر نفسه،"**موسى والتوحيد**"،ص115.

الإجرامية السابقة ضده، لأنها حادثة وجودية مؤلمة يجب أن تبقى في الذاكرة، من أجل تعزيز الدورة الحيوية للقيم و الأعراف المرتبطة بالتحريم، وتجديدها،وفي نفس الوقت من أجل تنمية الشعور بالندم والألم والتكفير على نحو يجعلهم يرسخون إيمانهم، من جديد بكل القيم الأخلاقية التي نجمت عن مبدأ تحريم المحرم(تحريم زنى المحارم وتحظير القتل) وتقديس الأب،فالإنسان في هذه الحالة يكرر جريمة قتل الأب من جديد و يلتهمه بصورة رمزية* وهذا تكرار للخطيئة الأولى،لأن مثل هذه الاستعادة تؤجج الشعور بالندم والتكفير عن الذنب من جديد،وتمكن الإنسان من تأصيل النظام الأخلاقي ،وتضمن استمراره.

و عليه ،فان تفسير سبب الحرمات التي كانت تتقيد بها المجتمعات البدائية وخاصة المتصلة بالأعداء و الأموات هي تقييدات تعني شعور أفراد القبيلة بالذنب على جرائم ارتكبوها،و الحداد الذي يعقب ارتكاب الفرد للجريمة،الذي يدوم أسابيع أو أشهر، مرده جريمة قتل الأب الأول ،و"الذي رقي في مقام خالق العالم لأنه أنجب كل الأولاد الذين كونوا أول جماعة."(2)

رابعا:الأساس والطبيعة السيكولوجية للأخلاق(الأنا الأعلى):بعد أن تعرفنا على كيفية نشأة الأخلاق والدين في منظور "فرويد" يحق لنا أن نتساءل:ما هو الأساس الذي قامت عليه الأخلاق.؟ هل هو أساس نفسي سيكولوجي،عاطفي أم عقلي.؟ وهل الأخلاق نسبية أم مطلقة.؟

إن اللوحة الفخمة والجريئة التي رسمها"سيغموند فرويد" لكيفية نشأة الدين والأخلاق في العهود الأولى للمجتمعات الإنسانية كانت بعد استكمال أبحاثه التحليلية النفسية،بمعنى أن فضوله المعرفي دفعه إلى تطبيق نتائج أبحاثه في علم النفس الفردي على كيفية نشوء المجتمعات وقيمها الأخلاقية،وعلى أسس قيام الحضارات.

وهذا يعني أن التفسير الذي يعزيه "فرويد" للأخلاق هو تفسير سيكولوجي يستند إلى معطيات التحليل.

---

*- التهام الطوطم بصورة رمزية:إن التهام جزء من الحيوان الطوطم يتضمن رغبة الأبناء في أن يكونوا في نفس مرتبة الأب، أي المحبة إزائه والتي تختفي ورائها كراهية والعداء تجاهه.

1-د،الربيع ميمون،**نظرية القيم في الفكر المعاصر بين النسبية والمطلقية** (الشركة الوطنية للنشر والإشهار الجزائر،الطبعة الأولى1978)ص 157.مأخوذ من كتاب165 page (1963 .paris .Payot(Essais de psychanalyse

النفسي.وقبل أن نسبر أغواره ،علينا أن نقدم إطلالة مختصرة على نظرته للسلوك الإنساني.

يرى مؤسس التحليل النفسي أن المحرك الأول للسلوك الإنساني هو الغرائز والتي تنقسم إلى مجموعتين: **غرائز الأنا،و غرائز الموضوع أو الغرائز الجنسية**،فالأولى ترتبط بالحاجة إلى المحافظة على الذات والثانية هدفها التكاثر أو الحفاظ على النوع،حيث يقول "فرويد":" ولقد أطلقت على غرائز الموضوع اسم الليبيدو libido ،وقصرت الاسم عليها وحدها وبذلك فان الإنسان مركب تدخل فيه غرائز الأنا والغرائز نقيضها والتي أسميها الغرائز الغيرية المتجهة للغير،والتي يكون بها الحب بأوسع معانيه،وتبرز إحدى غرائز الموضوع من بين مجموعيها ،وأسميها الغريزة السادية*" Sadisme"،و غريزة السادية تبرز من غيرها بحكم وظيفتها التي يمكن أن أصفها بأنها غير لطيفة،ثم أنها تربط نفسها بكثير ما تؤديه بغرائز الأنا ،و لا يخفى كذلك صلتها القوية بغرائز السيطرة،وهي غرائز ليست لها غايات جنسية ،ومع ذلك تظل الغريزة السادية، إحدى الغرائز الجنسية ،بمعنى أن الرغبة الجنسية يمكن أن يكون أحد وجهيها الحب والوجه الأخر القسوة..... ومع ذلك فقد أجريت بعض التعديلات التي كان علي أن أجريها وأنا أواصل بحوثي متقدما من المكبوت إلى العوامل التي تدفع إلى الكبت، ومن غرائز الموضوع إلى غرائز الأنا،وتحقق لي أثناء ذلك انجاز ضخم بإدخالي لمفهوم النرجسية* "Narcisme "،وهو يعني أن الاهتمامات التي مصدرها الأنا تتوجه إليه وتستقر فيه لكنها قد تنصرف إلى موضوعات وتصبح ليبيدو موضوعات وقد تعود إلى أدراجها فتصبح ليبيدو نرجسيا ،ولما وجدت أن غرائز الأنا

---

*-السادية: انحراف جنسي يتحقق به الإشباع الجنسي بإيقاع الألم بموضوع الحب،ويتفاوت التعبير عن الألم من مجرد التعبيرات الوجيهة إلى إسالة الدم،وبطريقة أخرى هي اللذة بممارسة القسوة،و المصطلح مشتق من اسم "الماركيز دي ساد"(1740-1814) كان كاتبا فرنسيا داعرا يمارس الفجور ويكتب عنه،ويرى "فرويد" أن السادية طبيعية في بعض مراحل تطور الفرد،حينما يجد الطفل لذة في العض والمص والضرب في المرحلة الفموية ،وفي إطالة عملية التبرز،وبممارسة التحكم في التبرز وقبض عضلات الشرج في المرحلة الشرجية.عن هامش الصفحة 77 لكتاب الحب و الحرب والحضارة الموت.

*-النرجسية: هي المغالاة في تقييم الذات والمحاسن البدنية لذات الفرد،وهي ليست انحرافا جنسيا لأنها لا ترتبط بالإشباع الجنسي،والاسم مشتق من الأسطورة الإغريقية التي تدور حول نار سيسوس(نرجس)الذي هام غراما بصورة نفسه في الماء فسعى إليها فغرق وتحول زهرة إلى نرجس،ويقول "فرويد "أو الأنا يتخذ شخص أخر كموضوع لحبه لكن قد يحدث بشكل سوي أن يتخذ نفسه موضوعا لهذا الحب.عن الموسوعة النفسية د الحفني ،ص522

ليبيدية تهيأ لي لبعض الوقت أن الليبيدو ،لا يمكن أن يكون إلا مرادفا للطاقة الغريزية عموما."(1)

إن هذا النص يثبت بأن"فرويد" قد عدل من رأيه ،فبعدما كان يميز بين غرائز الأنا ويعتبرها ليست ليبيدية،وغرائز الموضوع المتوجهة للغير،و يعتبرها ليبيدية أصبح يعتقد بأن الليبيدو طاقة عامة تمثل غريزة الحياة أو ما يسمى بالايروس Eros،هذه الطاقة تتوزع بين الأنا (الليبيدو النرجسي)والموضوعات أو الأشخاص(الليبيدو الموضوعي)،وهي طاقة تتضمن كل ما تعنيه كلمة"حب" ومعناها الحب الجنسي الذي يستهدف الاتصال الجنسي،حب الذات ،حب الوالدين و الأطفال،الصداقة،وحب الإنسانية ،بالإضافة الولاء للموضوعات العينية والأفكار المجرد.(2)،فالليبيدو إذن تعني الرغبة الأساسية في التمتع أو الرغبة في اللذة والرغبة الجنسية ليست سوى للممثلة الرئيسية لها. وغريزة الحياة مناقضة لغريزة الموت أو التدمير (ثاناتوسThanatos)،إن الأولى تهدف إلى الربط والتجميع،تجمع بين كائنين لكي يلتحما في وحدة تؤمن استمرار الإنسان،فهو الذي يجمع أفراد العائلة والمجتمع على أهداف نافعة،بينما الثانية فهي تمثل دخول الكائن الحي إلى الحالة اللاعضوية،حيث الموت هو نهاية كل حي أو هي كل ما يمتلكه الإنسان داخل نفسه من نزعة إلى الحقد والكراهية والتدمير والقتل في كل أشكاله ولا سيما الحروب المدمرة ويظهر هذا في اتجاه الإنسان إلى إيذاء نفسه أو توجيه هذا العداء إلى الغير،حيث يقول:"لابد أن توجد غريزة أخرى تتناقض معها(أي غريزة الحياة) وتعمل على تفكك هذه الوحدات وإعادتها إلى حالتها اللاعضوية والتي كانت عليها سابقا ،أي أن هناك غريزة الموت تناقض غريزة الحياة أو ما أطلقت عليه اسم الايروس وبذلك يسهل تفسير ظواهر الحياة بوصفها نتاج تفاعل غريزتين وتأثيراتهما المتبادلة."(3)

تمثل الغرائز والميول القاعدة الأساسية للحياة النفسية، في نظر مؤسس التحليل النفسي، والتي تتحدد في

1-سيغموند فرويد،**الحب والحرب والحضارة والموت**،تر/د عبد المنعم الحفني(مطبعة دار الرشاد،القاهرة الطبعة الأولى1992)،ص ص76-78.

*-Eros : اله الحب عند اليونان،ابن إلهة الفقر Penia واله الغنى Poros و معناه عند فرويد يطلق على غريزة الحياة التي تندرج ضمنها غرائز الأنا وغرائز الموضوع،وتقابل غريزة الحياة غريزة الموت أو التدمير

2-سيغموند فرويد،**الموجز في التحليل النفسي**،تر/سامي محمود على و عبد السلام القفاش،(مكتبة الأسرة ،مصر 2000،عدم وجود رقم الطبعة)من الجزء الأخير:موسوعة المصطلحات النفسية،ص151،أخذه عن كتاب New introductory lectures on psycho-analysis .p134

3-سيغموند فرويد،المصدر نفسه،**"الحب والحرب والحضارة والموت"** ،ص 79

ثلاث مناطق أو منظمات نفسية، وهي:

-**الهو le Ca ou le soi:**تمثل منطقة الميول والغرائز الابتدائية الجنسية،والعدوانية،مستودع الغرائز أو المنطقة اللاشعورية المظلمة ،مبدأ اللذة(الجانب الحيواني في الإنسان)، وهذه الغرائز تهدف دوما إلى الإشباع، حيث يقول" وفي هذا الهو تعمل الغرائز العضوية التي تتكون ذاتها من امتزاج قوتين أوليتين (الايروس والتدمير) بنسب متفاوتة و تتفاضل إحداهما عن الأخرى،من خلال علاقتها بالأعضاء أو بمجموعة من الأعضاء،وهم هذه الغرائز الأول هو الحصول على الإشباع الذي تترقبه عن طريق تغييرات الأعضاء بمساعدة موضوعات العالم الخارجي." "فالهو يخضع لمبدأ اللذة لا مفر منه." (1)

- **الأنا le Moi:**يأتي بعد الهو ،يمثل المنطقة الشعورية الواعية و التي تعمل دور المراقب للحركات الإرادية، هدفه الحفاظ على الذات و توفير الطمأنينة لها ،حيث يقول فرويد" وأما المنظمة النفسية الأخرى ،نعني الأنا ،فنعتقد أننا نعرفها أفضل المعرفة كما أننا نستبين فيها أنفسنا في يسر،وقد تكونت هذه المنطقة من الطبقة اللحائية للهو،فكانت متصلة اتصالا مباشرا بالعالم الخارجي(الواقع)....يبدأ الأنا من الإدراك الحسي الشعوري ثم يوسع نطاقه ويمده إلى طبقات أعمق فأعمق من الهو.....وكما أن الهو لا يستهدف إلا الحصول على اللذة،فان الأنا لا يعني إلا بتوفير الطمأنينة،فقد أخذا الأنا على عاتقه مهمة حفظ الذات تلك المهمة التي يبدو أن الهو قد أهملها."(2)

-**الأنا الأعلىle Sur-moi/super-moi :**يمثل جملة القيم الأخلاقية والاجتماعية التي يكتسبها الفرد من المجتمع،يمثل العالم الخارجي الذي تحكمه قواعد أخلاقية واجتماعية بعد تحولها إلى جزء من العالم الداخلي الضمير أو مبدأ الواقع ،فهو السور الذي يقف كحاجز أمام هجومات الغرائز،ويقول "هذا التصور لا يصدق إلا على الأنا ،حتى نهاية الطفولة الأولى(حوالي خمس سنوات) إذ ذاك يحدث تغير هام :إذ ينفصل جزء من العالم الخارجي ويصبح على الأقل موضوعا جزئيا،ويندمج في الأنا(عن طريق التوحد) أي يصبح

2-سيغموند فرويد،المصدر نفسه "**الموجز في التحليل النفسي**" ص ص104 -106.

3-المصدر نفسه ،ص 106،107.

جزءا مكونا للعالم الداخلي،وتستمر هذه المنظمة النفسية الجديدة في القيام بالوظائف التي كان يؤديها من قبل أفراد معنيون في العالم الخارجي،فهو يراقب الأنا ويصدر إليه الأوامر ويقوم اعوجاجه ويتهدده بالقصاص تماما كالوالدين اللذين حل محلها،هذه المنظمة نسميها الأنا الأعلى ونشعر بها وهي تؤدي وظائفها القضائية بمثابتها ضميرنا."(1) و ما يجب أن نلاحظه هو أن الأنا الأعلى أشد قساوة من الوالدين،فهو لا يحاسب الفرد على أفعاله فقط بل حتى على نواياه ومقاصده"مما يسترعي النظر أن الأنا الأعلى يظهر في أغلب الأحيان قسوة لا نجد أصلا لها عند الوالدين في الواقع،فهو لا يكتفي بمحاسبة الأنا على أفعاله بل يحاسبه أيضا على خواطره ومقاصده التي لم تنفذ والتي يبدو على علم بها."(2)"وبذلك يتخذ الأنا الأعلى مركزا وسطا بين الهو والعالم الخارجي."(3)

هذه الطبقات النفسية الثلاث ليست ساكنة بل هي في صراع دائم بين وجهين متناقضين:مبدأ اللذة أو دوافع الهو(الغرائز)،ومبدأ الواقع ،فغرائز الهو تريد أن تتحقق فتصطدم بسلطة الأنا الأعلى (متطلبات الضمير الاجتماعي) ينتج عنه تكوين دائم للاشعورInconscience بواسطة الكبت،غير أن "فرويد" يميز بين الكبت la Répression" والقمع"la Surpression *"،والأول، هو عملية لاشعورية وغير مقصودة يستبعد بها الفرد الأفكار غير المقبولة أو الخبرات المؤلمة ويجبرها على البقاء في اللاشعور ،والثاني الشجب في وعي الفرد للعنصر اللأخلاقي و اللاجتماعي و قراره بعدم إشباعه، فهو عملية شعورية قصدية .(4)

إن الكبت عند "فرويد" يعتبر طريقة من الطرق القادرة على تغيير مصير النزوات الغريزية إلى جانب التسامي Sublimation و ويعني تقبل الأنا للدافع الغريزي ولكنه يحول طاقته من موضوعه وهدفه الأصليين إلى موضوع أخر وهدف بديل ،له قيمة ثقافية واجتماعية، ،و هو يرتبط بالدوافع الجنسية المميزة لمراحل النمو المبكرة السابقة للمرحلة التناسلية(5)

1-سيغموند فرويد،المصدر نفسه ،ص115

2-المصدر نفسه ،ص116

3-المصدر نفسه ،ص117

*- القمع:فمثلا رجلا اتجه عنده الليبيدو نحو أخته منذ الطفولة ،فما عليه إلا أن يعيه عاطفيا ويرفض السماح له بالوجود لأنه جارح وغير أخلاقي بنظر الأنا الأعلى،فيكف الليبيدو عن تغذية هذا الاتجاه الغرامي نحو الأخت ويتجه نحو أية امرأة،المثال مأخوذ من كتاب فكر فرويد لادغار بيش،ص84 ، 85

4-ادغار بيش ،المرجع نفسه **"فكر فرويد"** ،ص84.

5- سيغموند فرويد،المصدر نفسه ،ص131

لنعود إلى الكبت، قد تجتمع الغرائز والميول المكبوتة فتكون مركبات أو عقدdes Complexes وتعنى أنظمة نفسية متكونة من عناصر متنوعة تسودها الغريزة الجنسية التي لم تتحقق في الواقع.

هذه المركبات أو العقد النفسية تظهر إذا سمحت لها الظروف واختفت رقابة الأنا بطرق متعددة:مثل الحلم الأفعال الآلية ،وفي شكل أعراض مرضية،كالعصاب Névrose والذهان* Psychose،والرهابla Phobie والوسواس Obsession* و الحصر Anxiété *والهراع Hystérie وغيرها من العصابات الناتجة من مركبات نفسية ،والتي تعود في أصلها إلى الكبت.(1)

إن الليبيدو فكرة مركزية في علم النفس التحليلي و هو موجود لدى جميع الناس،وبداية من الطفولة،بعدما كان يعتقد بأن الطفولة بريئة وان وجد ت حالات من هذا القبيل تندرج من باب الانحرافات الجنسية،حيث يقول "فرويد":"فقد كان الناس ينظرون إلى الطفولة على أنها "بريئة" وخالية من شهوات الجنس،ولم يكن يتبادر إلى *الأذهان أن الصراع ضد شيطان اللذة الحسية تبدأ قبل فترة البلوغ المضطربة."(2) وتتطور هذه الطاقة تدريجيا ،من المرحلة الفموية Oral في السنة الأولى ثم سادية-أستية Sadique-anal في السنة الثانية والثالثة من*

---

*-الذهان:يظهر الذهان عموما عندما يغدو الواقع مؤلما إلى حد يعجز معه الشخص عن مواجهته نفسيا على أي نحو من الأنحاء أو حين تقوى الدوافع الغريزية بحيث لا يستطيع المرء السيطرة عليها،فيصبح اصطدامها بالواقع أمرا محتوما،ففي كلتا الحالتين يحدث نكوص أو تراجع في الليبيدو من مرحلة العلاقات بالموضوعات إلى مرحلة النرجسية،ويتم عن طريق النكوص إنكار الواقع إنكار متفاوت المدى،مصحوبا في حد ذاته بانطلاق الدوافع الغريزية بلا ضوابط أو اعتبار لمقتضيات الواقع.

*-الوسواس:واضطراب مرتبط بالقلق يتميز بسيطرة أفكار ومخاوف غير منطقية على المريض.

*الحصر: انفعال ناشئ من الخوف مما يحتمل أو يحدث،أو مما يتوهم ،وأنه سيحدث عادة إلى تعب وقلق شديد،وفي الفلسفة الوجودية يعتبر الحصر حالة يأس شديدة .

*-الهراع(أو الهستيريا):وباللغة الانجليزية Hystérisa هو مرض نفسي عصابي تظهر فيه اضطرابات انفعالية مع خلل في أعصاب الحس والحركة،عصاب تحولي تتحول فيه الانفعالات المزمنة إلى أعراض جسمية ليس لها أساس عضوي،كالشلل،الصمم،فقدان الذاكرة، فقدان الرؤية أو أسبابه النفسية هي الصراع الشديد بين الأنا الأعلى والهو(خاصة الدوافع الجنسية)كالفشل والإخفاق في الحب،الزواج غير مرغوب فيه.

1-د/الربيع ميمون،المرجع نفسه،**"نظرية القيم في الفكر المعاصر بين النسبية والمطلقية"**، ص151، 152.

2- سيغموند فرويد،المصدر نفسه،**"حياتي والتحليل النفسي"**،ص 53.

*العمر،ثم قضيبية أو فالية Phallique ما بين الستة الثالثة والخامسة،ثم تمر بمرحلة الكمون فتصبح كامنة Latente*ما بين السادسة والمراهقة،ثم جنسية Sexuelle بعد المراهقة،وتمتاز هذه المرحلة بإعطاء الأهمية للجماع ،ويشير في كتابه"الموجز في التحليل النفسي" إلى كيفية نموها كالتالي:"وأول عضو يظهر بوصفه منطقة شهوية تعرض مطالبه الليبيدية على النفس هي الفم منذ الميلاد وتتأثر النفس بوظيفته الليبيدية .....فالحاح الطفل في المص وتشبثه به في مرحلة مبكرة ينم بوضوح عن حاجة إلى الإشباع ،على الرغم من أنها حاجة* تنبعث عن تناول الغذاء و تتأثر بها لا أنها تسعى إلى الحصول على لذة مستقلة عن التغذية،وبالتالي يمكن ويجب أن نوصفها بأنها جنسية.....وفي خلال هذه المرحلة الفمية تظهر الحوافز السادية في فترات متقطعة بظهور الأسنان،ويزداد مقدار هذه الحوافز زيادة عظيمة إبان المرحلة الثانية التي نسميها"السادية الشرجية" لأن الإشباع فيها يطلب في العدوان وفي وظيفة الإخراج .....المرحلة الثالثة نسميها "المرحلة القضيبية" وهي على نحو ما تشير بالشكل النهائي للحياة الجنسية بل وتشبهها شبها عظيما،ومع المرحلة القضيبية وخلالها تبلغ الجنسية الطفلية الأولى ذروتها وتقترب من اضمحلالها،من الآن فصاعدا تختلف مصائر الصبيان والبنات....فيدخل الصبي الطور الأوديبي ويأخذ يعبث بقضيبه،تصحبه أخيلة أنه يزاول به نوعا من النشاط الجنسي ذا صلة مع أمه إلى أن يعاني أعظم صدمة في حياته تحت تأثير تلاقي التهديد بالخصاء برؤيته المرأة عاطلة عن القضيب،وبذلك يدخل طور الكمون* بكل نتائجه،"(1)

و مثلما يشير النص السابق أن الشكل الأول للحب أو لليبيدو يرتبط بعقدة أوديب(حب الطفل لأمه ومحاولته الاستحواذ عليها جنسيا وعدائه للأب الذي يمثل السلطة العليا،والذي استحوذ على أمه)فهي تتميز بالتقاءاحساسين متناقضين تجاه نفس الموضوع،عداء نحو الأب المنافس على الأم والذي استحوذ عليها،وإعجاب بالأب البالغ صاحب السلطة والقدرة الكلية،من جانب الطفل،هذه الثنائية أو العقدة يستطيع الطفل أن يتجاوزها عن طريق كبت الليبيدو تجاه الأم وهذا ما يسمى بمرحلة الكمون،لأن هذه الدوافع تتعارض مع أوامر ونواهي الأنا الأعلى،

---

*-الكمون:يقصد به اختفاء الميول الجنسية وعدم ظهورها رغم استمرارها، وتظهر بعد البلوغ.

2-سيغموند فرويد،،المصدر نفسه،"**الموجز في التحليل النفسي**" ص ص36 -38

متناقضين تجاه نفس الموضوع،عداء نحو الأب المنافس على الأم والذي استحوذ عليها،وإعجاب بالأب البالغ صاحب السلطة والقدرة الكلية،من جانب الطفل،هذه الثنائية أو العقدة يستطيع الطفل أن يتجاوزها عن طريق كبت الليبيدو تجاه الأم وهذا ما يسمى بمرحلة الكمون،لأن هذه الدوافع تتعارض مع أوامر ونواهي الأنا الأعلى، واستنادا إلى ميول الإعجاب والاحترام والتقدير،و هذا يثبت تحول الميول الجنسية عند الطفل إلى مشاعر حب لاجنسية أو حنان عاطفي صافي وهي القاعدة الأولى للعلاقات العائلية،مع أن جزءا من هذه الميول يذوب في المراهقة ليكون الجنس الذي يمتاز به البالغ ، حيث يقول:"الشكل الأول للحب يظهر عند الطفل والمرتبط بعقدة أوديب ،يصاب كما هو معروف منذ بداية الكمون بدفعة قمعية،و لا يبقى منه إلا التعلق العاطفي بنفس الأشخاص ،وهو تعلق يمتاز بالحنان الصافي ،بحيث لا يمكن أن نطبق عليه نعت الجنسي."(1)

إن هذا التحول للطاقة الليبيدية إلى مواضيع ذات قيمة ثقافية واجتماعية و أخلاقية هو ما يسمى بالتسامي والذي على أساسه تبنى المجتمعات وتقوم الحضارات،حيث أستبدلت مواضيع الغريزة وأهدافها التي هي غير اجتماعية بمواضيع و أهداف اجتماعية،ولتوضيح الفكرة للقارئ جيد نقدم الأمثلة التالية:

في ميدان النشاطات المهنية،الرجل الذي له ميولا سادية يمكنه أن يشبعها بطريقة رمزية بتحوله إلى طبيب جراح أو لحام وذلك حسب درجة ثقافته وظروفه.

ومثال ثاني يوضح بأن للتسامي وجهين:وجه ايجابي،ووجه سلبي،أي قد تكون المواضيع المستبدلة لها قيمة ثقافية واجتماعية،وأخلاقية،وقد تكون سلبية،فالمرأة التي حرمت من الحب الجنسي لأسباب خارجية،إذا نقلت جزءا من الليبيدو إلى الحيوانات والكلاب والقطط، نكون أمام نموذج للنقلة،بينما إذا نقلت الليبيدو إلى الأطفال إما بتبنيهم وإما بالمشاركة في عمل اجتماعي لخدمة الطفولة،نكون أمام نموذج أخر لتحويل الطاقة الليبيدية،غير أن الحالة الأولى سلبية جعلت المرأة الأولى"أما للقطط" بينما الحالة الثانية ايجابية،جعلتها طبيبة أو مرشدة اجتماعية أو أخصائية نفسانية للأطفال.(2)

ويرى "فرويد" أن عداوة الأب –الابن ،والابن-الأب ما تتضمنه من تمنيات الموت اللاواعية (أي العقدة

1-ادغار بيش،،المرجع نفسه ،ص100،أخذه من كتاب:Essais de psychanalyse .p164

2-المرجع نفسه ، ،ص82.

النواة أو أوديب) كانت موجودا وجودا فعليا في البدايات الأولى للحياة الاجتماعية والتي تعرف بعقدة أوديب الكبرى، وذلك في أول قبيلة بدائية وهي السبب في الخطيئة الأولى التي أنجبت الدين والأخلاق،وهذا ما أسلفنا توضيحه،بمعنى أن حقيقة الأخلاق والدين في منظور الفرويدية هي:

أولا:الميول الجنسية هي الدافع الرئيسي في نشأة الأخلاق والدين،بمعنى نشأة الدين والقيم الأخلاقية يعود الحرمان الجنسي وارتباطه بالعدوان،فالميول الجنسية تجاه الأم والتي وقع قمعها من طرف الأب،هي التي ولدت العداء نحوه،فوقعت جريمة "القتل الأولى" وعليه "تحريم القتل ناتج من رد فعل وجداني سببه قتل الأب الرئيس وليس ناتج من دوافع عقلية"(1) والمحبة إزاء الأب تحولت إلى شعور بالذنب وهما الأساس في نشأة الأخلاق وتكوين الضمير الخلقي حيث يقول "فرويد":"سأوقف عند هذا الحد تمحيصي للنتائج التي تمخض عنها موقف المحبة إزاء الأب وهوا لموقف الذي اتخذ فيما بعد شكل الندم والتوبة في الدين والقانون الأخلاقي اللذين ما كانا يمايز تمايز يذكر في الطوطمية،وإنما أريد فقط أن ألفت الانتباه إلى أن الغلبة بقيت في التحليل الخير للميول التي دفعت باتجاه قتل الأب."(2) إذن الأساس الذي قامت عليه الأخلاق،هو أساس نفسي وجداني، نواته الميول الجنسية، وليس عقلي.

ثانيا:إن الميول العاطفية الجنسية، من الإخوة غير الأشقاء، أو من الأبناء تجاه الأب تحولت إلى ميول اجتماعية أي إلى علاقات عاطفية تربطهم ببعضهم بعضا، وهذا يعني أن الروابط الاجتماعية لا تخالف الروابط العائلية(3)،فإذا كانت العلاقات العائلية تقوم على الصراع الأوديبي بين الأب والابن،و الذي يتم تجاوزه عن طريق تجاوز الشعور بالكراهية،وتغليب مشاعر المحبة والتقدير وهو منطلق تشكل الوجدان الأخلاقي عند الطفل(الأنا الأعلى)،فان هذه العلاقة ما هي إلا استمرار للعقدة الأوديبية الأصلية التي وجدت في القبيلة البدائية، وهذا ما يسمى **بالتسامي** ،حيث تحولت الطاقة الليبيدية إلى موضوعات و أهداف ذات قيمة اجتماعية و

1-د، الربيع ميمون،المرجع نفسه،" **نظرية القيم في الفكر المعاصر بين النسبية والمطلقية**"، ص153

2-سيغموند فرويد،المصدر نفسه ،« **الطوطم والحرام**" ص190.

3-د،الربيع ميمون،نفس المرجع ،ص155 .

أخلاقية"فهو(أي الحب) يفضي في شكله التناسلي إلى تشكيل أسر وفي شكله **المكفوف*** من حيث الهدف إلى صداقات،لها أهميتها البالغة بالنسبة إلى الحضارة(1)"و التخلي الواعي للرغبات الجنسية الطبيعية من طرف الإخوة غير الأشقاء بعد إدراكهم لضرورة الامتناع عن إشباعها و ذلك تحت القهر والإرغام والقسر الخارجي (كبت الميول الجنسية)،قد تحول تدريجيا تجاه الذات فأصبح نابعا من الذات التي تراعي القيم الأخلاقية والمعايير السائدة في المجتمع ،أي من الأنا الأعلى.

إن الدين والأخلاق قوة جبارة تطرح نفسها بديلا لقوة الأب وجبروته، وعلى هذا النحو يشعر الفرد(الطفل) مثلما شعر الإخوة في القبيلة البدائية، بالراحة والاستقرار عندما ينهي الصراع الوجداني بين نزعة التمرد على الأب وبين الشعور بحبه وتقديره ،وغالبا ما ينتهي الصراع بتغليب محبة الأب وتقديره على مشاعر الكراهية والغيرة نحوه،وهذه الكيفية التي يتجاوز بها الطفل هذا الصراع تشكل الركيزة الأساسية للتكوين السيكولوجي للضمير الأخلاقي عنده.*

إن الصراع الأوديبي الموجود عند الأطفال ما هو إلا نموذج للصراع القائم في كياننا الداخلي بين متطلبات الأنا الأعلى(أي القيم الأخلاقية والاجتماعية)والتي هي مجموع المحرمات التي تعبر في نظر الطفل عن السلطة الأبوية بين ودوافع الهو(الغرائز الجنسية والعدوانية).

إن الليبيدو هو الأصل في وجود العائلة والمجتمعات والحضارات ،فالروابط الاجتماعية ،عبارة عن تجليات للطاقة الجنسية، و هذا يعني أنه لا توجد غريزة الاجتماع أو ما يسمى بغريزة القطيع في نظر فرويد،"ويعتقد بأن الميول الاجتماعية التي توحد الأفراد داخل المتحد (جماعات،عشائر،منظمات مثل الكنيسة،والجيش والمجتمع) تنجم عن ميول جنسية."(2) أو بصورة أخرى هو أن الشعور الاجتماعي الذي يشد

---

*-الليبيدو المكفوف:هو حب جنسي تحول من موضوعه الأصلي إلى هدف اجتماعي وأخلاقي،ما أشرنا إليه سابقا بالتسامي أو التصعيد

1-سيغموند فرويد ،**قلق في الحضارة**،تر/جورج الطرابيشي،(دار الطليعة للطباعة والنشر،بيروت،الطبعة الرابعة 1996)،ص60

*-على خلاف الطفل الذي لم يستطع تجاوز الوضعية الأوديبية بسلام ،فهو يقع في دائرة العقدة الأوديبية،فلا يستطع التصالح مع الأب وتجاوز شعوره بالكراهية ازاوه .

2-ادغار بيش،المرجع نفسه"**فكر فرويد** "ص99 .

الفرد بغيره من الناس في الجماعة "نتيجة الصراع بين الحب والكراهية أو بين الميل الحيوي إلى الحب والميل الحيوي إلى العدوان."(1) و أساس هذا الصراع وهو الغرائز الليبيدية. و الحضارة تكبت الجنس، لتستفيد من جزء من طاقته في بناء مؤسساتها وأنظمتها، إن تطور الحضارة يتناسب عكسيا مع تطور الحياة الجنسية، ولتوضيح الفكرة لابد من الإشارة إلى أن هدف الحضارة يتلخص في:الصراع ضد الطبيعة وتسخيرها في خدمة الإنسان، من أجل توفير حاجياته المادية التي تتطلبها الحياة،و ضبط وتنظيم العلاقات بين الأفراد داخل المجتمع "تجري الحضارة وراء هدف مزدوج:صراعها ضد الطبيعة لتأمين الاستمرار المادي للناس، وضبط العلاقات بين الأفراد داخل الحياة الجماعية." و تنظيم العلاقات بين الأفراد يقوم على شرط التجانس،و لا يتم ذلك إلا بتقييد الحرية الجنسية،وتحويلها إلى أهداف اجتماعية. (2)

إن الرغبات الغريزية عند الطفل، تظهر في شكل نفور من الحياة الاجتماعية، وتتمثل في رغبات حب المحارم وأكل لحم البشر والقتل(جنسية وعدوانية)، وهذا ما كان مستهجنا من طرف الحياة الثقافية والحضارية،رغم أنه لم يكن موقف الثقافة اتجاهها واحدا،فأكل لحم البشر وحده الذي كان مستهجنا من طرف الجميع،وهذا الإكراه الخارجي للغرائز الحيوانية الذي يتعرض له الطفل، يتم استبطانه تدريجيا، فتتبناه سلطة نفسية في الإنسان هي الأنا الأعلى و على أساسه يكون كائنا أخلاقيا واجتماعيا، فيتحول من عدوا للثقافة إلى مساندا ومدعما لها ،وكلما كان البشر من هذا الصنف كثيرون،كلما تكرست الحضارة في الواقع و أصبحت قادرة عن الاستغناء عن وسائل الردع الخارجية، رغم أن معظم الناس يخضعون للنواهي الثقافية تحت ضغط الإكراه الخارجي(3)، هكذا يفسر "فرويد"كل "الحضارة التي هي ملزمة بأن تشيد نفسها على الإكراه وعلى نكران الغرائز"(4)"وهذا الكبت ليس إلا تعبير عصري عن محرمات القبائل البدائية."(5)

1-عادل العوا،1-عادل العوا،**العمدة في فلسفة القيم**،(دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر،دمشق الطبعة الأولى 1986/) ص404.

2-ادغار بيش،المرجع نفسه،ص 101.

3-Sigmund Freud **.l'avenir dune illusion**. Traduction française par Bonaparte(.édition électronique réalisé par traitement de texte Microsoft 2001).p7.8.

4-ibid. P.11

4- ادغار بيش،،المرجع نفسه ،ص79.

يحلل "فرويد"الغرائز الأولية و ارتباطها بالميول الاجتماعية وبالحضارة ،حيث يرى بأن للإنسان ميول طبيعية أولية تبعث دوما عن الارتواء،ولا يمكن وصفها ،لا بالحسنة،و لا بالسيئة،بل تجلياتها تكمن في الصفتين،والسيئة منها تعدل بطريقتين:الأولى داخلية،و هي الحاجة إلى الحب(الحب الجنسي يتحول إلى حب اجتماعي)،والثانية خارجية،تتمثل في الضغط الاجتماعي،وهو جملة العادات والأعراف القوانين السائدة في المجتمع(الثقافة)التي تؤثر قي الفرد بطريقة مباشرة أو بطريقة غير مباشرة عن طريق التربية ،وهكذا تتحول الميول الطبيعية اللااجتماعية ،إلى ميول اجتماعية ،وتصبح في الإنسان القابلية للتحضر،غير أن المجتمع لا يشجع الحب الاجتماعي فقط ،بل يلجأ كذلك إلى وسائل أخرى للحصول إلى نتائج أخلاقية هي الثواب والعقاب.(1)

وإذا كانت الحضارة تتغذى من بعض الميول الجنسية فانها حرمت بعض الممارسات الجنسية التي تعتبر انحرافا على المستوى البيولوجي،كاللواط، وذلك من أجل الاستفادة من طاقته الجنسية المقموعة."و غالبا ما قمعت الحضارة اللواط لأن الليبدو اللواطي ينطوي على طاقة كبيرة في التسامي،ولأنه من الأفضل للمجتمع أن يتحد جميع الرجال بالرفقة والصداقة والأخوة بدل اتحادهم بروابط الحب الفعلي التي تحول المجتمع إلى اتحاد من الذكور."(2)

ثالثا:إن الضمير ما هو إلا نتيجة لتخلي الإنسان عن الإشباع الغريزي، الذي فرضته عوامل خارجية(ضرورة قيام المجتمع، تقاليد الحضارة) الذي يطالبنا دوما بالتخلي عن الرغبات الطبيعية، وكلما تخلى عنها الإنسان كان أكثر أخلاقية، فكينونة الضمير ناتجة من محاربة الغريزة، والتي تعود بدورها إلى الرقابة التي يمارسها الآباء على أبنائهم "فإننا نقول أن الضمير هو نتيجة لتخلينا عن الإشباع الغريزي أو التخلي عن الإشباع الغريزي الذي فرضته علينا عوامل خارجية هو الذي أثمر الضمير، الذي يطالبنا بدوره بالمزيد من التخلي عن الغرائز."(3) وشعور الإنسان بالذنب (تأنيب الضمير) يعود إلى مصدرين أساسيين،الأول:الخوف من السلطة،

1- ادغار بيش،المرجع نفسه ،ص135،134 .

2- المرجع نفسه ،ص102 ،103 .

3سيغموند فرويد،المصدر نفسه **"الحب والحرب والحضارة والموت"** ،ص89

والثاني الخوف من الأنا الأعلى ،فالأول يدعونا إلى التخلي عن الشهوات والغرائز ،والثاني يدعونا إلى العقاب ،نظير تشوق الإنسان إلى الممنوعات،"وهكذا نعرف أن مصادر الشعور بالذنب اثنان،الأول من السلطة والثاني من الأنا الأعلى،و يقسرنا الأول على التحول عن الشهوات والتبرؤ منها ويلح الثاني علاوة على ذلك على إنزال العقاب بنا طالما أن الإصرار على تمني الممنوعات لا يمكن أن يخفى على الأنا الأعلى."(1)

رابعا: الأخلاق لا تعود إلى مصدر متعال مفارق للطبيعة هو الله أو الدين السماوي ،لأن الدين الغيبي هو الاعتقاد العاطفي بوجود قوة غيبية مفارقة للطبيعة ،خالقة لهذا الكون هي الله ،وهي مصدر كل التعاليم الأخلاقية، بمعنى أن الأخلاق ليست ذات ماهية دينية،رغم أنها ترتبط بالطوطمية التي تمثل الشكل البدائي للدين، وهو دين إنساني وضعي"والحق أن الطوطمية هذه يمكن أن تعد صيغة أولى للدين في تاريخ البشرية."(2) إلا أن العلاقة بين الديانة الطوطمية والأخلاق ليست علاقة سببية وإنما علاقة نسب (الإخوة نسبوا إلى الطوطم التحظيرات الأخلاقية التي كان قد فرضها الأب على أبنائه.) وليست ذات مصدر نفعي و لا عقلي إنما لها أصل عاطفي،وهو ارتباطها بالمشاعر الحب من الطفل تجاه الأب التي تتغلب على مشاعر العداء و الكراهية"عقدة أوديب"مثلما تم توضيحه سابقا وقد"سبق أن أشار "فرويد" ضمنيا في الطوطم والحرام إلى عدم وجود علاقة سببية بين الأخلاق والدين،بل وجود علاقة يمكن أن نسميها علاقة نسب،بمعنى أن كليهما ينحدران من قتل الأب الأول،و لا يمكن بالتالي القول بان الأخلاق ذات جوهر ديني،كما لا يمكننا التأكيد أكثر من ذلك بأنها ذات أصل نفعي وعقلاني فقط. إن الأخلاق ذات أصل عاطفي، ويمكن اعتبار ذلك بمثابة تأكيد يستند إلى الملاحظات النفسية عند الأطفال."(3)

وعليه فالأخلاق ذات مصدر إنساني،عاطفي سيكولوجي ،نشأت من الليبيدو وتتغذى به وتتحقق سيرورتها بوجوده بمختلف تجلياته، فهي مجرد إسقاطات للغريزة الجنسية،وهكذا تكون في طبيعتها نسبية متغيرة ترتبط

1-سيغموند فرويد،المصدر نفسه ،ص87

2- سيغموند فرويد ، المصدر نفسه،"**موسى والتوحيد**" ،ص115

3-ـــادغار بيش،،المرجع نفسه،"**فكر فرويد**"،ص133

بميول الإنسان،لذلك يقول"روير":"إن القيم الدينية و الأخلاقية والفنية ،وحتى القيم النظرية،لا يوجد لها قوام خاص عند فرويد ،فهي لديه إسقاط خاص لليبيدو أثر دال عليه."(1)

وإذا كانت العلاقة بين الأخلاق والدين هي علاقة نسب، وليست علاقة سببية،فما هي نظرة "فرويد" للعقائد الدينية،وما حقيقتها.؟ هل هي مجرد تعبير عن قلق طفولي يعيشه الفرد، وبالتالي مجرد أوهام وخيالات ،يتم التخلي عنها مستقبلا.؟

المبحث الثاني: التحليل السيكولوجي للدين/ المعتقدات الدينية مجرد أوهام.

أولا-لاعقلانية المعتقدات الدينية في نظر فرويد:إن الأفكار الدينية معتقدات أو توكيدات تتعلق بالعالم الخارجي أو الداخلي والعلاقة بينهما(إسقاطات داخلية على ظواهر العالم الخارجي) ،وبين الأفراد،لم يكتشفها الإنسان،ترتكز على الإيمان،تحظى بكثير من التقدير ،لأنها تطلعنا على أهم ما في الحياة ،مثلما يخيل إلينا ،ومن يعرفها ويتعامل بطقوسها، يعتقد بأنه يمتلك المعرفة المطلقة،حيث يقول "فرويد":" ولما كانت هذه المعتقدات تطلعنا على أهم ما في الحياة ،وعلى أكثر ما فيها من إثارة للاهتمام،على ما يخيل إلينا،فإنها تحظى برفيع التقدير فمن يجهلها يكون مطبق الجهل ومن دمجها بعلمه،يسعه أن يعد نفسه مالكا لمعرفة عظيمة الاغتناء."(2)

لابد من الاعتراف بأن جميع المعتقدات الدينية تقوم على الإيمان، لكن على أي أساس تم التصديق والإيمان بها.؟

في معرض بحثه عن الأساس الذي تقوم عليه المعتقدات الدينية،يعثر على ثلاثة أجوبة:

أولا: لأن أجدادنا و أسلافنا كانوا يؤمنون بها .

ثانيا:لأن هناك أدلة وبراهين تناقلتها الأجيال،يعود تاريخها بالتحديد إلى الأزمنة البدائية وصلت إلينا.

ثالثا:لا يمكن أن تطرح مصداقيتها لأن المجتمع يعاقب بالقصاص كل من يطرح مثل هذا السؤال.

يحلل "فرويد" هذه الأجوبة تحليلا نقديا ،ينطلق من الإجابة الثالثة التي هي مصب المشكلة،باعتبارها تثير الشكوك،لأن النظرة النقدية تفضي بنا إلى التسليم بأن هذا التحظير مصدره دافع واحد فقط هو أن المجتمع يعلم

1- د،الربيع ميمون ،المرجع نفسه،**"نظرية القيم في الفكر المعاصر بين النسبية والاطلاقية"** ،ص146 .

2. Sigmund Freud.ibid **.l'avenir dune illusion.** P23

بأن الأساس الذي تقوم عليه المعتقدات الدينية ضعيف وواهن، ولو لم يكن الأمر كذلك لوضع المجتمع المادة الضرورية التي على أساسها يقتنع جميع الناس.(1)

أما بالنسبة للحجتين الباقيتين،نؤمن، لأن أسلافنا امنوا ،فان هذا ليس مبرر لأنهم كانوا أشد جهلا منا بكثير،حيث كانوا يؤمنون بأشياء يستحيل علينا أن نؤمن بها نحن ،وهذا ما كنا قد وضحناه في التقييدات التي كانت تؤمن بها المجتمعات البدائية،والطقوس الغريبة التي كان أفراد القبيلة يتقيدون بها.إن الأدلة التي تركها لنا أسلافنا عبارة عن ميراث مدون في النصوص تحمل تناقضات كبيرة،لا يمكن أن نثق فيها ولا يمكن أن يقبلها العقل .

إذن لا مفر من التسليم بأن هذا الجزء من الميراث الثقافي الذي يمتلكه الإنسان والمتمثل في الدين، والذي له مهمة كبيرة تتلخص في تفسير ألغاز الكون و أسراره، ويعتبر الأصل لمختلف القوانين و الواجبات الأخلاقية،لا يستند إلى أي دليل عقلي أو برهان يدفعنا إلى التصديق به.

و لا يخفي "فرويد" التصريح بأن الشكوك التي تراودنا الآن عن صحة المذاهب الدينية ،قد ساورت الكثير قبلنا لكن الضغط الخارجي من المجتمع، حال دون البوح بها"فمما لا ريب فيه أن الكثيرين ساورتهم عين الشكوك التي تساورنا نحن الآن ،لكن الضغط الذي كانوا يزر حون تحته كان أقوى من أن يجرؤوا على الإفصاح عنها ،ومنذ ذلك الحين تقلب الكثير من الرجال على فراش عذاب الشكوك نفسها." (2)

ويعرض مؤسس التحليل النفسي محاولتين تقوم عليهما المعتقدات الدينية،لكنهما في نظره لا تبررانها بل هما محاولتين الغرض منهما الهروب من المشكلة، الأولى قائمة على العنف وقديمة،و تتمثل في قانون أرباب الكنيسة عن الإيمان"أومن به لأنه محال"*وهو ينسب إلى القديس "أوغسطينوس"* و هذا القانون يعني أن العقائد الدينية لا تقوم على المنطق والعقل،وإنما على الشعور الداخلي أو الصوفي"الأوقيانوسي" بحقيقتها ،فلا سبيل إلى البرهنة على صحتها أو عدم صحتها،إذن قانون الإيمان مسالة شخصية،وليس قانون أو دستور يلتزم

1- Sigmund Freud –ibid. P24

1-ibid. p 25

*-النص الأصلي باللاتينية: C reto qua A absurdum

* -القديس أوغسطينوس: Saint augustin (354-430)كاتب وفيلسوف ،من قبائل البربر ولد في طاغاس(حاليا سوق هراس،الجزائر)

به الجميع.لكن ما العمل مع أولئك الذين لم يقع لهم هذا الشعور الوجداني الخاص .؟ يجيب، لا يحق لنا أن نلزم الجميع، بذوق وجداني خاص بفئة من الناس، و لا توجد سلطة تعلو فوق سلطة العقل."فما الداعي لأن ألزم بتصديق تلك الإحالة بعينها.؟الحق أنه ليس ثمة سلطة تعلو فوق سلطة العقل ولا حجة تسمو على حجته، وإذا كانت حقيقة المذاهب الدينية مرهونة بحدث داخلي يشهد تلك الحقيقة،فما العمل بجميع أولئك الناس الذين لا يقع لهم مثل ذلك الحدث النادر.؟"(1)

يناقش "فرويد" هذه الحجة بالتفصيل في كتابه"قلق في الحضارة"انطلاقا من وجهة نظر صديق له،كان قد بعثه نسخة من كتاب"مستقبل وهم"، هذا الصديق لم يقتنع برأي "فرويد" لأنه في نظره لم يضع يده على المصدر الحقيقي للدين،وهو شعور خاص يساوره و يختلج في ملايين البشر،شعور بالأبدية والاطلاقية ،يمثل مصدر الطاقة الدينية .

يرد على ذلك: أنه من رابع المستحيلات أن يكتشف في نفسه مثل ذلك الشعور الصوفي،و لا يمكن معالجة العواطف والمشاعر معالجة علمية،ما يمكن القيام به هو وصف تجلياتها على المظاهر الفيزيولوجية فقط، ومن المتعذر معرفة المشاعر التي تنفلت من المظاهر الفيزيولوجية،و تبقى فقط التصورات المرتبطة بشعور ما أو موضوع ما، حيث يقول" لو أخضعت نفسي للتحليل لعجزت عن إقناع ذاتي بالطبيعة الأولية لمثل ذلك الشعور،لكن ذلك لن يتيح لي واقعيته عند الآخرين."(2)

إن الحقيقة التي يصل إليها،هي أنه لا يوجد شعور مستقر في أنفسنا ،يتصف بالثبات،يربط الكائن البشري بالعالم المحيط به و بالانتماء إلى ما هو كوني،ما عدا الشعور بأنفسنا،بأنانا الخاص،الذي قد يمتد إلى كيان أخر لا واع يطلق عليه اسم "الذات"Essence .(3)

يتساءل مؤسس التحليل النفسي:هل يمكن لهذا الشعور الصوفي أن يكون ينبوع كل حاجة دينية.؟

1-ibid. P25

2-سيغموند فرويد،المصدر نفسه ،**"قلق في الحضارة"**ص 7

3-المصدر نفسه ،ص8.

يجيب:أنا غير مقتنع بذلك"فلا يمكن لشعور ما أن يغدو ينبوع طاقة إلا إذا كان هو نفسه تعبيرا عن حاجة ماسة.(كالحاجة إلى الاحتماء بالأب)"(1)

أما المحاولة الثانية ،حاذقة وحديثة تتلخص في فلسفة "كما لو أن" Comme si،و تعني أن ندرج في عداد المعرفة كل ضروب الفرضيات حتى التي تتعارض مع العقل وتسمى بالتخيلات و الأوهام ،و في هذا الباب ندرج المذاهب الدينية بحكم فائدتها العملية المتمثلة في الحفاظ على المجتمعات البشرية وصيانتها.

إن هذه الحجة ليست بعيدة عن المبدأ السابق"أومن به لأنه محال"،إن الفيلسوف وحده هو الذي يتخيل مطلب"كما لو أن " أما الإنسان العادي الذي يتأثر فكره بالشعوذة فهو غير قادر على ذلك.

ويصف الأفكار الدينية بحكايات الجنيات التي يرفضها الأطفال ذوي الحذق والمهارة والكياسة ،في سياق مثال عن أولاده"إني لا أتذكر هنا واحدا من أولادي تميز منذ نعومة أظافره بحس بالواقع شديد البروز،ففي حين كان سائر أولادي يصغون بخشوع إلى إحدى حكايا الجنيات،كان هو يتأمل ليسأل"أهي قصة حقيقية" فإذا ما جاء الجواب بالنفي،أدار ظهره وابتعد بادي الازدراء." و يتوقع "فرويد" أن يسلك كل بني أدم نفس المسلك تجاه حكايا الجنيات الدينية.(2)

إذا كانت الأفكار الدينية ليست خلاصة تجربة أو نتيجة تأمل وتفكير،أي لا تستند على أدلة وبراهين عقلية تبرر صحتها ومصداقيتها ،رغم تأثيرها القوي على البشرية منذ الأزمنة الغابرة،فما مصدرها،وفيما تكمن القوة الباطنة لهذه المعتقدات الدينية.؟

ثانيا-عقدة أوديب والقلق والضائقة البشرية مصادر للدين:يرى"فرويد" أن المعتقدات الدينية ما هي إلا تكرار لتجربة الطفولة،فالبدايات التاريخية لفكرة الله تتضمن علاقات حميمية بين الابن والأب"فالله هو أب موقر ومعظم والحنين إلى الأب هو جذر الحاجة الدينية."(3) بمعنى أنه ربط بين صفات الإله الذي يؤمن به الفرد وفكرة الطفل عن أبيه،والشكل الأول للدين يرتبط بخصائص الطوطمية التي تعبر عن المستوى الطفولي للبشرية

1--المصدر نفسه ،ص 17.

1- Sigmund Freud.ibid .**l'avenir dune illusion**. P26

2-ibid. P20

والتي تتضمن عقدة أوديب والمشاعر المتناقضة تجاه الأب (الحب والعداء) وقد خصص له كتاب "الطوطم" والحرام(سنة 1912) فهو يعود إلى القبيلة البدائية التي كان يحكمها أب ذكوري متسلط وشجاع،والذي يمثل خالق العالم،حيث حرم على أبنائه الزواج،وتحت تأثير الكبت للدوافع الجنسية ثار الأبناء على الأب،فقتلوه والتهموه،وكبديل له جسدوا له حيوان طوطمي،يمثل الأب ونسبوا له كل التقييدات الأخلاقية والقوانين،التي كان قد وضعها الأب،وهكذا حل الإله(الحيوان الطوطمي) محل الأب،وفرضوا على أنفسهم طقوس تجاهه ،ما يعرف بالوليمة الطوطمية،وحرموا قتله،واكله وإلحاق الذي به.*

وبعد قتل الأب الأول ،تم تحرير النساء فانتقلت السلطة إلى النساء،و تأسس نظام الأمومة أي ظهرت الأسرة الأميسية(الأموية)*حيث يقول "فرويد":" وانتقل قسم لابأس به من السلطة المطلقة عقب موت الأب إلى النساء وبذلك قام نظام الأمومة."(1)

وقد تطورت الطوطمية من الإله الذي يتخذ شكل حيوان إلى الإله الذي يتخذ شكل إنسان،وأحيانا بقي الإله في الشكل الحيواني أو على الأقل في رأس حيوان،وصار الطوطم رفيقا وملازما للإله ،وفي فترة لاحقة ظهرت الآلهة الأمومية ،والتي سبقت الأهلة الذكورية،وكنموذج على ذلك الآلهة التي كانت سائدة في المرحلة اللاهوتية عند اليونان:P enia(بينيا) إلهة الفقر ،Athéna(أثينا) إلهة الحكمة،Afro dite(أفروديت)الهة الحب والجمال،وقد استمر الاثنين معا،ثم حدث انقلاب اجتماعي وأطاح بنظام الأمومة وحل محلها نظام الأبوة"الأسرة الأبوية،الأبيسية"* و لم يكن الآباء الجدد(الآلهة الأبوية) أقوياء،مثلما كان الأب البدائي،حيث كان عددهم كثير،و أوسع من العشيرة البدائية.حيث يقول "فرويد":" لقد تطورت الطوطمية وتقدمت باتجاه انسنت الكائن المعبود،فقد حلت محل الحيوان آلهة إنسانية،لا يخفى علينا أصلها الطوطمي،وحافظ الإله على شكله الحيواني،في بعض

---

*-الرجوع إلى المبحث السابق يحتوي على التفاصيل

*-الأسرة الأمسية:الأم تلعب دور الأب والرئيس والأطفال ينتسبون إليها ،وجميع القضايا المتعلقة بالأسرة تعود إليها.

1-سيغموند فرويد المصدر نفسه"، **موسى والتوحيد** "،ص115

*-الأسرة الأبيسية:الرجل يلعب دور الأب والرئيس و الأطفال ينتسبون إليه،وجميع القضايا المتعلقة بالأسرة تعود إليه،وهو يلعب دور القاضي في الفصل في المنازعات.

الحالات وصار الطوطم وفيقا ملازما للإله لا يقبل عنه فكاكا في حالات أخرى(...) وفي مرحلة يصعب تحديدها من هذا التطور ظهرت الآلهة الأمومية الكبرى التي سبقت في الظهور،على الأغلب،الآلهة المذكرة،والتي استمرت قائمة جنب إلى جنب إلى هذه الأخيرة حقبة مديدة من الزمن، وفي أثناء ذلك حدث انقلاب اجتماعي هائل:فقد دبت الحياة من جديد في نظام الأبوة، و أطاح بنظام الأمومة."(1)

ويتعرض مطبق التحليل النفسي على المجتمعات، في كتابه" مستقبل وهم" إلى تعليل تحليلي يكمل بحثه السابق في هذه المسالة الذي تناوله في كتابه "الطوطم والحرام"،و منطلق تحليله هو آن الأفكار الدينية تهبها الحضارة للفرد،لكن كيف ذلك.؟

إن الحضارة تهدف إلى الدفاع عن الإنسان ضد الطبيعة،وذلك عن طريق أنسنة الطبيعة*،كأن ننسب إلى الطبيعة إرادة خبيثة ،مثلما كان الإنسان ينسب الموت إلى كائنات شبيهة بالإنسان موجودة في كل مكان،وما عليه إلى أن يعمل على تهدئتها،أي تعويض علم نفسي مكان علم طبيعي،وهذا الوضع ليس جديدا علينا بل كامن في حياتنا،يعيشه كل فرد في طفولته،فمثلما يربط الطفل مصيره بوالديه عندما يكون في ضائقة ما ،يضفي الإنسان على القوى الطبيعية صفات الأب ويحولها إلى آلهة"ذلك أن هذا الوضع ليس بالجديد، بل له نموذج بدئي،طفلي، لا يعدو أن يكون في الواقع استمرارا له. فقد سبق لنا أن وجدنا أنفسنا في ضائقة مماثلة، حين كنا أطفالا صغارا في مواجهة أهالينا(....) كذلك لا يجعل الإنسان من القوى الطبيعية كائنات إنسانية يسعه أن يقيم معها علاقات شبيهة بتلك التي يقيمها مع أقرانه(...) ولكنه يضفي عليها صفات الأب ويحولها إلى آلهة."(2)

و مع مرور الزمان وتطور العلم أثبت بأن الطبيعة تسير وفق قوانين أو نظام ،فتجردت من الإسقاطات البشرية عليها مع بقاء الضائقة البشرية ومعها الحنين إلى الأب والى الآلهة،ولهذه الآلهة وظائف ،تتمثل في :التخفيف من قسوة الأقدار،طرد الأرواح الشريرة،تعويض الإنسان عن الأوجاع و الآلام و الحرمانات التي تفرضها العلاقات الإنسانية.

1-سيغموند فرويد،المصدر نفسه ،ص116

*-المصطلح الأصلي هو Humanisation،وهو مستمد من الأرواحية،أي انساب إلى الطبيعة أرواح ، وتمثلها المرحلة الطوطمية.

2-- Sigmund Freud .ibid. P16

إذن فكرة الدين أو الإله نابعة من الخوف أو من الحاجة إلى تلطيف الضائقة الإنسانية، وبفضلها يشعر الإنسان بأنه محمي من أخطار الطبيعة(الكوارث الطبيعية) ومن الأضرار التي يسببها المجتمع الإنساني، وهكذا تصبح مهمة الآلهة هي إدراك عيوب ونقائص الحضارة،من أضرار و خسائر،والاهتمام بالأوجاع و الآلام التي يسببها البشر بعضهم بعض،" وعلى هذا النحو تتكون ذخيرة من الأفكار وليدة الحاجة إلى تلطيف الضائقة الإنسانية،مبنية بالمادة التي تقدمها ذكريات التي كان عليها الإنسان في طفولته الأولى و في طفولة الجنس البشري،يسير علينا أن ندرك أن الإنسان يشعر،بفضل هذه المكتسبات ،بأنه محمي من جانبين: من جهة أولى من أخطار الطبيعة والقدر ، ومن الجهة الثانية من الأضرار التي يتسبب فيها المجتمع الإنساني."(1)

بناءا على ما سبق، الدين لا ينبع من حاجة الإنسان إلى قوة غيبية بل هو عاطفي في جوهره أكثر من أي نشاط نفسي أخر، له علاقة بعوامل مصدرها عقدة أوديب،و للتوضيح يتبع "فرويد" مراحل الحياة النفسية للطفل الصغير،الموضوع الأول للحب(الليبيدو) بالنسبة له هو الأم لأنها أول من يسد حاجاته البيولوجية ،و الحامية الأولى له من الأخطار التي تهدده من العالم الخارجي، لكن سرعان ما يحل محلها الأب ،الأشد قوة وبأسا ،ويبقى هذا الدور خلال مرحلة الطفولة،و العلاقة بين الأب والابن تشكلها ازدواجية أوديبية خاصة فهو يشكل خطرا،إذ يوحي بالمهابة والخوف ربما بسبب العلاقة البدائية بالأم، وفي نفس الوقت يوحي بالحب والحنان والإعجاب وهذه الازدواجية كامنة في كل الأديان.

و عندما يترعرع الطفل ويعرف بأنه يبقى طوال حياته طفلا،و أنه بحاجة دائما إلى حماية من قوى عليا ،يضفي على هذه القوى صفات الأب ويصنع لنفسه آلهة يخشى منها ويسعى إلى عطفها من جهة ،و ينتظر منها الحماية من جهة ثانية"وهكذا يتفق حنين الطفل إلى الأب مع ما يحس به من حاجة إلى حماية بحكم الضعف البشري،كما أن رد فعل الطفل الدفاعي حيال الشعور بالضيق يتفق ورد فعل الراشد حيال الشعور الذي يخالجه هو أيضا والذي يتولد عنه الدين بسماته المميزة."(2)

إذن، الله هو أب عظيم ابتدعه الإنسان بسبب قلقه و خوفه وحاجته للحماية والتلطيف من الأخطار التي

1- Sigmund Freud.ibid .**l'avenir d.une illusion .p17**

2-ibid. P21.22

تهدده من العالم الخارجي،أو من المجتمع الإنساني أو بسبب مشاعره الطفولية،"إن الدين ،و معتقداته ،و محرماته ورمزيته،لا يفعل سوى التعبير ،على المستوى النفسي،عن الجزع والقلق اللذين تولدهما عقد كل فرد."(1)"إن العقائد الدينية أساطير ليست سوى أمور نفسية أسقطت على العالم الخارجي إنها عقد ترجمت إلى لغة الصور البصرية،وبلغة المأساة ،ونذكر منها بوجه خاص عقدة(أوديب)لأن الله هو صورة الأب ، وما القلق الديني إلا طراز من ضيق الطفل بلا أبوين."(2)

والنتيجة النهائية التي يصل إليها مهندس التحليل النفسي أن العقائد الدينية **مجرد توهمات**،مادامت ليست خلاصة تجربة وليست نتيجة تأمل أو تفكير،لا يمكن البرهنة عليها،و لا تستند إلى أي أساس عقلاني،فهي ذات أصل إنساني محض،سبب وجودها هو الخوف الطفلي والقلق والضائقة الإنسانية إزاء أخطار الحياة "حين نوجه أنظارنا نحو التكوين النفسي للأفكار الدينية ،فهذه الأفكار التي تطرح نفسها على أنها معتقدات ليست خلاصة التجربة أو النتيجة النهائية للتأمل والتفكير إنما هي توهمات ،تحقيق لأقدم رغبات البشرية وأقواها و أشدها إلحاحا ، وسر قوتها ،هو قوة هذه الرغبات ،و بالأصل نحن نعلم ذلك،فالإحساس المرعب بالضائقة الطفلية أيقظ الحاجة إلى الحماية ،والحماية بالحب،وهي حاجة لباها الأب ،وإدراك الإنسان أن هذه الضائقة تدوم الحياة كلها ،جعله يتشبث بأب ،أب عظيم قوة وأشد بأسا هذه المرة،فالقلق الإنساني إزاء أخطار الحياة يسكن ويهدأ لدى التفكير بالسلطان الرفيق العطوف للعناية الإلهية."(3)

و الحكم بأن المعتقدات الدينية أوهام لا يعني أنها خاطئة ،فالتوهم ليس بالضرورة خطأ،وإنما لا نستطيع إثبات صحتها كما لا يمكن دحضها،و الوهم الديني نابع من طبيعة سيكولوجية،أي من رغبات البشر، ويقترب من الفكرة الهاذية، والفرق بينهما هو أن الوهم قابل للتحقيق في الواقع على خلاف الفكرة الهاذية"و خاصية الوهم أنه متفرع عن رغبات إنسانية،و هو يقترب من الفكرة الهاذية في الطب النفسي."(4)

1-ادغار بيش،المرجع نفسه،"**فكر فرويد**"، ص112

2-عادل العوا،المرجع نفسه ،"**العمدة في فلسفة القيم**" ،ص631

3-- Sigmund Freud .ibid. P27

4-.ibid. P27 .

إن الدين هو منظومة من الأوهام، منشأها رغبات الإنسان النافية للواقع ،تعبير عن علاقة وهمية تتوسط بين العالم الداخلي للإنسان والعالم الخارجي الذي يعيش فيه،ناجمة عن عمليات اسقاطية ،فهو من اختراع الإنسان العاجز عن التكيف مع الواقع والفاشل في إشباع حاجاته ورغباته،هذا الوضع الذي لا يطاق جعل الإنسان يهرب من هذا الوضع المؤلم والمرير، ويبتدع لنفسه عالم أخر من الأوهام والخيالات.

بناءا على ما سبق فان **وظيفة الدين تتلخص في**:حماية الإنسان على المستوى النفسي من خطر قوى الطبيعة التي عجزت الحضارة عن تحقيقها، كالموت،ومن خطر العلاقات الناجمة بين الأفراد بعضهم بعضا، ومن درجة الحرمان التي تفرضها الحضارة على الفرد وهو يشبه الدور الذي يقوم به الدين بالدور الذي تقوم به المنومات والمسكرات للإنسان عندما يتناولهما "مفعول العزاء و السلوان الذي يقوم به الدين للإنسان يمكن المقايسة بينه و بين مفعول المنومات و ما يجري الآن في أمريكا أسطع مثال على ذلك."(1)

إن الدين مسكن للمشاكل والمصاعب والأخطار التي تعيق حياة الإنسان"إن حياتنا كما هي مفروضة علينا ثقيلة الوطء ،وتغل أعناقنا بكثرة كثيرة من المشاكل والخيبات والمهام الكأداء،فلا غنى لنا عن المسكنات ولعل المسكنات على أنواع ثلاثة،أولها: إلهيات قوية تتيح لنا أن نعتبر بؤسنا هينا أمره(أي تجعل من شقائنا وبؤسنا سهلا) وثانيها :اشباعات بديلة تخفف من وطأته. وثالثها:مخدرات تفقدنا الإحساس به."(2)

و إذا كانت العقائد الدينية منومات تماثل في مفعولها مفعول المخدرات ،فما هو مستقبلها.؟

ثالثا-مستقبل الدين:حلل مطبق التحليل النفسي على المجتمعات ماضي الدين وحاضره ليتعرف على مستقبله. ويجري مقارنة بين المراحل التي يمر بها الطفل والمراحل التي مرت بها البشرية ،ليصل إلى أن الدين هو العصاب الوسواسي* العام للبشرية،فالطفل لا يستطيع أن ينمو ويتطور و يرتقي نحو الحضارة دون أن يمر

1- Sigmund Freud . **ibid. P42.43**

2-سيغموند فرويد،المصدر نفسه، **"قلق الحضارة"**ص21

*-العصاب الوسواسي:ويطلق عليه أيضا (العصاب القهري)(الاضطراب الوسواسي الجبري)ويصفه فرويد في كتاب مقدمة عامة في التحليل النفسي بقوله:ينشغل عقل المريض بأفكار غير سارة ،ويشعر باندفاعات تبدو غريبة بالنسبة إليه،و أنه مدفوع ليقوم بأعمال لا تسره، وليس لديه القدرة على الامتناع عنها، وقد لا تكون للأفكار والوساوس معنى في ذاته،لكنها مع ذلك أفكار مسيطرة على المريض.

بمرحلة عصابية،ناتجة من عدم قدرته على قمع غرائزه بالعقل الذي تشترطه الحضارة والتمدن، ومن ثم يتغلب عليها بالكبت الذي يختفي من ورائه باعث الخوف،و هذه السيرورة تنطبق بكاملها على البشرية،التي تمر بحالات مشابهة للعصاب،فالبشرية تخلت عن الغرائز للحياة المشتركة بفضل قوى عاطفية خالصة،لا بدافع عقلاني،وهذا ما حدث في أزمنة ما قبل التاريخ(الخطيئة الأولى ونشأة الدين و الأخلاق) ثم استمر هذا التخلي كمط لبا متمما ومكملا للحضارة،هكذا يكون الدين عصاب البشرية،مثله مثل عصاب الطفل ،صادر من عقدة أوديب،لذلك سيتم العزوف عنه مستقبلا، فهو يحتوي على قيود قسرية لا نجدها إلا عند المصابين بالعصاب الوسواسي أو هو مجموعة أوهام تدل على حالة مرضية تعيشها البشرية، و لا شفاء لها إلا بتحريرها منه، " وفي مقدورنا كذلك أن نفترض أن البشرية تمر بجملتها أثناء تطورها و ارتقائها بحالات مشابهة للعصاب(و للأسباب ذاتها) فما كان للبشرية في عصور الجهل والضعف الفكري التي مرت بها في البداية أن تتخلى عن الغرائز بالمقدار الذي تستوجبه حياة البشر الا بفضل قوى وجدانية خالصة(...) وهكذا يمكن القول بأن الدين هو عصاب البشرية الوسواسي العام و بأنه ينبثق عن عقدة أوديب في علاقات الطفل بالأب و انطلاقا من هذه التصورات يمكننا أن نتوقع أن يتم العزوف عن الدين عبر سيرورة النمو المحتومة التي لا راد لها."(1)

لقد قدم الدين خدمات كبيرة للبشرية أو للحضارة لآلاف السنين،بكبح غرائز البشر اللا اجتماعية ،لكنه لم يتمكن من الذهاب بعيدا ،في هذا الاتجاه،فلو تمكن من تحقيق السعادة لأغلبية البشر،و بمواساتهم و ومصالحتهم مع الحياة لما توقى البشر في تغيير الوضع الراهن"لقد أدى الدين بلا جدال خدمات جلى للحضارة،و أسهم واسع الإسهام في كبح الغرائز اللااجتماعية ،لكن ما أمكن له أن يسير بعيدا إلى حد كاف في هذه الوجهة،فقد حكم المجتمعات البشرية طوال ألاف السنين ،و أتيح له الوقت الكافي لإظهار ما هو قادر على تحقيقه. ولو حالفه التوفيق في توفير أسباب السعادة لغالبية البشر ،وفي تعزيتهم و المؤالفة بينهم وبين الحياة وتحويلهم إلى ركائز للثقافة والحضارة، لما خطر على بال أحد الطموح في تغيير حالة الأمور الراهنة."(2)

إن تشابه حالات العصاب و الدين هو الذي أتاح له فهم حقيقة الأديان و كيفية نشوئها "و لو لا هذا التشابه بين

1- Sigmund Freud . ibid. P38

2-ibid. P33.34

الدين و العصاب الوسواسي لما أمكن فهم العديد من خصائص الأديان."(1)

ينتقد "فرويد" المعتقدات الدينية نقدا لاذعا وذلك كالتالي:

أولا: إذا كانت الأفكار الدينية منبعها الحضارة فإنها حرمت الإنسان من ممارسة الجنس والعدوان"إذا كانت الحضارة تفرض مثل التضحيات الباهظة،لا على الجنسية فحسب بل أيضا على العدوانية فإننا نفهم في هذا الحال فهما أحسن لماذا يعسر على الإنسان غاية العسر أن يجد في ظلها سعادته ،وبهذا المعنى كان الإنسان البدائي محظوظ القسمة في الواقع،لأنه ما كان يعرف أي تقييد لغرائزه وبالمقابل كان اطمئنانه إلى التمتع مطولا بمثل هذه السعادة."(2)

ثانيا: الشعور بالذنب الذي جاءت به الأديان هو مشكلة الحضارة و هو الذي سبب نقص في شعور الإنسان بالسعادة" كان قصدنا رغم كل شيء أن نصور الشعور بالذنب على أنه المشكلة الرئيسية لتطور الحضارة و أن نبين فضلا عن ذلك لماذا يتوجب علينا دفع فاتورة تقدم هذه الأخيرة بنقصان في السعادة ناجم عن تعزيز ذلك الشعور."(3)

ثالثا:إن الدين هذيان* جماعي وسعادة الإنسان لا تتحقق إلا إذا قطع الإنسان صلته بالدين "ثمة طريقة أخرى أكثر جذرية و أبعد شأوا طريقة نرى فيها الواقع العدو الأوحد ينبوع كل ألم ،فيما أن الواقع يجعل حياتنا مستحيلة لا تطاق،فلابد من قطع الصلة به،إذا كنا نحرص على السعادة و بصورة من الصور(...)و هناك حالة تكتسي أهمية خاصة وهي تقوم متى ما سعت الكائنات البشرية بأعداد كبيرة إلى تأمين السعادة لنفسها و إلى الاحتماء من الألم بواسطة تشويه خرافي للواقع ،والحال أن أديان البشرية يجب أن تعتبر هذيانات جماعية من هذا النوع،و طبيعي من لا يزال يشارك في هذيان ما لن يعترف أبدا بأنه هذيان" Délusion """(4)

1-- Sigmund Freud..ibid **.l'avenir dune illusion . P30**

-سيغموند فرويد،المصدر نفسه "**قلق في الحضارة**"ص 77.

2-المصدر نفسه ،ص103.

3-المصدر نفسه ص 29،30.

*-الهذيان: اعتقاد مرضي في وقائع غير حقيقية أو في تصورات خيالية لا ساس لها في الواقع ،من الموجز في التحليل النفسي لفرويد،ص165

4-اريك فروم،**الدين والتحليل النفسي**،ترجمة فؤاد كامل(دار غريب للطباعة والنشر،القاهرة،عدم وجود رقم الطبعة وسنة الطبع) ،ص17.

رابعا:الدين خطر لأنه يميل إلى تقديس مؤسسات إنسانية سيئة تحالف معها الإنسان على مر التاريخ.

خامسا:الدين يعلم الناس الاعتقاد في وهم، ويحرم التفكير النقدي، وهو المسئول عما أصاب العقل من إملاق(فقر)

سادسا:يضع الأخلاق على أسس مهزوزة أشد الاهتزاز،فإذا كانت صحة القيم الأخلاقية تقوم على كونها أوامر إلهية،و هو يرى أن الدين في طريقه إلى الانحلال،فان انحلال هذه الرابطة بينهما تؤدي إلى تحطيم الأخلاق.(1)

لهذه الأسباب يدعو "فرويد" إلى التخلي عن المنومات والمسكرات التي يمارسها الدين على الأفراد أو بعبارة أخرى الانفلات من الأوهام، و استبدالها بالتربية غير الدينية ،وبالذكاء والعلم"فمنذ عهد الطوفان علمه علمه الكثير و سوف يزيد أيضا من قوته وقدرته،أما فيما يتعلق بالضرورات الكبرى التي تنطوي عليها المقادير ،وهي ضرورات لا علاج لها،و لا دواء ،فسيتعلم الإنسان كيف يتحملها بتسليم وانقياد." ويقول:" لاشك في أن الإنسان سيتوصل يوم يقطع رجاؤه من عالم الغيب أو يركز كل طاقاته المحررة على الحياة الأرضية إلى أن يجعل الحياة قابلة للاحتمال من قبل الجميع و لن تستحق الحضارة بعدئذ أحدا."(2)

يدعو "فرويد" إلى استبدال الدين بالعقل لمواجهة غرائز البشر وترويضها بما تتطلبه الحياة الاجتماعية ،وللتقليل من ألامهم الناجمة من العلاقات القائمة فيما بينهم أو من قوى الطبيعة"و لما كانت أولوية العقل ستنشد في أرجح الظن نفس الأهداف التي يفترض في إلهكم أن يبلغكم إياها:الأخوة الإنسانية وتناقص الألم فإننا من حقنا أن نقول إن الخصومة بيننا مؤقتة*(....)أنتم تريدون أن يبدأ الهناء بعد الموت مباشرة و تطلبون إليه أن يحقق المستحيل ،و لا تريدون أن تتخلوا عن مزاعم الفرد وادعاءاته،أما إلهنا نحن العقل،فلن يحقق من هذه الرغبات إلا بقدر ما ستسمح به الطبيعة الخارجية،و سيتم ذلك رويدا."(3)

ومادام الدين وهم ،يعبر عن رغبات طفلية،فعلى الإنسان أن يتخلى عنه ويستبدله بالعقل الذي هو دليل الإنسان الراشد ،و بالعلم الذي يزيد من قوة الإنسان عن طريق معرفة النظام الذي تسير عليه الظواهر

1-اريك فروم ،المرجع نفسه ،ص17.

2- Sigmund Freud. Ibid. P43.

*-مصطلح الخصومة، لأن الكتاب عبارة عن حوار بين شخصين(مونولوج)

3--ibid. P46

وبالاختراعات التقنية" إننا على استعداد للتخلي عن شطر لابأس به من رغباتنا الطفلية ،ففي وسعنا أن نتحمل أن تنكشف بعض أحلامنا على أنها أوهام(....) فنحن نؤمن بأنه في مقدور العمل العلمي أن يعلمنا شيئا من واقع الكون ،و بأننا سنزيد بذلك من قوتنا و سنتمكن بالتالي من تنظيم حياتنا تنظيما أفضل."(1)

إن تأكيد "فرويد" على ثقته بالعلم الذي لا زال فتيا دليل على نزعته المادية الإلحادية ،وعلى إيمانه بالديانات الوضعية ،ورفضه للدين بالمفهوم الغيبي الميتافيزيقي(الديانات التوحيدية)

إذا كان مهندس التحليل النفسي من أصول يهودية،و تحليله النفسي للدين أثبت بأنه مجرد أوهام وخيالات صنعتها رغبات الإنسان الطفل الباحث عن الحماية،فما هي حقيقة الديانة اليهودية في نظره.؟

رابعا-فرويد والديانة اليهودية:بعدما اهتم "فرويد" في مرحلة مبكرة من حياته بشخصية موسى عليه السلام،يعود في حياته الأخيرة و يتعلق كثيرا بالبحث عن حقيقة الديانة اليهودية ،و بمؤسسها حيث يقول"إن الفتي المبكرة للتوراة(التي سبقت لحظة تعلمي فن القراءة) كان لها كما علمت متأخرا جدا تأثيرا مستمرا على وجهة اهتمامي,"(2) وقد كتب مؤلفين في هذا المجال،مقال بعنوان"موسى –مايكل-أنج"* كتبه أواخر سنة 1913 و رأس سنة1914م وقرر أن لا ينشره ،ثم تراجع ونشره في نفس السنة في مجلة ايماغو (Imago)، وهو يتحدث عن تمثال "موسى-مايكل-أنج" الموجود أمام قبر البابا Jules الثاني،يمثل موسى مؤسس الديانة اليهودية،و كتاب "موسى والتوحيد" الذي كتبه تحت تهديد القتل من قبل النازيين ،و نشر بعد وفاته.(3)

ينطلق مؤسس التحليل النفسي من البحث في أصل النبي موسى، ليكذب أصوله اليهودية، ويثبت بأنه ذو أصل مصري بحجتين :الحجة الأولى،تتعلق بالاسم ،أن كلمة موسى ذات أصل مصري تعني"طفل"و هي اختصار لبعض صيغ الكلمات منها"أمون موسى"أي أمون طفل" وهذه الأسماء في الأصل اختصار ل"أمون

1-Sigmund Freud. Ibid. P47

2-David bakan .**Sigmund Freud and the jwish mystical tradition(Library of congress.the fifth Princeton 1958 United states of America)**.p121

*- الاسم باللغة الانجليزية the Moses of:Michelangelo ،هو أشهر الأعمال النحتية للفنان الايطالي مايكل-أنجلو(1475-1516م)و قد أنجزه سنة 1516م نزولا عند رغبة البابا يوليوس الثاني،وقد قضى"فرويد" ثلاث أسابيع في عام 1913م محاولا دراسة التأثير الانفعالي للتمثال.

3-ibid. P122

أنجب طفلا"ثم حلت كلمة طفل أي موسى محل الأسماء المركبة، وبهذا يكون قد كذب ما هو وارد في التوراة في سفر الخروج ،بأن الاسم موسى أشتق من "انتشل من الماء" بعدما انتشلته أمية مصرية من مياه النيل.(1) والحجة الثانية تتعلق بقصة ميلاد موسى والهجر، إنها خرافة تتناقض مع القصة النمطية.* لأنه من المفروض أن تكون أسرة موسى الحقيقية هي الأسرة الملكية(البيت الملكي المصري) والتي تولت تربية الطفل متواضعة وغير حقيقية،بينما قصة موسى تشذ عن هذه القاعدة"و يختلف وضع موسى عظيم الاختلاف،فأولى الأسرتين هنا لاويين* يهود،وبالمقابل فان الأسرة الثانية،التي يفترض فيها أن تكون متواضعة الحال وتحتضن الطفل،تتمثل هنا في البيت الملكي المصري،والأميرة تربي الطفل كما لو كان ابنها حقا."(2)

و إذا كان موسى مصري نبيل الأصل،فان الدين الذي جاء به لليهود هو دين مصري،مع العلم أن الديانة المصرية غير توحيدية،حيث تحتوي على عدد لا حصر لها من الآلهة المتفاوتة في الأهمية والمنشأ"بعضها يجسد قوى طبيعية،كالسماء و الأرض،والشمس والقمر أو يجسد مجردات نظير معاط(العدالة الحقيقية)(...)على أن غالبية هذه الآلهة ،آلهة محلية يعود تاريخها إلى العصر الذي كانت فيه البلاد مقسمة إلى أقاليم متمايزة،و كانت تتقمص أشكالا حيوانية،و كأنها لم تتجاوز مرحلة الطوطمية التي فات زمانها"(3) ومن بين الآلهة المعبودة ،كان كبير ألهة مدينة طيبة في أوج "الامبراطوية الجديدة"يسمى"أمون-رع" و اسم "أمون" اسم "لإله المدينة ذي رأس الكبش" و"رع" هو اسم "اله الشمس ذي رأس الصقر"،و "أوزير يس" اله الأموات ورب العالم الأخر(4)

لكن الديانة اليهودية، ديانة توحيدية بخلاف للديانة المصرية،فما هي الديانة المصرية التي أعطاها موسى لليهود ،وكيف تم ذلك.؟

---

*-اللاويون اليهود:هم سلالة ليفي ابن النبي يعقوب من زوجته الأولى"ليا"

*-القصة النمطية:اعتمد على كثير من الباحثين ومن هؤلاء"أوتو رانك" الذي حدد شروط القصة النمطية وهي:أن يكون البطل سليل أسرة رفيعة المقام إلى أبعد الحدود،وهو بوجه عام ابن ملك،ميلاده مسبوق بمصاعب على سبيل المثال بفترة عقم مديد،بحكم عوائق خارجية اضطرا الوالدان إلى معاشرة سرية، وأثناء الحمل أو حتى قبله تعلن نبوءة.

1-سيغموند فرويد،مصدر سابق ،**"موسى و التوحيد"**،ص8،9..

2-المصدر نفسه، ،ص15.

3-المصدر نفسه ،ص25.

4المصدر نفسه ،ص26.

يرى فرويد"أنه في عهد السلالة الثامنة عشر وفي حوالي 1375،ق،م تسلم العرش"أمنحوتب الرابع" وهو فرعون شاب مصري ،شرع رعاياه ديانة جديدة توحيدية تتعارض مع اعتقاداتهم القديمة،تؤمن باله واحد،لكنها تطوير لإله الشمس(اله طيبة ،أمون)،حيث نبشت من الماضي تسمية جديدة لهذا الإله وهي أتون أو أتوم(1) ،غير أن أمنحوتب الرابع الذي غير اسمه إلى"اخناتون"لم يتعبد الشمس بوصفها شيئا ماديا ،"وإنما بوصفها رمز لكائن الهي تتجلى قدرته في أشعتها"و قد ساعدت الظروف السياسية مساعدة كبيرة في جعل الديانة المصرية ديانة توحيدية ،حيث أصبحت مصر قوة عالمية،حيث أصبحت تضم سورية وجزء من بلاد الرافدين،وتجلت هذه النزعة التوحيدية،في الدين، في شكل نزعة توحيدية شمولية،وكان هذا منذ عهد "امنوحتب الثالث""فقد بات من المحتم ألا يبقى الإله مجرد اله قومي. وما دام فرعون قد أصبح السيد الأوحد،اللامحدود السلطات ،على كل عالم المصريين المعروف،فقد بات من المحتم أن يغدو إلههم الجديد إلها قويا و واحدا هو الأخر."(2)

وقد حرم اخناتون التشكيل الحسي للإله الشمسي"أتون" لأنه كان يرى بأن الإله لا شكل له،و استبعد كل الخرافات وشعائر السحر والشعوذة،غير أن حكم العاهل لم يدم طويلا وسقط بعد 17 سنة وبعد وفاته ودمرت المدينة التي كان قد أسسها على سافلة النهر مدينة"أخيتاتون"أي"أفق أتون" والتي تدعى اليوم تل العمارنة، وعادات الأديان المصرية القديمة مكانتها.(3)

إذن الديانة المصرية التي منحها موسى لليهود هي ديانة اخناتون-ديانة أتون، لأن الديانة اليهودية متطابقة مبدئيا مع ديانة أتون،و الأدلة على تطابقهما هي أن كلمة"أتون" متضمنة في قانون الإيمان الإسرائيلي وهو: « Sehema Jusroel Adonai Elohenu Adonai ECHOD » وإذا لم يكن من قبيل المصادفة فان "أتون" المصري يذكر باللفظة العبرية Adonai و بالاسم الإلهي المصري"أدو نيس"و يمكن ترجمة العبارة اليهودية كالتالي:"أصغي يا إسرائيل إن إلهنا أتون هو الإله الأوحد." وهذا يعني أنهما يشتركان في التوحيد،مع

1-سيغموند فرويد،المصدر نفسه ،ص28.27.

2—المصدر نفسه، ،ص29..

3—المصدر نفسه ،ص،32،31 .

العلم أن التوحيد اليهودي أشد صرامة من التوحيد المصري،لأن الديانة اليهودية رفضت نهائيا عبادة الشمس،و كلاهما يجهلان العالم الأخر والحياة بعد الموت، ،وهذا يدل على أنها اقتبست النفي للآخرة من ديانة اخناتون في نضاله ضد الدين الشعبي الذي يمثله "أوزير يس" اله الأموات،كما أسس موسى عادة الختان التي آخذها من مصر،وهذه كلها حجج تثبت توافق الديانتين اليهودية ،وتؤكد أطروحة "فرويد".(1)

ويفترض مهندس التحليل النفسي تفسير لذلك،حيث يرى أنه ربما كان موسى ينتمي إلى عائلة نبيلة،وكانت له مكانة عالية، و ربما كان من أعضاء الأسرة المالكة،له طموح عظيم،يحلم بأن يصبح قائدا لشعب أو رب الإمبراطورية،و لما كان من المقربين لفرعون،فانه كان يجاهر بمناصرة العقيدة الجديدة التي أتى بها ،بعدما استوعب أفكارها(ديانة اخناتون) ومع وفاة العاهل انهارت كل أماله،فاهتدى إلى حيلة غريبة وتخيل مخططا لتأسيس إمبراطورية جديدة يمنحها الديانة التي ازدرتها مصر،يعوض بها الضرر الذي لحق باخناتون ،و بمكانته،و ربما كان يومها حاكما على الإقليم الواقع على حدود أرض جاسان الذي استقرت فيه بعض القبائل السامية،فاتصل بهذه القبائل وتزعمها،و نظم هجرتها،بيد من حديد،وإذا صحت هذه الفرضية فان الخروج حدث ما بين 1358 و1350 ق،م*(2)

و يرى أنه حتى لو افترضنا بأن موسى لم يكن معاصرا لاخناتون فان ديانة أتون لم تنته مع اخناتون بل استمرت فترة طويلة في تدريس الأجيال وتعليمها، وفي أرجح الظن أن موسى كان من أتباع هذه المدرسة،وفي هذه الحالة يكون الخروج في القرن الثاني عشر قبل الميلاد"فمدرسة كهنة أتون،التي انطلق منها التوحيد،لم تتلاشى مع النكبة،و أرجح الظن أنها استمرت في تدريس الأجيال وتعليمها بعد وفاة اخناتون بفترة طويلة.وحتى على فرض أن موسى لم يكن معاصرا لاخناتون،وحتى على افترض أن النبي لم يتعرض لتأثير هذا الملك

1- سيغموند فرويد،المصدر نفسه"**موسى و التوحيد**" ،ص34،35.

*-أي قبل قرن تقريبا من السلالة 19، مثلما يفترض اغلب المؤرخين بأنه حدث في عهدها .

1-المصدر نفسه ،ص ص،37-39.

الشخصي،فلا شيء يحمل على الاعتقاد بأنه ربما كان من أتباع مدرسة أتون أو حتى من أعضائها."(1)

ويستند "فرويد" إلى أبحاث"ا،سيلن" في كتابه"موسى و أهميته في تاريخ الدين الإسرائيلي اليهودي" الذي عثر على الآثار الأكيدة تثبت بأن موسى لقي نهاية مفجعة أثناء تمرد قام به شعبه العنيد والمشاكس،وتم هجر الديانة التي أسسها والنكوص عنها،و اغتياله كان في منطقة شظيم في المنطقة الشرقية من الأردن.(2)

إن موسى الذي تتلمذ على مدرسة اخناتون استخدم نفس طرق العاهل وفرض ديانته على شعبه بالقوة ،بل وربما كان أكثر تشددا منه،فلقي نفس المصير الذي لاقاه اخناتون،وقصة الارتحال البرية تثبت سلسلة من أفعال التمرد الخطيرة منها قصة العجل الذهبي*" وقد واجه موسى نفس مصير اخناتون،المصير المقدر على المستبدين المجددين قاطبة.فقد كان يهود موسى مثلهم مثل مصريي السلالة الثامنة عشر،غير مهيئين لاعتناق ديانة رفيعة في روحانيتها."(3)

غير أن المؤرخين يرون بأن اليهود العائدين من مصر انصهروا مع قبائل أخرى تقطن البلاد الواقعة بين فلسطين و شبه جزيرة سيناء وشبه الجزيرة العربية،وفي منطقة خصيبة تسمى "قادش" اعتنقوا وتحت تأثير المديانيين العرب ديانة جديدة هي عبادة اله البراكين يهوه " وبعبارة أخرى أن القبيلة العائدة من مصر،انضمت،في المنطقة الواقعة بين مصر وكنعان،إلى قبائل أخرى نسبية كانت استقرت فيها منذ أمد بعيد.هذا الانصهار ،الذي انبثق عنه شعب إسرائيل تجلى في اعتناق ديانة جديدة تدين بها القبائل جميعا،ديانة يهوه،ويقدر"ا،ماير" أن هذا الحدث تم في قادش تحت تأثير المديانيين."(4)

---

1 –سيغموند فرويد،المصدر نفسه،ص42.

2- المصدر نفسه ،ص 49.

*- قصة العجل الذهبي:بالاستناد إلى التوراة،سفر الخروج،الإصحاح الثاني:" ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل،اجتمع الشعب على هارون وقالوا له أصنع لنا آلهة تسير أمامنا ،فقال لهم هارون:أنزعوا أقراط الذهب التي في أذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها(...) فأخذا ذلك(...) وصنع عجلا مسبوكا، فقالوا هذه ألهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر، فقال الرب لموسى أنزل لأنه قد فسد شعبك الذي أصعدته من أرض مصر، فانصرف موسى ونزل من الجبل...." من كتاب "موسى والتوحيد"، هامش الصفحة 65.

3-المصـــدر نفســـه ،ص64،65.

4-المصدر نفسه ،ص50.

إن الدين الموسوي لم ينته بموت موسى بل بقي مستمرا،في شكل مأثور(مرحلة كمون)،وفي أرجح الظن عن طريق بطانة موسى وهم اللاويون* الناجون من النكبة التي نزلت على نبيهم وديانته ،فاستمروا على وفائهم لقائدهم و أكرموا ذكراه وحافظوا على تراثه الديني" و يمكننا الافتراض بأن عددا كبيرا من بطانة موسى، هؤلاء قد أمكن لهم النجاة من النكبة التي نزلت بالنبي و بالديانة التي أسسها.وقد تكاثر هؤلاء الناجون و تضاعفوا في الأجيال التالية.وقد لبثوا على وفائهم لقائدهم،و أكرموا ذكراه ،و حافظوا على ميراث مذاهبه."(1)

لكن كيف عادت الديانة الموسوية من جديد إلى الظهور.؟

لقد عادت فكرة التوحيد التي ولدت مع اخناتون من جديد،فتحول الإله"يهوه" من اله خاص إلى اله واحد كلي هو اله موسى القديم وتأسست الديانة اليهودية وتطورت تدريجيا نحو الروحانية وهكذا يكون التوحيد اليهودي مستمد من التوحيد المصري"لقد سبق لي أن قلت- ورأيي يتفق في هذه النقطة مع رأي مؤلفين آخرين-أن ثمة واقعة مركزية تلاحظ في التطور الديني اليهودي:فالإله يهوه فقد في نهاية المطاف طابعه الخاص ليضارع أكثر فأكثر اله موسى القديم، أتون."(2)

و في إطار تطبيق منهج التحليل النفسي على المجتمعات ،يطبق"فرويد" حالات العصاب الفردية على تاريخ النوع البشري،فيما يتعلق بالظاهرة الدينية،بعدما توصل في أبحاثه السابقة في كتبه "الطوطم والحرام" و "مستقبل وهم" "وقلق الحضارة" إلى أنه عصاب تشكو منه البشرية"حين تقودنا أبحاثنا إلى الاستنتاج بأن الدين ما هو إلا عصاب تشكو منه الإنسانية،و حين تبين لنا بأن قوته الهائلة تجد تفسيرها على نفس النحو الذي نفسر به الوسواس العصابي لدى مرضانا....."(3)يرى بأن الظاهرة الدينية تمر بنفس مراحل العصاب:الظهور في مرحلة مبكرة(قبل خمسة سنوات) ثم تمر بمرحلة كمون،ثم إعادة الظهور بعد البلوغ،فديانة اخناتون التوحيدية التي ظهرت مع القوة العالمية لإمبراطورية الفراعنة،مرت بمرحلة كمون طويلة،أجتثث من تربتها ،ونقلت إلى شعب

1-سيغموند فرويد،المصدر نفسه "**موسى والتوحيد**"ص52.

2-المصدر نفسه ،ص.90.

3-المصدر نفسه ،ص78،79.

أخر هو الشعب اليهودي وصانها و حافظ عليها و كأنه أعز ما يملك،و أتاحت له أن يبقى ويستمر في الحياة و منحته الاعتزاز بالنفس والفخر والكبرياء،والرقي في أعلى مراتب الروحانية" ولو ارتضينا بأن نسلم ولو للحظة واحدة بأن القوة العالمية لإمبراطورية الفراعنة هي العلة الكامنة وراء ظهور الفكرة التوحيدية ،لاتضح لنا أن هذه الفكرة التي أجتثث من تربتها ونقلت إلى شعب أخر ،قد تم تبنيها من قبل هذا الشعب عينه بعد فترة كمون طويلة ،فصانها وحافظ عليها و كأنها أثمن ما يملك إطلاقا،في حين أنها أتاحت له بالمقابل أن يبقى ويستمر في على قيد الحياة إذ أفعمته كبرياء واعتزازا لاعتقاده بأنه شعب مختار."(1)

وهكذا نلمس نظرية التطور الداروينية في التحليل الفر ويدي لكيفية نشوء الديانات ،إن ديانة اخناتون هي ديانة الأب البدائي،و هي تمثل تقدم مرموق في تاريخ البشرية لأنها بمثابة إعادة الحقوق التاريخية إلى الأب البدائي،والتمرد الذي حدث لاخناتون هو تكرار لتمرد أبناء العشيرة البدائية على الأب،و اغتيال موسى من طرف شعبه هو تكرار للجريمة البدائية أو الخطيئة الأولى،و هو بمثابة ذكرى أو حادثة منسية وعادت إلى الظهور من جديد"و حين قتل اليهود رجلهم العظيم،كانوا يكررون في الحقيقة جريمة كانت،في الأزمنة البدائية موجهة ضد الملك الإلهي ."(2)

و تنفيذ حكم الموت على موسى كان انطلاقة جديدة لديانة جديدة هي المسيحية، المسيح يسوع، والندم على قتله هو الذي ولد استيهام التوقي إلى مسيح منتظر،فتكون صورة موسى هي مثال للمسيح ، بعث من جديد "و إذا كان موسى هو حقا و فعلا ذلك المسيح المنتظر،فان يسوع يصبح في هذا الحال بديله وخلفه.ولهذا أمكن لبولس،بحق،أن يهتف مخاطبا الشعب:"أنظروا،هو ذا المسيح المنتظر قد جاء حقلا وفعلا.أفلم يقتل على مرأى منكم.؟". وبذلك يضفي على بعث المسيح شيء من الحقيقة التاريخية،لأن المسيح كان حقا موسى المبعوث."(3)

وهكذا يفسر "فرويد" جميع الديانات التوحيدية وفق مخطط واحد ،بداية من الديانة الطوطمية،التي نشأت

1-سيغموند فرويد،المصدر نفسه ،ص119

2- المصدر نفسه ،ص152،153.

3-المصدر نفسه ،ص125.

بمقتل الأب البدائي،والذي يمثل الله ،إلى ديانة اخناتون المصرية،التي أعادت إلى الظهور في الديانة اليهودية مع موسى،ثم تجلت بطريقة أخرى بعد مقتل موسى،فتحول الإله"يهوه" اله البراكين اله واحد و تأسست الأمة اليهودية،و عادت صورة موسى في المسيح عيسى،مؤسس الديانة المسيحية،و ديانة محمد تكرار مختصر للديانة اليهودية" وقد استعاد العرب،باستعادتهم للأب البدائي الأكبر و الأوحد،وعيا طاغيا بذواتهم أتاح لهم اجتراح *نجاحات* مادية كبيرة."(1)وهي إسقاطات للعلاقة بين الأب والابن،فالله ليس قوة غيبية واحدة تتصف بالكمال والقدرة والعلم والحياة وغيرها من الصفات التي تلازم الله عند المؤمن بالديانات التوحيدية وخاصة الإسلام، بل هو أب قوي شجاع باسل و صارم ،وفي نفس الوقت عطوف وحنون،وهو تكرار لصورة وشخصية الأب البدائي"بيد أن ذلك الأب البدائي،طبقا لاستنتاجات ليس ثمة ما يوجب علي أن أعيد عرضها هنا،بعيم الله،النموذج الذي احتذ ته الأجيال اللاحقة في تشكيلها للوجه الإلهي."(2)

و أخيرا ،نستنتج ،أن نشأة الأخلاق والدين تعود إلى "عقدة أوديب" الكبرى في القبيلة البدائية،التي فجرت الصراع بين الإخوة، انتهت بجريمة قتل الأب المستبد،وبذلك يكون الليبيدو هو الذي ولد الشعور بالذنب، الذي أنجب بدوره المجتمع والدين و الأخلاق، فتكون الأخلاق ذات مصدر إنساني عاطفي سيكولوجي،ولا تعود إلى مصدر متعالي أو قوة غيبية ميتافيزيقية ،نشأت من الدوافع الجنسية وتتغذى بها، و تشكل جزءا من البينية النفسية للإنسان وهي "الأنا الأعلى" ،فهي ذات طبيعة نسبية متغيرة ،و الشكل البدائي للدين يتجلى في الطوطمية، والعلاقة بين الدين و الأخلاق هي علاقة نسب ، والديانات التوحيدية كلها تسير وفق خط واحد، وهي استمرارا للديانة الطوطمية التي نشأت بمقتل الأب البدائي ،الديانة اليهودية ،هي ديانة "اخناتون" ،و هي استمرار لديانة الأب البدائي، والمسيح ما هو إلا موسى أعاد الظهور،و نفس الأمر بالنسبة إلى ديانة "محمد" عليه السلام،هي استمرارا للديانة اليهودية.

إن الدين مجرد حالة نفسية لقضية وهمية تعود إلى أثار الطفولة ترتبط بعقدة أوديب،تكرار لتجربة الطفولة يتولد من الحاجة إلى الحماية،صنعه الإنسان لحماية نفسه(على المستوى النفسي) من أخطار الطبيعة و

1-سيغموند فرويد،"**موسى والتوحيد**"المصدر نفسه ،ص129.

2--Sigmund Freud. Ibid. P 38

من الأضرار الناجمة من المجتمع.و عليه يتم العزوف عنه مستقبلا، ويعوض بالعقل والعلم.

بناءا على ما سبق يكون الفكر الفرويدي ،فكر الحادي يرفض الدين الميتافيزيقي،و يؤمن بالدين الوضعي،الذي يصنعه الأبطال.

الفصل الثاني

القيم الجمالية/مصدر الإبداع الفني و طبيعة الذوق الجمالي

سنحاول في هذا الفصل أن نستكشف حقيقة الإبداع الفني عند "سيغموند فرويد"،عن طريق البحث عن مصدره ،و آليات أو ميكانيزمات العملية الإبداعية وعلتها، ثم نتعرض إلى بعض نماذج من تطبيقات التحليل النفسي على الشخصيات الفنية ،أولها :الفنان الايطالي ،ليوناردو دافنشي "Leonardo de Vinci *"وثانيها: " Fiodor Dostoïevski "* دوستويفسكي الأديب الروسي، من خلال رواية "الإخوة كارامازوف"، ثم نبين دور كل من الأحلام واللعب و النكتة في الإبداع الفني،و في دور الأحلام نتعرض إلى تطبيق قواعد الأحلام التي وضعها "فرويد"في كتابه "تفسير الأحلام" ، في تحليله لأحلام و استيهامات،و هذيانات رواية "غراديفا*،حيث "Gra diffaنتعرف على تفسير عملية الإبداع الفني بالذات ،و على الكيفية التي بنى عليها الروائي روايته،فالروائي في هذه الرواية يقوم بمعالجة موضوع طبنفساني،دون أن يفقد الطابع الجمالي لروايته،ثم نستنتج طبيعة الذوق الجمالي عند "فرويد".

المبحث الأول:الأسس النفسية للفن/الفن والكبت الجنسي

إن الحديث عن الجمالية الفرويدية يقودنا إلى البحث عن إجابة لثلاثة تساؤلات جوهرية تتمثل فيما يلي:

أولها: ما مصدر الإبداع الفني.؟ أو من أين يأتي الفنان بهذه الصور والمعاني الجمالية التي تتضمنها أعماله.؟

ثانيها: لماذا يبدع الفنان.؟ أو ما هي علة الإبداع الفني.؟

ثالثها:كيف تتم عملية الإبداع الفني.؟(1)

---

*-ليوناردو دافنشي(1452-1519م):أحد عباقرة البشرية،شخصية موسوعية،حيث كان رساما و مهندسا و عالم نبات،عالم خرائط،جيولوجيا وموسيقيا و نحاتا و معماريا،ايطاليا مشهورا،أشتهر كثيرا بلوحاته الفنية،خاصة لموناليزا،و العذراء و الطفل الصغير،و الاسم الأصلي هو:

.Leonardo di ser Piero da Vinci

*-فيودر ميخائيلوفيتش دوستويفسكي(1821-1881م):من أفضل الأدباء الروس،له شهرة عالمية واسعة ،من أهم مؤلفاته:الجريمة والعقاب،الإخوة كارامازوف،الأبله والشياطين والمراهق.

*-غراديفا:اسم مشتق من نعت اله الحرب السائر إلى المعركة مارس غراديفوس.

-د/علي عبد المعطى محمد،و،د/راوية عبد المنعم عباس،**الحس الجمالي و تاريخ التذوق الفني عبر العصور**(دار المعرفة الجامعية،الإسكندرية ،الطبعة 2003) ،ص 293.

إن الإجابة عن هذه الأسئلة تتضمنها العناصر التالية:

أولا-اللاشعور منبع الإبداع الفني: رغم أن "فرويد" يقرر بأن طبيعة الإبداع الفني ليست في متناول التحليل النفسي وذلك في كتابه عن "ليوناردو دافنشي" ، فالتحليل النفسي في نظره لا يستطيع أن يطلعنا على حقيقة الإبداع الفني و إنما على مظاهره فقط،حيث يقول"حتى إن لم يلقى التحليل النفسي ضوءا على حقيقة ليوناردو الفنية ،فقد جعل مظاهرها و حدودها مفهومة لدينا."(1)

إلا أن هذا النص الصريح ما هو إلا اعتراف بالتواضع أو تظاهر بالتواضع على الأقل،لأن الاهتمام بطبيعة الإبداع الفني كان ضمن حقل اهتمامات مؤسس التحليل النفسي.(2)

إن العلة الأولى للإبداع الفني أو مصدره هو اللاشعور وهو مكتسب في مرحلة الطفولة نتيجة لما يتعرض له الفرد من صدمات انفعالية يضطر إلى كبتها أو قمعها،و هو يتدخل في توجيه سلوكاتنا وجهة خاصة،حتى و إن حاول الفرد شعوريا ألا تتجه أفعاله هذه الوجهة،فان هذه المقاومة التي يبديها أحيانا تعود إلى دوافع لاشعورية.(3) يرى فرويد أن شخصية الإنسان مسرح جيولوجي لثلاث قوى أو طبقات :الهو le ca و الأنا الأعلى le Super-moi ،و الأنا le moi و لكل منها وظيفة خاصة واضحة محددة المعالم فوظيفة الهو الذي يمثل المنطقة اللاشعورية المظلمة التي تتألف من جملة الدوافع الجنسية والعدوانية ،النزوع إلى المحرم،فهو يمثل رغبات تريد أن تتحقق،ووظيفة الأنا الأعلى هي الضغط أو الكبت أي رفض الرغبات التي تتعارض مع المنظومة القيمية السائدة في المجتمع و الأنا يعيش توتر دائم نتيجة الضغط المستمر من الأنا الأعلى والهو وهكذا يكون الصراع دائم بين هذه القوى،ووسائل الصراع أطلق عليها "فرويد" اسم الآليات،من بينها القمع* Surpression الكبت*

1-سيغموند فرويد،**ليوناردو دافنشي،دراسة تحليلية**،تر/ الدكتور أحمد عكاشة(المكتبة لأنجلو المصرية،القاهرة ،عدم وجود رقم الطبعة 1970) ،ص.133

2- د/على عبد المعطى محمد،و د/ راوية عبد المنعم عباس،نفس المرجع ،ص.،288.

3-مصطفى سويف،**الأسس النفسية للإبداع الفني،في الشعر خاصة**(دار المعارف،القاهرة،الطبعة الرابعة 1981م) ،ص 81

*-القمع:هو كبت إرادي يحصل عندما يدفع الوعي الأفكار و الأحاسيس والذكريات و أحلام اليقظة غير المرغوب فيها خارج دائرة الوعي.

*-الكبت:هو آلية نفسية يبعد بها الفرد الأفكار المؤلمة إلى حيز اللاشعور،منع أو إعاقة تفريغ الطاقة(Energy dis charge)أو هو العملية التي يتم من خلالها إبعاد الخبرات الواقعية والانفعالية والعقلية المحرمة أخلاقيا من ساحة الشعور ووضعها في منطقة اللاشعور،وذلك لأن ظهورها على ساحة الشعور =

Répression والقلب* Conversion(1)

وتبقى آليات أخرى، نوضحها في الإجابة عن التساؤلات التالية:كيف تتم عملية الإبداع.؟ وما هي علتها.؟ وهل المبدع يمثل شخصية سوية أم مرضية.؟

ثانيا-عقدة أوديب والمرض النفسي والتسامي:يرى "فرويد" أن الفنان شخص مريض نفسيا أو عصابي و أعماله الفنية ليست سوى وسائل للتنفيس عن رغباته الجنسية المكبوتة ،بمعنى علة الإبداع الفني هو ضغط مركب أوديب أو الرغبات الشبقية على الحياة النفسية لدى الفنان تحت ضغط الواقع الخارجي ومحاولة الفنان أن يجد الفن وسيلة لإشباع الخيال لبعض حاجاته،وفي نفس الوقت الإشباع الذي يسعى إليه الفنان يحدث راحة ومتعة للمتذوقين الذين يجدون فيه إشباع لرغباتهم اللاشعورية المكبوتة .(2) فالفن وسيلة لتحقيق الرغبات الجنسية المكبوتة في الخيال تلك الرغبات التي لم تتحقق في الواقع ،إما لعوائق طبيعية أو لعوائق أخلاقية ،فهو تعبير عن استمرارية الحياة والحفاظ عليها،والفنان يبتعد عن الواقع لأنه لا يستطيع أن يتخلى عن إشباع غرائزه الطبيعية،التي تتطلب الإشباع ،وبذلك يترك الفرصة للرغبات الشبقية أن تلعب دورا كبيرا في عملية التخيل.(3) "فالرغبات غير المرضية هي المحرضات المثيرة للخيال،وكل خيال هو تحقيق الرغبة،تصويب للواقع غير المرض." ولهذا يفترض "فرويد" بأنه في أساس كل إبداع فني رغبات غير مرضية،وفي الغالب هي رغبات نخجل منها ونخفيها عن أنفسنا وتطرد إلى حيز اللاشعور.(4)

وقد استنتج "فرويد"من تطبيقاته لمعطيات التحليل النفسي على بعض الشخصيات الفنية أن الفنان يعاني من

=يستثير انفعالات القلق والضيق والشعور بالتهديد،وتزايدها قد يؤدي إلى أمراض نفسية.

*-القلب:هو الآلية التي ينحل بها الصراع إلى صورة مقبولة شخصيا كمنفذ للطاقة المحتبسة،و لا يشترط أن يكون الناتج ذا قيمة اجتماعية رفيعة.

1- د/على عبد المعطى محمد، ود/راوية عبد المنعم عباس ،نفس المرجع ، ص.،288

2-د/راوية عبد المنعم **الحس الجمالي وتاريخ الفن(دراسة في القيم الجمالية والفنية)** (دار النهضة العربية للطباعة والنشر الطبعة الأولى1988)، ص363

3 – د/ شاكر عبد الحميد ،**التفضيل الجمالي و سيكولوجية التذوق الفني(** سلسلة عالم المعرفة ،المجلس الوطني للثقافة والفنون و الآداب الكويت سنة 1978م،عدم وجود رقم الطبعة.) ص.135

4--ل س،فيغو سكي ،**السيكولوجيا وعلم الجمال**،تر، د/أحمد محمد خنسة (دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة،دمشق سوريا ،الطبعة الأولى سنة2000م) ،ص79 .

عصاب الوسواس القهري "وهو مرض نفسي يتميز بظهور أفكار أو الإتيان بحركات أو اندفاعات أو مخاوف مستمرة متكررة،يعلم المريض تماما عدم صحتها وتفاهتها ،وبالرغم من المقاومة الشديدة لهذه الوساوس فإنها تسيطر عليه بطريقة قهرية،وتأخذ أعراض المرض مظاهر مختلفة من غسل اليدين مئات المرات يوميا أو أن يحصي عدد الأعمدة أثناء سيره أو طقوس خاصة يقوم بها قبل الخروج من داره أو تراوده فكرة تتكرر معظم الوقت."(1)

وهذا لا يعني أن الفنان يمثل شخصية مرضية تستدعي إبعاده عن المجتمع، لأننا لا نستطيع أن نضع معيارا فاصلا بين الصحة والمرض أو السوي والعصابي،فالأعراض العصابية ما هي إلا تعبير عن نقص عام أو كبت يمر به الفرد خلال نموه في مرحلة الطفولة"فهذه الأعراض ما هي إلا بديلة لعمليات كبت حتم علينا المرور بها خلال دور التطور من مرحلة الطفولة إلى الإنسان المتحضر." (2) يدل هذا على أن هناك علاقة سببية بين عصاب الفنان وقدرته على الإبداع،وهي ترتبط بفكرة قديمة مفادها أن الحصول على المقدرة لا يكون إلا بالمعاناة،والعصاب بدوره مرتبط بعقدة أوديب(نواة الأعصبة)وهذه الأخيرة ناتجة من قمع الدوافع الجنسية،كما يوحي كلام "فرويد" بأن قدرة استخدام الفنان لعصابيته ليست عملا عصابيا بل عمله يوحي بالصحة فالفنان يجنح بمخيلته ويجعل لها شكلا و أصلا اجتماعيا.فالفنان يختلف عن العصابي من حيث أنه قادرا على أن يجد مخرجا من عالم الخيال ثم يعود ليخدم الواقع.(3)

ترتكز نظرية التحليل النفسي على نظرية الدوافع أو الغرائز التي في أساسها جنسية أو ليبيدية ،وبالخصوص على مفهوم الشبق ،وهو الجوع الجنسي،أو الرغبة الجنسية،و مفهومه أوسع عند "فرويد" فهو لا يقتصر على التناسل،و لا يرتبط بالضرورة بالأعضاء التناسلية،بل بمناطق مختلفة من الجسم"فالجنسية لديه ليست مرادفة للتناسل بل دليل على الحياة النفسية الحضارية للإنسان والشخص كوحدة في المجتمع الإنساني."(4)

1-سيغموند فرويد،المصدر نفسه ،مقدمة الكتاب،ص12

2- نفس المصدر ،ص125

3-د،عز الدين إسماعيل،**التفسير النفسي للأدب**،(الطبعة الرابعة،دار غريب للطباعة القاهرة ،عدم وجود سنة الطبع)،ص.21

4- سيغموند فرويد المصدر نفسه ، المقدمة،ص11.

وخلال مراحل تطور الإنسان السوي أو الشاذ يحدث قمع لهذه الرغبة الشبقية اللاواعية أو كبتها أو خضوعها للتحول عن أهدافها الأصلية،أي تنصرف كميات مختلفة من الطاقة الليبيدية إلى نشاطات لا جنسية،لكي يستطيع الإنسان أن يعيش حياة اجتماعية، وهذا ما يسمى **بالتسامي أو التصعيد أو الإعلاء*** Sublimation الذي تحدثنا عنه في الفصل السابق، فالدوافع غير المقبولة اجتماعيا والتي يكبتها الفرد يمكنها أن تتحول في شروط معينة إلى نشاطات إنتاجية فنية أو علمية. ،فالتسامي هو تعديل أو تحويل أو إعلاء للدوافع الجنسية والعدوانية إلى نشاط إبداعي فني أو فكري مثل الرسم، النحت،كتابة القصص ،الملاحم ،المسرحيات ،الاختراعات ،مزاولة الرياضة،الطب، و يمكن للدوافع الجنسية المكبوتة أن تكون غير قابلة للتسامي فتتحول إلى شذوذ جنسي أو مرضي,(1)

انه تحويل أو تغيير للدوافع الجزئية (أي قبل التناسلية) من حيث الموضوع والهدف(التفريغ) فيتحقق الإشباع للفرد بأعمال غير جنسية،فكرية وفنية وعلمية،لها قيمة أخلاقية واجتماعية ، "و يبدو أن القدر الأكثر اتصافا بالدلالة لدافع من الدوافع هو"التصعيد".فالموضوع والهدف تحولا فيه تحولا بحيث أن الدافع الجنسي يتلقى إشباعه في عمل لم تضف عليه الجنسية(أي الليبيدو المكفوف)،عمل ذي قيمة اجتماعية أو أخلاقية أكثر رفعة."(2) ومنه نصل إلى الإجابة عن السؤال الذي طرحناه و هو :كيف تتم عملية الإبداع الفني.؟ تتم عن طريق **التسامي أو التصعيد** وهو تحويل الليبيدو إلى طاقة روحية ،و هذا يعني أن الغريزة الجنسية هي المنبع الخفي للإبداع الفني.

و هكذا ،يرفض "فرويد" الاعتقاد الذي يزعم بأن في الإنسان ميلا للكمال،يشهد ذلك المستوى الفكري

---

*-التسامي: يشير مصطلح التسامي إلى "السمو"الذي يستخدم في مجال الفنون الجميلة للدلالة على الانتاجات الفنية التي توحي بالعظمة ،وفي علم الكيمياء للدلالة على عملية التحول المباشر للأجسام من الحالة الصلبة إلى الحالة الغازية.

1-،سيغموند ،فرويد،المصدر نفسه ،"**ليوناردو دافنشي،دراسة تحليلية** "،المقدمة،ص14.

2-أنزنو فرويد،أبراهام ماري بونابرت ،ت وجيه أسعد، **التصعيد دروب الإبداع** (منشورات وزارة الثقافة السورية ،دمشق طبعة،عدم وجود رقم الطبعة 1966)،ص 33،أخذه المؤلف من مقال كتبه "فرويد"إلى إحدى الموسوعات عن "نظرية الليبيدو"سنة 1922.

والسمو الأخلاقي الراهن الذي توصل إليه،حيث تحول تدريجيا إلى إنسان سامي ،ويرى أن تطور الإنسان ما هو إلا تطور للحيوانات ،والميل نحو الكمال وكل منتجات الثقافة الإنسانية هي نتيجة لقمع الغرائز،والتسامي هو المسؤول عن كل الانجازات الحضارية التي قام بها الإنسان"ينقاد الكثيرون منا بصعوبة إلى التخلي عن الاعتقاد بان ثمة ميلا ملازما للإنسان، إلى الكمال يدين إليه بالمستوى الراهن لقدراته الفكرية وسموه الأخلاقي،ميلا لنا الحق في أن نتوقع منه التحول التدريجي للإنسان الراهن إلى إنسان سام .و علي أن اعترف أنني لا اعتقد بوجود مثل هذا الميل الداخلي و لا أرى أي سبب يدعو إلى مراعاة هذا الوهم الناجع. وفي رأيي أن تطور الإنسان،كما تم حتى الوقت الراهن، لا يتطلب تفسيرا سوى تفسير لتطور الحيوانات،وإذا بدا أن ثمة لدى أقلية من الموجودات الإنسانية ميلا لا يقاوم يدفعها إلى مستويات من الكمال متعاظمة،فان هذا الواقع يفسر على نحو طبيعي جدا من حيث أنه عاقبة هذا القمع، قمع الغرائز."(1)

و لتوضيح ما تم ذكره من الواجب علينا أن نتجه إلى البحث والتعمق والتحري في تطبيقات نظرية التحليل النفسي الفرويدية على الشخصيات الفنية:

ثالثا- تطبيقات التحليل النفسي على الشخصيات الفنية و الأعمال الأدبية:

أ- ليوناردو دافنشي: لقد اعتمد"فرويد" في تحليله لشخصية الفنان"ليوناردو دافنشي" على المنهج التجريبي على الأقل من الناحية الشكلية،حيث يتفحص الوثائق و يستنتج منها أراء ،موجها بمذهبه العام الذي يقوم على البحث عن الأسباب اللاشعورية للسلوك والتي هي دوافع ليبيدية ظهرت في مرحلة الطفولة ولم تسمح المنظومة القيمية بإشباعها فكبتت في اللاشعور، يخيل للفرد بأنها نسيت نسيانا تاما لكنها في الواقع بقيت تعمل بطريقة لا واعية ،توجه و تتحكم في سلوكات الفرد خلال كل مراحل حياته،بمعنى بحث"فرويد" ينصب على العلل البعيدة للسلوك في الماضي خلال الطفولة المبكرة، وهي النقطة التي حددت له نوع الوثائق التي يعتمدها في بحثه، وهي:

أولا: مذكرات شخصية لليوناردو دافنشي ترتبط بأحداث حياته و أهمها الذكرى التي تحدث عنها عن طفولته المبكرة.

1—أنزنو فرويد أبراهام ،مايري بونابرت ،المرجع نفسه،ص 53.

ثانيا:كتاباته عن قضايا غير شخصية منها رسالته في مقارنته بين فن التصوير وفن النحت و رثاؤه لحال النحاتين،و ما كتبه عن العلاقة بين الحب والمعرفة.

ثالثا:وثائق تاريخية كتبت عنه تبين أحداث حياته منها اتهامه بعقد علاقات جنسية مع بعض الشباب،وحديث بعض المؤرخين ،على أنه كان يحيط نفسه بتلاميذ يمتازون بالجمال أكثر مما يمتازون بالنبوغ، وحديثهم عن تلميذه"فرانسيسكو مليشي"الذي ظل يلازمه إلى غاية وفاته.

رابعا:ملاحظات سلبية وهي أن ليوناردو في أغلب الأحيان لم يكمل لوحاته،ولم يتزوج ولم يكون أي علاقة عاطفية ناضجة مع امرأة .

خامسا:لواحاته التي رسمها وخاصة لموناليزا ويوحنا المعمدان والقديسة أن.(1)

إن ما يلاحظ على شخصية "ليوناردو" هو شغفه الكبير بالمعرفة ،دفعه إلى الاطلاع على ضروب مختلفة من المعرفة،انطلق من موضوعات التصوير كالحيوانات والنباتات ومقاييس جسم الإنسان الخارجية والتشريح الداخلي ووظائف الأعضاء إلى أن رمت به غريزة المعرفة خارج مجال التصوير،إلى مجال المعرفة العلمية،وذلك في جميع فروع العلوم الطبيعية ،حيث اكتشف قوانين الميكانيكا،(2)و استنتج قانونين من القوانين الثلاثة التي تنظم الحركة قبل غاليلي ونيوتن، وعرف قانون الدافعة الذي قال به "أرخميدس"و اقتحم مجال الهندسة المعمارية فصمم المدن ،ودخل مجال الهندسة العسكرية،بتصميماته لبعض الآلات الحربية ،والغواصات عندما عمل مهندسا عسكريا في خدمة "سيزار يورجيا" سنة 1502م(3)

تفسير تطور هذه الغريزة إلى قوة خارقة للمعرفة بالاستناد إلى الدراسات التحليلية،ينتهي إلى فرضين: أولهما:نشاط غريزة حب الاطلاع بقوة منذ الطفولة. وثانيهما:ارتباط هذه الغريزة بقوة بالغريزة الجنسية،بمعنى غريزة حب الاطلاع تكون في خدمة التأثير الجنسي أو ولع الطفل بالاطلاع على كل ما يتعلق بالغريزة الجنسية،لهذا فان هذا الشخص يكرس نفسه للبحث بنفس القوة التي يكرسها غيره للدوافع الجنسية،و

1-مصطفى سويف، نفس المرجع، **"الأسس النفسية للإبداع الفني،في الشعر خاصة"** ،ص77،78.

2-سيغموند فرويد ،المصدر نفسه ،**"ليوناردو دافنشي،دراسة تحليلية"**،ص 52

3-د محمود محمد علي،**الاتجاه التجريبي عند ليوناردو دافنشي**(دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ،الإسكندرية الطبعة، الأولى،عدم وجود سنة الطبع) ،ص،74،80،81.

ملاحظات"فرويد" اليومية تثبت كيف يحول الأفراد كميات هائلة من غرائزهم الجنسية نحو نشاطاتهم العملية،حيث استبدلت الطاقة الجنسية بأهداف سامية غير جنسية ضمن مفهوم التسامي،والذي يؤكد صحة هذه الفرضية هو أن غريزة حب الاطلاع كانت في خدمة التأثير الجنسي ،واختفاء الحياة الجنسية في جزء من مرحلة الشباب أو ما يسمى بمرحلة الكمون، دليل على أنهم استبدلوا نشاطاتهم الجنسية بغريزة حب الاطلاع.

وقد أثبت التحليل النفسي أن أغلبية الأطفال يمرون خلال فترة الثالثة من عمرهم بمرحلة تسمى بالأبحاث الجنسية الطفلية ،و تحدث في حالة وقوع أحداث هامة كولادة أخ أو أخت صغرى أو الخوف من ظاهرة خارجية،فكثيرا ما يحرج الأبناء أبائهم بأسئلة منها :من أين جاءوا .؟ فيبد هؤلاء في هذه الفترة في التطلع على العملية الجنسية ولو بالقدر القليل،ونهاية عملية الاستطلاع الجنسي هي الكبت تؤدي إلى ثلاث منافذ،**المنفذ الأول**:حرمان الشخص من حب الاطلاع ،خاصة لأن هذه المرحلة ترتبط بالنهي الديني الذي يعتبر البحث في الجوانب الجنسية ضمن الطابوهات المرفوضة لتعارضها مع القيم الدينية السائدة في المجتمع،وهذا ما يؤثر على نشاطه الفكري الحر طوال حياته،وقد يؤدي الضعف الفكري للأفراد في هذه المرحلة إلى نشأة الأمراض النفسية.

المنفذ الثاني:في هذا المنفذ تتغلب قوة التطور الفكري على عملية الكبت الجنسي،وبنهاية مرحلة الاستطلاع يتم الترابط بين الفكر والجنس،حيث تعود المكبوتات الجنسية المدفونة في اللاشعور على شكل قهر فكري يصبغ التفكير صبغة جنسية، فيكتسب تفكير الإنسان اللذة والقلق مثلما هو في العملية الجنسية،بحيث كلما انتهى الإنسان من مشكلة عقلية ساوره الشعور باللذة.

المنفذ الثالث:وان كان نادرا ما يحدث ولكنه أكملهم حيث يفر الإنسان من الحرمان الفكري والتفكير القهري و رغم دور الكبت الجنسي إلا أنه يعجز عن الإضرار بدافع البحث كما يعجز عن غمر جزء هام من الدافع الشبقي في اللاشعور، فتتسامي الطاقة الايروسية منذ البداية إلى حب الاستطلاع والبحث فيكون البحث إلى حد ما قهريا وبديلا للنشاط الجنسي، بمعنى تسامي الليبيدو المكبوت بدل من ظهوره من اللاشعور. (1)

وتطبيق هذه المعلومات على حياة "ليوناردو" من حيث تعلقه الغريزي نحو البحث العلمي ،واختفاء

1-سيغموند،فرويد ،المصدر نفسه ،ص ص53-56.

حياته الجنسية ،تجعلنا نصنفه ضمن الطريق الثالث. الأمر الذي يحتم علينا التركيز على طفولته ،لكن المعلومات المكتوبة عنه قليلة ولسنا متأكيدين من صحتها،ما نعرفه عنه أنه طفلا غير شرعي ولد سنة 1452م في المدينة الصغيرة هي "فينشي"" والحقيقة التي نعرفها عن طفولة ليوناردو هو ميثاق رسمي لتسجيل ضرائب الأرض 1457 يذكر فيها ليوناردو كطفل غير شرعي لسيربيرو* في الخامسة من عمره ،ولم ينجب سير بيرو بعد زواجه من دونا ألبيرا* أي طفل،ولذا فقد نشأ ليوناردو في منزل والده."(1) و الذكرى التي تحدث عنها ليوناردو والتي حدثت له في طفولته المبكرة ، حيث يقول"فرويد" في الفصل الثاني من الكتاب" إذا أسعفتني ذاكرتي فلا أعتقد أن ليوناردو ذكر شيئا في مذكراته الا في فصل "هروب النسور" عندما يتوقف فجأة في كتابته ليتذكر حادثا في أولى سني حياته يقول:" يبدو أنه قد كتب علي أن أهتم بالنسور ،لأنني أتذكر في بدء حياتي بينما كنت في مهدي ،اذ بنسر يهبط علي،ويفتح فمي بذيله ثم يلطمني به عدة مرات على شفتي."

يحكم "فرويد" على الذكرى بأنها غريبة و يفترض بأنها مجرد خيال حدث له في وقت متأخر ونسبه إلى طفولته،ويرى أن والدته قد لاحظت زيارة الطائر الكبير له ،ويحتمل أنها كررت له القصة عدة مرات،واحتفظ بها وجعلها خبرة ذاتية(2) ، ويحاول تحليل تخيل ليوناردو على ضوء نظرية التحليل النفسي،فهو يتعرف على شخصيته وتاريخه انطلاقا من تخيلات طفولته،فبالاعتماد على تحليله للذكرى وانطلاقا من ولادته غير الشرعية يكتب فرويد قصة نفسية عن الفنان يصل فيها إلى جملة من الافتراضات تتعلق بشخصية الفنان التي هي استمرارا لطفولته وهي:

1- تحول الدافع الشبقي إلى جنسية مثلية سلبية(اللوطية):يستنتج "فرويد" أن ليوناردو كان لوطيا ،و أن هناك علاقة بين طفولته و استجناسه المتسامي.؟فكيف تسنى له ذلك .؟ هل بالاعتماد على ذكراه فقط.أم بالاعتماد على أبحاثه التحليلية المتعلقة بالتكوين النفسي للوطية.؟ وكيف تحول الدافع الشبقي إلى الاستجناس السلبي.؟

إن تخيل ليوناردو يشير إلى مفهوم الشبق،فالذيل رمز للعضو الذكري،وفتح النسر لفم الطفل ولطمه بذيله عدة مرات يعبر عملية "فلاشيو" Fellatio ،وهي عملية جنسية يولج فيه الرجل عضوه الذكري في فم شريكه

1-سيغموند فرويد ،المصدر نفسه،« **ليوناردو دافنشي،دراسة تحليلية** " ،ص57

2-المصدر نفسه ، ص58

،يربط "فرويد" بين هذا التخيل وطفولة ليوناردو المبكرة ،وهي فترة الرضاعة واعتماده على ثدي أمه، بمعنى حول عملية امتصاصه لثدي أمه إلى نسر يلطمه بذيله على شفتيه،وهذا يعبر عن الرغبة اللاشعورية في الاستجناس السلبي أو تخيل ممارسة الجنسية المثلية السلبية ،حيث يقول "نستطيع أن نفهم الآن الترابط بين تخيل النسر وفترة الرضاعة في حياة ليوناردو،ولا يخفي هذا التخيل إلا بقايا ذكراه لرضاعته من ثدي أمه(....)هذه الذكرى لها أهميتها البالغة للجنسين وقد حولها ليوناردو إلى تخيل جنسي مثلي سلبي."(1) و النسر رمز للأم ،و قد تخيل نفسه وهو ابنا له.

لكن كيف استطاع ليوناردو أن يربط بين امتصاص ثدي أمه والنسر.؟فمن أين جاءت فكرة النسر.؟ وما هي العلاقة القائمة بين الأم والنسر.؟ أو لماذا استبدل ليوناردو أمه بالنسر.؟

يفترض مطبق التحليل النفسي على الشخصيات الفنية تفسيرا لهذه العلاقة ،بأن ليوناردو كان قد اطلع على بعض المعلومات عن الحضارة المصرية ،وعرف بأن الفراعنة القدماء رمزوا للأمومة بالنسر و عبدوها ،وكانوا يسمونها mut و يشبه هذا اللفظ mutter في اللغة الألمانية والذي يعني الأم و mother في اللغة الانجليزية ،و لابد أن يكون قد اطلع على اعتقادهم بوجود أنثى للنسر فقط ،وعدم وجود ذكر لهذه الفصيلة وبأن وسيلة تلقيح هذه الطيور وإخصابها هي أنها تلقح دون آن تكون بحاجة إلى ذكور من نوعها،فهي تستلقي أثناء طيرانها وتفتح مهبلها وعن طرق الريح يحدث الإخصاب.

و لابد أن يكون قد اطلع على الرأي الديني لأباء الكنيسة ،عن وجود مريم العذراء وولادتها للمسيح دون أب ،والذي أخذوه من هذه الأسطورة المصرية التي تقوم على الجنس الواحد في النسور كبرهان طبيعي ضد المشككين في التاريخ المقدس،فمثلما تمكنت الرياح من إخصاب النسور يمكنها أن تخصب المرأة.(2) ويقول "فرويد":""و نستطيع أن نفسر تخيل ليوناردو على أساس جديد،فقد قرأ في أحد الكتب الدينية أو التاريخية عن واقعة أنثوية النسور وأنهن يتكاثرن دون الحاجة إلى ذكور وقد استعاد بذلك ذكرى خاصة به قادته إلى هذا التخيل الذي ذكرناه أي أنه هو نفسه كان ابنا للنسر،و لا غرو فقد كانت له أم دون أب وقد ترابطت هذه اللذة التي

1-سيغموند فرويد، المصدر نفسه ، ص63.

2-،سيغموند،فرويد ،المصدر نفسه، ص ص64-66.

أحسها من ثدي أمه حيث عبر عنها في تخيله بهذه الطريقة،وقد أجج أهمية تخيله وقيمها ما كان يردده القساوسة عن العذراء الطاهرة، وأنها فكرة اتخذها كل فنان كموضوع لفنه ،وبهذا استطاع ليوناردو أن يتقمص شخصية المسيح الرحيم المنقذ وليس ابن العذراء فحسب."(1)

والذي يدعم هذا التفسير هو أنه كان طفلا غير شرعي لامرأة فلاحة تدعى كاترينا،وقد تزوج والده في نفس سنة ولادته من دونا ألبييرا ذات السلالة الطيبة ولم تنجب له طفلا ،وقد مكث مع أمه (كاترينا) في سنواته الأولى،ثم أخذه والده إلى بيته يتمتع بحضانة زوجة أبيه العاقر بين السنة الثالثة والخامسة،هذه الوضعية سببت له اللغز الذي يواجهه كل الأطفال ويتمثل في مصدر الأطفال، من أين يأتون،و كيف.؟ وما دور الأب في نشأتهم.؟(2)وقد واجه ليوناردو هذه المشكلة بطريقة مختلفة عن باقي الأطفال،لأن الأطفال يجدون عادة الأب والأم أمامهم،بينما الفنان الطفل لم يجد أباه أمامه ،لأن أمه لم تكن زوجة أبيه الشرعية،فكانت تعيش بعيدا عن أبيه ،ومن هنا اشتدت حيرته مقارنة بباقي الأطفال الذين ينشئون في ظروف عادية ،الأمر الذي يدعم فرضية اطلاعه على المعلومات السابقة،فتخيل نفسه ابنا للنسر.

لكن كيف تحول النسر وهو ذكر إلى أم ،أي إلى ظاهرة تعبر عن رجولة بحتة.؟

و تبرير هذا هو أن نظريات الطفولة الجنسية تثبت أن الطفل في مرحلة الاستطلاع على لغز الحياة الجنسية يولي اهتماما بالغا لأعضائه التناسلية،فيفترض بأن لكل البشر سواء كانوا نساء أو رجالا عضوا ذكريا،و عندما تبدأ الشبقية بمقارنة أعضائه بأعضاء الآخرين ،يدرك بأنه ليس للنساء عضوا ذكريا مثله ،فيتحول شوقه إلى احتقار لهن.(3)

كما يفترض "فرويد" أن ليوناردو يكون قد اطلع على التاريخ البشري حيث أن الأعضاء الجنسية كانت موضع فخر،وكانت تعبد كالآلهة.(4)

1-سيغموند فرويد،المصدر نفسه ،ص67.

2-المصدر نفسه ،ص68.

3-المصدر نفسه ،ص72،73.

4-المصدر نفسه ،ص75.

وقد قال ليوناردو"لقد تحول شغفي وحب استطلاعي في وقت ما إلى أمي ،و اعتقدت في نفس الوقت أن لها عضوا جنسيا مثلي."(1)

إن الغريب في هذه الذكرى هي أن ليوناردو تحول من طفل يرضع إلى طفل يرضع ،وهذا يبين طبيعة استجناس ليوناردو السلبي ،و مرد ذلك هو طبيعة علاقته بأمه في طفولته المبكرة ،فكيف يصل إلى استنتاج هذه العلاقة.؟

يعزز "فرويد " فرضيته بأبحاثه النفسية المتعلقة بالتكوين النفسي للوطية التي أثبتت بأن لكثير من الحالات المرضية من الذكور المستجنسيين تعلقا شبقيا بأنثى في الطفولة المبكرة،غير أن حنان الأم الدافق ينسي الطفل هذا التعلق،خاصة في ظل غياب الأب،حيث يجد الطفل نفسه تحت تأثير أنثوي بحت،كما أن حب الطفل لأمه لا يستمر بل يكبت و ويتخذ من نفسه بديلا لها ويتقمص شخصيتها،فتنزلق الشبقية من حبه لأمه إلى حبه لنفسه(الشبقية الذاتية)،و عندها يصبح نرجسيا،وحبه للأطفال ما هو إلا صور استبدالية لأمه ،فهو يحبهم مثلما أحبته أمه ،و بهذا المعنى يكون الشخص لوطيا،والرجل اللوطي يبقى لاشعوريا مثبتا لصورة أمه في ذاكرته ويستمر حبه لها مكبوتا في اللاشعور ،ويبقى مخلصا لها طوال حياته، ،و يشير"فرويد"إلى عدم تجاهل الدور المجهول الذي تلعبه الوراثة في تحديد اللوطية.(2)

وهكذا فان التكوين النفسي للوطية ،و انطلاقا من تخيل ليوناردو للنسر يؤيدان افتراض "فرويد" أن ليوناردو كان لوطيا،وقد ساهم في ذلك طبيعة علاقته بأمه وغياب الأب حيث غمرته بحبها له تعويضا عن الزوج المفقود فوجد نفسه أما م نضج جنسي مبكر جراء قبلات أمه الدافئة تجسدت في أبحاثه الجنسية الطفولية المبكرة فغرست فيه الرقة الأنثوية العاطفية كانت سببا في فشله في تكوين علاقات عاطفية ناضجة،وميله للجنسية المثلية Homosexualité ونبذه للجنس، حيث يقول"وقد حدد حنان أمه مصير الحرمان الذي عاناه بعد ذلك،ولقد كان عنف ملاطفتها الذي أشار إليه في تخيله للنسر طبيعيا في حد ذاته، وقد وهبته في حبها كل ما تشتاق إليه و تتخيله من الملاطفة،و لقد فعلت ذلك تعويضا لها عن غياب زوجها وعدم وجود أب لطفلها ،قد اتخذت مثل الأمهات

1- سيغموند فرويد،المصدر نفسه ،ص76.

2- المصدر نفسه، ص ص77-81.

التعيسات ابنها الصغير بديلا لزوجها،وكان هذا سببا لنضوج شبقيته المبكرة ،ومن ثم سلبته جزء من رجولته،فحب و عناية الأم لطفلها الرضيع أعمق بكثير من عاطفتها له عند نموه."(1)

ويدعم "فرويد" استنتاجه لاستجناس ليوناردو السلبي بأنه كان يختار تلاميذه على أساس الجمال والأناقة لا على أساس الموهبة ،وكان يرعاهم و يعاملهم بحنان ويمرضهم أثناء توعكهم مثل الأم التي تعتني بأطفالها ،أي كان يتقمص شخصية كاترينا ويختار موضوعات حبه مرادفة لذاته كما لو أنها كاترينا تحب وليدها،والذي يؤكد أن اختياره لم يكن على أساس الموهبة بل على أساس دوافعه الجنسية هو اختفاء مريديه مباشرة بعد وفاته ولم يكن لهم أي أثر في تاريخ الفن أمثال سيزارداستو بولترافيو،أندريا ساليا نو،فرانسيسكو ميلزي.(2)

و كأن ليوناردو يقول:"إنني أصبحت جنسيا مثليا من خلال هذه العلاقة الشبقية مع أمي."(3) ويؤكد "فرويد" في تحليله للعبارة الواردة في الذكرى" ولطمني عدة مرات بذيله فوق شفتي"بأنها وصف لعملية الجماع الجنسي والتي بدورها انعكاس للعلاقة الشبقية بين الطفل و أمه ،وربط بين نشاط أمه (النسر) وأهمية المنطقة الفمية ،وهكذا يكون مصدر استجناس ليوناردو هو تسامي الدوافع الشبقية التي حدثت له في طفولته المبكرة والتي لعبت فيها المنطقة الفمية دورا كبيرا،وكأنه يقول" ألهبت أمي شفتي بقبلاتها العاطفية العديدة."(4)

وهناك أعمال فنية وأبحاث علمية لليوناردو تعزز الفرضية الفرويدية على أن حاضر الفنان ما هو إلا امتداد وتكرار لطفولته،وأن الإبداع الفني مجرد تسامي للدوافع الجنسية المكبوتة ،غير أن هذه المكبوتات تعبر عن نفسها بطريقة قهرية ،كما هو الحال في حالة العصاب القهري.فكيف تمكن "فرويد" من تبرير نشاطات الفنان الفنية والعلمية بأنها مجرد تصعيد قهري للدوافع الشبقية.؟ وكيف تحولت هذه الأخيرة إلى نهم للاستطلاع وحب المعرفة.؟

1-المصدر نفسه،**"ليوناردو دافنشي،دراسة تحليلية"** ،ص 104

2-المصدر نفسه ،ص82..

3- المصدر نفسه،ص89

4- المصدر نفسه،ص90 .

2-**العصاب القهري وتسامي الدافع الشبقي بطريقة قهرية في إبداعات ليوناردو الفنية و أبحاثه العلمية(تحول الكبت الجنسي إلى رغبة في البحث وحب الاطلاع):**يستنتج مؤسس التحليل النفسي أن ليوناردو كان عصابيا ،و أن كل سلوكاته ونشاطاته الفنية و أبحاثه العلمية و رغبته الجامحة في الاطلاع على حقائق الأشياء مجرد إعلاء للكبت الجنسي بطريقة قهرية أو قسرية،وهو يعتمد في ذلك على بعض الأدلة الطفيفة المتوفرة عن حياة الفنان" ونحن نميل إلى وضع ليوناردو قريبا من عصاب الوسواس وذلك من الأدلة الطفيفة التي تجمعت لدينا ،ونستطيع هنا مقارنة أبحاث ليوناردو بالتفرغ القهري للعصابيين،وكذلك كفه بما يسمى أبوليا(فقدان الإرادة) ."*(1) ومن الأمثلة التي يعتمد عليها في تبرير صحة فرضيته ،هي إحدى مذكرات ليوناردو يتحدث فيها عن مصروفات ونفقات ،أنفقها على تلاميذه وعلى أمه أثناء مرضها وعلى جنازتها بعد وفاتها، وكأنه مدبرة بيت شحيحة ،ليثبت بأن تصرفاته هذه تشبه ما يحدث في حالة العصاب القهري ،حيث تتحول الرغبات المكبوتة في اللاشعور إلى أعمال حمقاء أو تافهة .(2) ،وتفسير ذلك هو انه لا يزال مرتبطا بأمه لاشعوريا بذلك الوجدان الشبقي، وهذه المذكرات كانت بمثابة حل وسط للصراع النفسي و المقاومة التي حدثت له جراء كبته لحب أمه،فطاقة ليوناردو الجنسية عبرت عن نفسها في التفاصيل التافهة والاهتمام بالمال" فهي بقايا بسيطة لطاقة ليوناردو الجنسية وجدت التعبير عن نفسها بطريقة قهرية محرفة ،وتبعا لهذه النظرية فأمه و تلامذته و وجمال الصبية تمثل هواياته الجنسية."(3)

ويدلل "فرويد" على أن إبداعات ليوناردو الفنية ما هي إلا تسامي لكبته الجنسي بطريقة قهرية من خلال الابتسامة المحيرة التي يرسمها على شفتي نماذجه النسائية ،ويكررها في كل لوحاته،فأصبحت إحدى العلامات المميزة لأسلوبه في التصوير،أطلق عليها **ليونارد يسك** L éonardesque(4) وهي تعبر عن التناقض الكامل

---

*أبوليا (فقدان الإرادة) :باللغة الانجليزية"Abulia" هو اضطراب في الإرادة ،يتضمن تراجع القدرة على التفكير و الفعل و نقص في الانتباه و الاستجابة

1-سيغموند فرويد المصدر نفسه ،ص125.

2- المصدر نفسه، ص ص83-87..

3- المصدر نفسه،ص88 .

4- المصدر نفسه،ص91 .

الذي يتحكم في الحياة الشبقية للمرأة الفلورنسية،بين التحفظ والإغراء والحنان الدافق و الوعيد المتشائم. وقد جاء أثر هذه الابتسامة الغامض عندما قابل وصور تلك المرأة الفلورنسية"الموناليزا"(أنظر الشكل رقم 01 في الصفحة94) بعدما تجاوز سن الخمسين في فترة إقامته الثانية بفلورنسا،وقد استغرق في رسمها أربع سنوات(1) ،هذه المرأة الفلورنسية أيقظت فيه ذكرى ولادة طفولته ،أي دوافعه الشبقية المدفونة في اللاشعور أو في عقله الباطن،فأصبحت لها قوة قهرية للتعبير عن نفسها بطريقة جديدة في كل أعماله الفنية.(2)

هذه الابتسامة ما هي إلا تكرار لابتسامة أمه كاترينا التي فقدها في طفولته وعادت إلى الظهور مع السيدة الفلورنسية، بدليل أن ليوناردو بدأ نشاطه الفني بصنع رؤوس أطفال وسيدات من جبس و كأنها صنعت بيد الخالق ،بمعنى بدأ تصوير نوعان من المواد تذكرنا بالمواد الجنسية" فإذا كانت رؤوس الأطفال الجميلة ما هي إلا نقل صورة نفسه أثناء طفولته .فكذلك صورة النساء الباسمات ما هي إلا تكرار لأمه كاترينا التي كانت لها هذه الابتسامة الغامضة،أي فقدها في طفولته ثم بهرته عندما وجدها ثانية في السيدة الفلورنسية."(3)

وقد تكررت ابتسامة ليونارد يسك الغامضة والمحيرة في لوحات عديدة للفنان مثل "القديسة حنة مع اثنين آخرين" و"المادونا و الطفل الصغير مع القديسة حنة" ويستدل "فرويد" على أنها مجرد عمل رمزي لطفولة ليوناردو الخاصة ،فهي تتضمن التركيب التاريخي لطفولته،ويفسر صورة"القديسة حنة مع اثنين آخرين" كالتالي: الطفل الموجود في الصورة هو ليوناردو دافنشي نفسه والمر أتين هما تكرار لصورة أمه التي كانت تمتلك مثل هذه الابتسامة الساحرة والغامضة وقد ذكر "فرويد" أن طفولة الفنان كانت تتميز بأمور تماثل ما تحتوي عليه هذه اللوحة، فقد كان هناك امرأتان تقومان بدور الأم ،اعتنت به أمه في طفولته(كاترينا) ثم احتضنته زوجة أبيه العاقر(دونا ألبيرا)الرقيقة الحنونة ما بين الثالثة والخامسة بالإضافة إلى جدته (والدة أبيه) مونا لوشيا،لذلك تعبر الجدة عن الأم الحقيقية (كاترينا)وهي القديسة حنة ،وتعبر المرأة الثانية عن أمه الثانية وهي زوجة أبيه،بمعنى الطفل تحت رعاية والدتين.(أنظر الشكل رقم 02 من الصفحة95).

1- سيغموند فرويد،"**ليوناردو دافنشي،دراسة تحليلية**"،المصدر نفسه ،ص92،93.

2-المصدر نفسه ،ص95.

3- المصدر نفسه،ص96 .

وقد رسم الابتسامة الهنيئة على وجه القديسة حنة رغبة منه في إخفاء حظ أمه التعس التي اضطرت إلى التضحية بابنها لغريمتها بعد أن سلبت زوجها منها(1)" ونجد في أعمال ليوناردو الأخرى ما يثبت شكوكنا من أن ابتسامة موناليزا ديل جيوكندا قد أيقظت في رجولته ذكرى أم الطفولة ،وقد رسم منذ ذلك الوقت المادونات والسيدات الأرستقراطيات،بانحناء متواضعة لرؤوسهن،وابتسامة كاترين المغتبطة الفلاحة الفقيرة التي قدمت إلى هذا العالم هذا الابن العظيم الذي كتب عليه أن يصور ويبحث ويتألم."(2) إن هذا الوضع الخاص بوجود اثنين من الأمهات لأبن واحد هو الذي دفع بليوناردو إلى مضاعفة معنى الابتسامة في هذه اللوحة،فهي تتضمن الوعد بالرقة اللامتناهية وفي نفس الوقت التهديد القائم على الشر والعقاب أو الحنان الدافق والوعيد المتشائم،فهي تعبر على ضوء نظريته ،عن غرائز الحياة وغرائز الموت،حالات الإشباع،وحالات الحرمان،فالعمل الفني في هذه الحالة يجمع بين شيئين متناقضين في مركب واحد متكامل(الرضى والحسد)(3)

ويرى "فرويد أن الصورة تمثل الأمهات وقد التصقتا ببعضهما إلى درجة يصعب على الناظر فصلهما و كأنهما رأسين برزا من جسم واحد ،وقد شعر ليوناردو بالحاجة إلى تجزئة هذا الالتصاق ففصل الرأسين في الفضاء،ويبقى هذا الالتصاق يلائم ذكرى طفولته،و الذي يبرر على أن إنتاجه الفني ما هو إلا عمل رمزي لطفولته المبكرة هو أن صورة النسر ترتسم(الأم) لا شعوريا في كل صوره.(4)

ويفترض مؤسس التحليل النفسي أن ليوناردو عندما وصل سن البلوغ واتجه نحو الجنسية المثلية بدأ يتقمص شخصية والده بطريقة قهرية في أمور لا جنسية ،فهو أضحى يعتقد لاشعوريا أن والده قد أهمله في طفولته ،ولم يوليه العناية الكافية و تركه وحيدا مع والدته،فيلبس الثياب الفخمة ويتظاهر بالعظمة ،ويرسم الصور ثم لا يهتم بها ويعجز عن مواصلتها ومن الأمثلة على ذلك "العشاء الأخير"و(أنظر الشكل رقم 03 من الصفحة رقم95)"وفرانسيسكو سفورزا*" **Francesco Sforza**""ممتطيا جياده"مثلما لم يهتم به والده ، بالرغم أن

1-سيغموند فرويد،المصدر نفسه ،ص ص98-101.

2-المصدر نفسه ،ص102.

3- د شاكر عبد الحميد ،"**التفضيل الجمالي و سيكولوجية التذوق الفني**" ، المرجع نفسه ،ص139

4- سيغموند فرويد،المصدر نفسه،هامش الصفحة 101،102 .

*-فرانسيسكو سفورزا(1401-1466م):قائد ايطالي.

والده اعتنى به في وقت متأخر إلا آن هذه القوة القهرية لم تتغير لأنها انطبعت في طفولته المبكرة(1)

ولقد كان لهذا الحرمان الأبوي أثر بالغ، فقد تسامى بطريقة رمزية في أبحاثه العلمية خاصة في مجال الطبيعة ،حيث تصدى لفكرة الأبوة من خلال رفضه للقدماء و للكنيسة المسيحية و دعوته إلى النظر للسلطة نظرة سفلى،فالقدماء والسلطة يعبران رمزيا عن رفضه لوالده والطبيعة ما هي إلا الأم الحنون التي أطعمته وغذته بحنانها الدافق ،وقد أثبت التحليل النفسي العلاقة بين الأب والله ، فالله ما هو إلا أب عظيم أو الله مجرد تسامي كبير للأب ،وشجاعته و استقلال أبحاثه العلمية ما هي إلا إعلاء لأبحاثه الجنسية الطفولية.(2)

و يفسر "فرويد حلم ليوناردو بالطيران بأنه رغبة لاشعورية في العملية الجنسية لأن الأحلام ما هي إلا تحقيق لرغبات مكبوتة، فاهتمام ليوناردو بالطيران في الحلم جذوره مرحلة الطفولة،وذلك من خلال محاولته الاستطلاع الجنسي والسلوك كالكبار،فهي تحول للدوافع الجنسية التي كبتت خلال محاولته الاستطلاع الجنسي والسلوك الكبار إلى شوق لاشعوري للعملية الجنسية، ويضيف الدليل على ذلك هو أن التعبير العام في اللغة الألمانية لنشاط الرجل الجنسي هو"volgen" أي يطير،و أن عضو الرجل التناسلي بالايطالية يسمى لوشللو "luccello"أي "الطير"(3)

وهكذا يكون ليوناردو قد" استمر طفلا في نواحي كثيرة من حياته ،ويبدو أن كل العظماء يبقون جزء من الطفل في أنفسهم."(4)

ويستدل "فرويد" بوجهة فاساري"Giorgio Vasari"* الذي رأى بأن ليوناردو كان كثيرا ما يصنع الألعاب،كمثال على ذلك في روما تحصل على كمية من الشمع اللين وصنع مجموعة من الحيوانات مملوءة بالهواء يطيرون عندما ينفخهم ثم يسقطون على الأرض بمجرد نفاذ الهواء،فدوافع الطفولة تجلت بطريقة قهرية

1-سيغموند فرويد،المصدر نفسه ،ص110،111،

2-المصدر نفسه ،ص ص 112-114.

3- المصدر نفسه،ص116،117 .

4- نفس المصدر والفصل،ص119.

*-جورجيو فاساري(1511-1574م):رسام ايطالي و مهندس معماري معروف بكتاباته الشهيرة لسيرة الفنانين الايطاليين.

فدوافع الطفولة تجلت بطريقة قهرية في هذه التفاهات ، ويفترض أن غريزة اللعب اختفت عند نضجه وتحولت إلى شغف للبحث والاطلاع .(1)

وكخلاصة للقصة النفسية التحليلية عن ليوناردو،هي أن شخصيته مجرد استمرار لطفولته ،حيث أثرت عليه حوادث الطفولة بطريقة مقلقة ،فكانت ولادته غير الشرعية ،وحنان الأم الدافق وقبلاتها الدافئة التي اتخذت لونا شبقيا سببا في نضجه الجنسي المبكر،في ظل غياب ذكورة الأب،فأثيرت فيه غريزة المعرفة وحب الاطلاع التي ارتبطت بأبحاثه الجنسية بطريقة مختلفة عن بقية الأطفال،انتهت بالكبت واختفاء النشاط الشبقي واستمرت عملية **التثبيت"** Fixation " على أمه وذكرياته الجميلة معها في اللاشعور .

وقد تسامى جزءا كبيرا من غريزته الجنسية إلى شغف معرفي كبير تجلى في قوة أبحاثه العلمية وتنوعها وفي إبداعاته الفنية ، و كانت نتيجته كبته لحب أمه ميله للجنسية المثلية السلبية "اللوطية" تجلى ذلك في حبه المثالي للصبية وخلو حياته من العلاقات العاطفية مع أية امرأة ،وفي محاولاته الفنية الأولى التي هي رؤوس النساء الباسمات والصبية ذوي الجمال .

وهكذا لعب الكبت والتثبيت* والتسامي دورا فعلا في غريزة ليوناردو الجنسية و بالتالي في تأثيرها على حياته العقلية.(2)

غير أن الكبت التام للحياة الجنسية لا يهيئ للفرد أحسن الظروف لإظهار مواهبه وقدراته المتسامية ،وقد ظهر في الفنان الذي أصبح عاجزا عن اتخاذ قراراته ومتباطئا في انجاز أعماله و غير قادرا على إتمامها ،تجلى ذلك في بعض لوحاته كصورة"العشاء الأخير"،وفي نفس الوقت يفسر "فرويد" هذا على أنه انعكاس لطفولته وذلك تقمصا لشخصية أبيه الذي لم يول اهتماما وعناية لأولاده.

1-سيغموند فرويد ،نفس المصدر،**"ليوناردو دافنشي،دراسة تحليلية"** ،ص121،122

*-التثبيت (fixation):هو واقعة تعلق الليبيدو المفرط بأشخاص معينين أو صور هوامية معينة ، وقد اعتبر فرويد التثبيت على الصدمة السبب الرئيسي للعصاب،وهو مصدر الكبت،من معجم مصطلحات التحليل النفسي،جان لابلانش،وج.بونتاليس،ت د/مصطفي حجازي،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر،بيروت،ص153،154 .

2- المصدر نفسه،ص 126،127 .

وقد مر الفنان بمرحلة نكوص أو تراجع في نشاطه الفني يماثل نشاط العصابيين ،حيث بدأ نشاطه بالفن ثم ابتعد عنه وتراجع تدريجيا و اتجه نحو العلم، ثم حدث تحول جديد ومفاجئ عندما قابل المرأة"الموناليزا" التي أيقظت فيه ذكرى ابتسامة أمه ذات النشوة الشبقية ،فكانت حافزا لإيقاظ محتويات عقله الباطن ،فأصبح في نشاط دائم يتخذ النساء الباسمات نموذجا للوحاته الفنية .

وبهذه الطريقة وجدت القوى الغريزية لهذا الرجل العظيم الغامض والتي استيقظت في طفولته المبكرة منفذا لها بطريقة قهرية في كل أبحاثه العلمية و إبداعاته الفنية.(1)

و قد اعترف "فرويد" في نهاية الكتاب بحدود التحليل النفسي وعجزه عن تفسير لماذا يحول شخص ما طاقته الجنسية من الكبت إلى التسامي ،ويعجز شخص أخر تحت تأثير نفس المؤثرات عن إعلاء طاقته الليبيدية ،فيميل إلى الكبت و يكتسب استعداد ا للعصاب القهري ،و يشير إلى دور العوامل البيولوجية الوراثية ،فربما يكون لجمال الشخص دورا في اتجاهه للجنسية المثلية السلبية"ولذا فقد فشل التحليل النفسي في تفسير هاتين الصفتين:ميله الخاص لكبت غرائزه وقدرته الخارقة على التسامي بغرائزه الفطرية."(2)

1-سيغموند فرويد،المصدر نفسه،ص ص128-130.

2-المصدر نفسه ،ص 132.

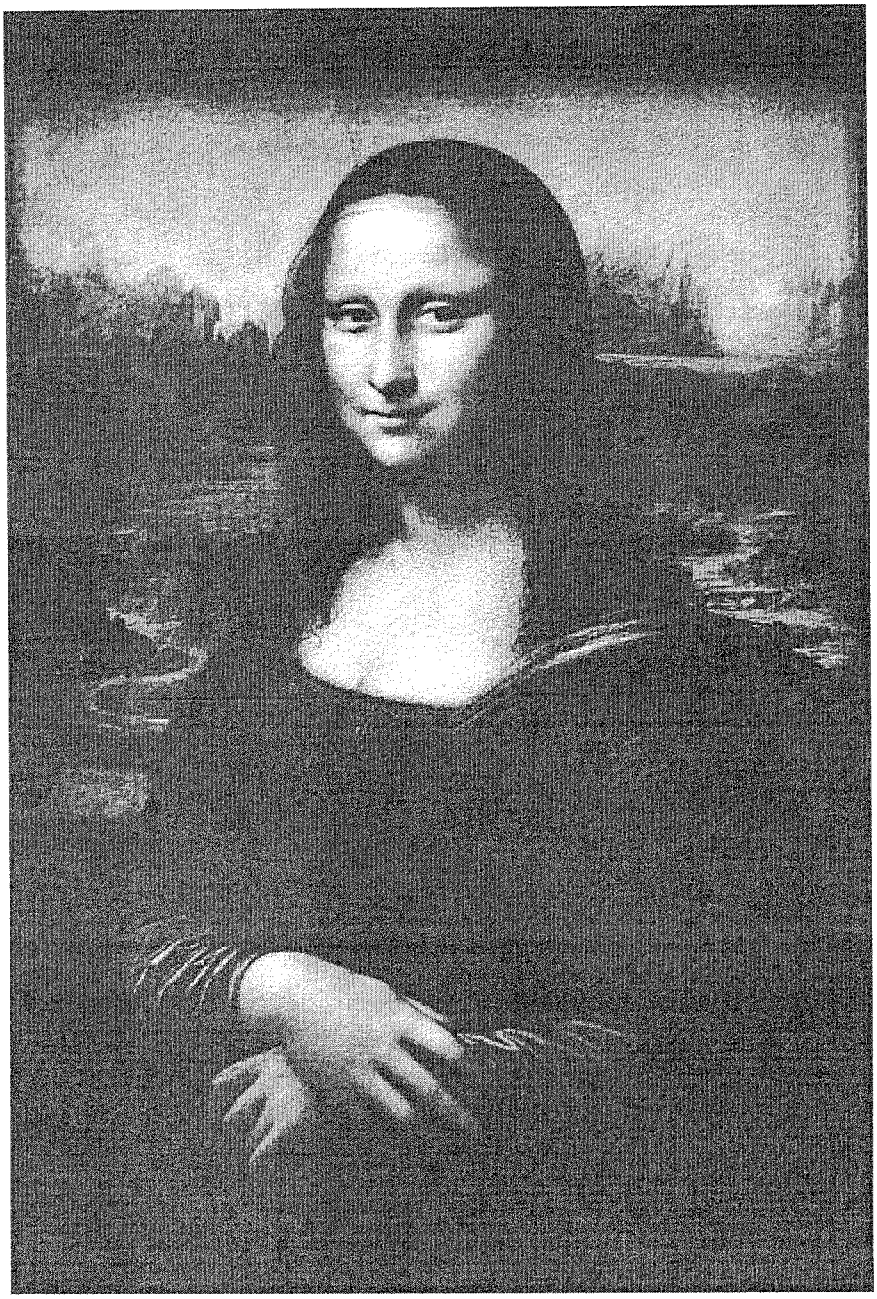

الشكل رقم01: لموناليزا"لجيوكندا"

.

الشكل رقم 02 :العذراء والطفل الصغير والقديسة أن /القديسة أن مع اثنين أخرين.

! Erreur

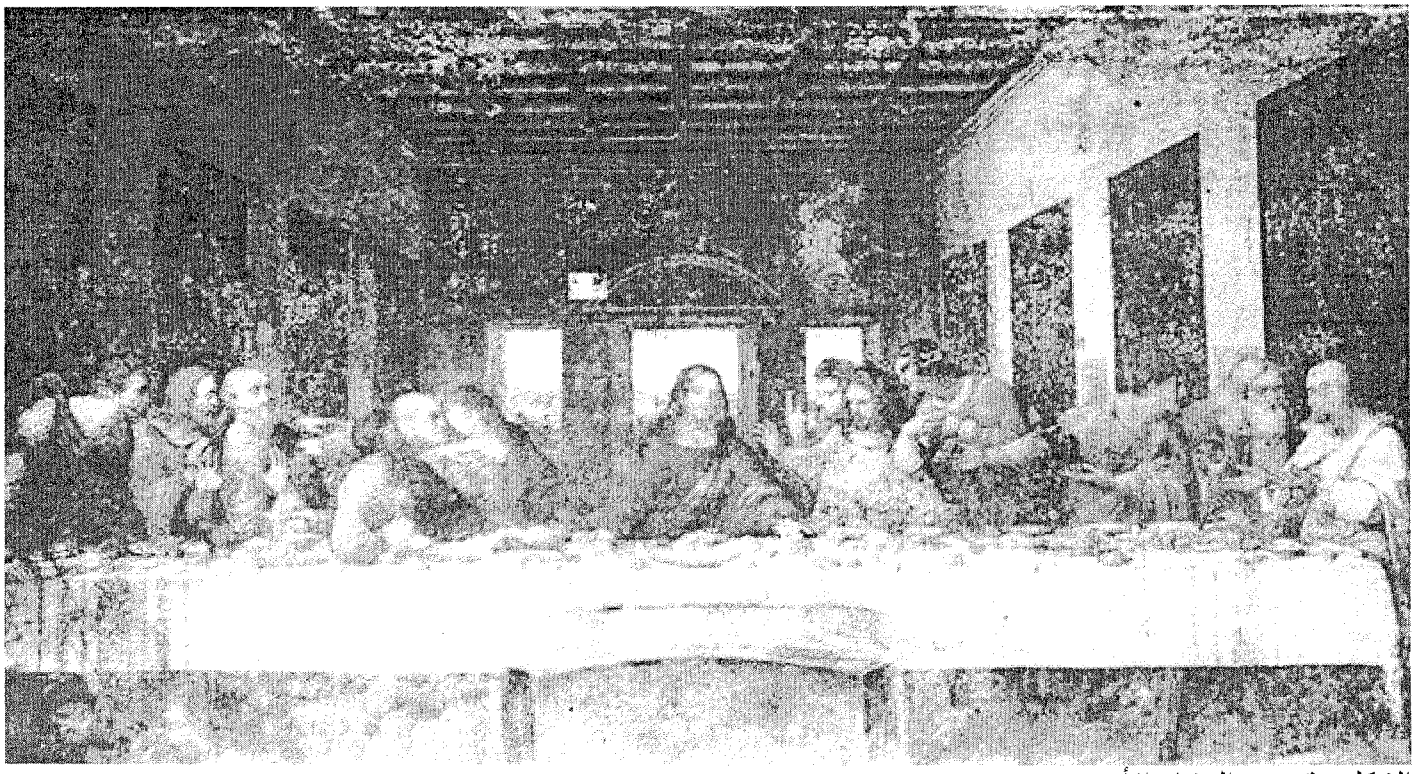

الشكل رقم:03:العشاء الأخير

ب-دوستويفسكي ورواية الإخوة كارامازوف les Frères Karamazov :في إطار تطبيق معطيات التحليل النفسي الفرويدية على الشخصيات الفنية و الأعمال الأدبية يمثل الإبداع الفني للروائي "دوستويفسكي" انعكاسا لشخصيته وتجسيما لنفسيته وتعبيرا عن فلسفته ونظرته الخاصة للحياة و لقضايا الإنسان،فكيف تمكن مؤسس التحليل النفسي من استنتاج ذلك.؟ وما هي مميزات شخصية دوستويفسكي بمنظار التحليل النفسي .؟و كيف كانت شخصياته الروائية انعكاسا لشخصيته و تعبيرا عن فلسفته رؤيته لقضايا الإنسان.؟

و قبل أن نجيب عن هذه التساؤلات لأبأس أن نقدم ملخصا بسيطا و مختصرا عن مضمون الرواية وذلك كالتالي: إن رواية الإخوة كارامازوف أخر رواية للكاتب الروسي "فيودور دوستويفسكي"،حيث قرر بعد وفاة ابنه "ألكسي" بنوبة صرع عن مخرج لمأساته ، وكان هذا بعمل ضخم ينهي به حياته الأدبية سنة 1878م ،وهي تتحدث عن أسرة صغيرة بالريف الروسي،الأب "فيودور بافلوفتش كاراما زوف" Viodor pavlovitch Karamazov الفظ الكاذب المهرج الشهواني يمثل الجانب الشيطاني من الإنسانية ،ينجب من زوجته الأولى" أديلندا ايفانوفنا"Ivanovna Adelaide التي ورث عنها ثروة كبيرة، ابنه "ديمتري" Dimitri ، وقد انتحرت في نهر عميق نظرا لحقارة ووضاعة الزوج ،ثم يتزوج ثانية ويرزق من الزوجة الثانية "ايفان"Ivan الفيلسوف المثقف الوجودي ،المتشكك ،و الثالث "ألكسي"(أليوشا) Zosime البراءة و الطيبة والجمال المتمثل في الحب ،ثم أخيرا "سمر دياكوف"Smer diakov الابن غير الشرعي للأب،من متشردة مجنونة ،و المصاب بالصرع استخدمه "دوستويفسكي" كمرآة تكشف باقي الشخصيات و تعريهم أمام أنفسهم ،و بين أطراف هذه الشخصيات الرجالية، تظهر "غروشنكا"Grouchegnka المرأة العاهرة في نظر البعض و الملاك في نظر البعض الأخر،و الكل يتصارع لنيل رضاها ، وينتهي هذا الصراع بجريمة قتل، يذهب الأب ضحيتها ، ويتهم بالجريمة "ديمتري" الابن الأكبر، ويعلل هذا الاتهام بالباعث وهو حرمانه من الإرث الذي تركته أمه ومحاولة أبيه أن يخطف حبيبته "غروشنكا" ، ويفهم من سياق الرواية أن القاتل هو "سمردياكوف" لكن المحاكمة تنتهي بنهايتها الواقعية ،و يترك الحكم الفعلي للقارئ، وهذا ملخص بسيط للرواية التي تتألف من ثلاثة أجزاء ، والسر الذي جعل الرواية تأخذ شهرة كبيرة في الأدب العالمي هو أن القارئ لا يهتم كثيرا بمن هو القاتل أكثر من اهتمامه بالأسباب والدوافع ،أي حضور الوجود الإنساني في الرواية ، هذا الوجود الذي ركز عليه

الكاتب ودعمه بحوارات ،كانت بمثابة تحليل وثيق لكل شخصية وتعرية لذاتها، وهذه الحوارات كانت تتأرجح بين الهدوء والصراع، وهذا الصراع كان يشمل قطبين،الشر(فيودور) في مقابل الخير (الراهب زوسيما) le Zosime tarets وبينهما تتدرج الشخصيات من حيث الشر و الخير.

وبذلك يكون "دوستويفسكي" أسس لنظام طبقي طوباوي لا يقوم على العرق أو الثروة و الجاه بل على الأخلاق،و "أليوشا" هو الفاعل الذي يؤكد وجهة نظره في أن الأخلاق هي التي تفوز في النهاية.

ينطلق "فرويد" في تحليله السيكولوجي لشخصية لهذا الأديب الروسي الفنية من تحديد أربعة وجوه يتسم بها وهي:الفنان المبدع والأخلاقي والعصابي والمذنب أو الآثم.(1) فكيف يمكن تفسير هذه الصفات المتناقضة .؟ وما هي مبررات "فرويد" على اتصاف "دوستويفسكي" بهذه الصفات.؟

1-**دويستويفسكي فنان مبدع:** هذه الميزة ليست محل جدل أو نقاش و لا يمكنها أن تثير الشك،لأن مكانة "الفنان"في الأدب العالمي ليست بعيدة عن مكانة "شكسبير" وقد كتب أعظم رواية لحد الآن هي رواية"الإخوة كارامازوف" و من ثم يعلن التحليل النفسي انسحابه من البحث في هذه الموهبة الفطرية.(2)

2-الوجه الأخلاقي في الفنان: إن هذا الوجه هو محل شك و مثير للجدل و يمكن مهاجمته ،لأنه إذا وضعنا "دوستويفسكي" في مرتبة أخلاقية عالية بمبرر أن الإنسان الذي توصل إلى أعماق الخطيئة و اجتازها هو القادر على بلوغ مرتبة أخلاقية سامية ،و الإنسان الفاضل هو الذي يواجه رغبات النفس الدنيئة و لا يستسلم لها ، فعندئذ لا نستطيع أن نتجاهل هذا الشك لأن الإنسان الذي يخطيء و يستمر في الخطأ ثم يضع لنفسه معايير أخلاقية قاسية فتتولد في نفسه مشاعر تأنيب الضمير أو الشعور بالذنب لا يمكن أن نصفه بأنه إنسانا فاضلا،وهذا ما ينطبق على المتوحشين والهمجيين الذين يرتكبون جرائم القتل ويكفرون عن ذنوبهم بطرقهم

1-سيغموند فرويد ،**دوستويفسكي و جريمة قتل الأب،تر، د/شاكر عبد الحميد**،،من كتاب علم النفس الإبداع (دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع،القاهرة،عدم وجود رقم الطبعة وسنة الطبع)،ص36.

1et 2- Sigmund Freud. **Dostoïevski e et le parricide par Les Frères Karramazzov.Fiodor Dostoïevski traduit du russe par Henri mongault** (.tome premier.la bibliothèque électronique du Québec. édition de référence paris Gallimard folio classique N22655).p6

2- المصدر نفسه،ص37.

الخاصة ،بعقاب الذات أو المازوشية*"Masochisme " ، وفي الواقع أن "دوستويفسكي" كان ماز وشيا ينطبق عليه هذا الصنف من الأشخاص،إن هذا النوع من العقاب يجعل أسلوب القتل أمرا ممكنا .

إن شخصية "دوستويفسكي" تضمنت عدة مفارقات، فقد ناضل أعنف نضال من أجل التوفيق بين دوافع الفرد الغريزية ومتطلبات المجتمع أو بين الخير والشر والحب والكراهية ،و في مقابل ذلك نجد نقطة الضعف في هذه الشخصية هي خضوعه لسلطة الأب الصغير القيصر ولإله المسيحيين و لفكرة ذات قيمة محدودة هي القومية الروسية، هذه المفارقات تجعلنا نشك في وصفه برجل أخلاق.(1)

لقد أسقط الأديب نفسيته و أفكاره الخاصة على كثير من شخصياته الروائية ،مثل "ايفان"Ivan الابن الأول للزوجة الثانية لم يكن ينشد المال بل كان ينشد العذاب ،وفي هذا يتفق مع "دوستويفسكي" الذي كان ينشد العذاب عندما أغرق في القمار ولم يكن ينشد المال.(2)

3- دوستويفسكي المذنب أو الخاطئ :يرى "سيغموند فرويد" أن "دوستويفسكي" إنسان مذنب أو مجرم وهذا ما يستنتج من العلاقة المفروضة بينه وبين شخصياته الروائية ،حيث يختار دائما شخصيات متردية في الخطيئة أو الجريمة ،إضافة إلى بعض الحقائق التي تدعم هذا الاتجاه كولعه بالقمار.

إن هذه النقطة تثير اعتراض للوهلة الأولى، لأن المجرم يتميز بسيمتين جوهريتين: الأنانية المفرطة والميل القوي للتدمير،وهاتين الميزتين تستدعي أن يفتقد المجرم الحب ويفتقد كذلك الإدراك العاطفي للقضايا الإنسانية، لكن بالنظر إلى شخصية "دوستويفسكي" كانت على النقيض من ذلك، حيث كان بحاجة شديدة إلى الحب و لديه القدرة الفائقة عليه و العطف والشفقة و كان من حقه إن يكره وينتقم مثلما هو الحال في علاقته مع زوجته الأولى ومع عشيقها.

إذا كان الأمر كذلك:هل يعني هذا أنه لا توجد علاقة بينه وبين شخصياته الروائية ومن ثمة تسقط الدعوى القائلة بأن العمل الفني صورة مجسمة لنفسية الفنان و تعبيرا عن تجاربه و أزماته الخاصة.؟ وعلى أي أساس

---

*-المازوشيةMasochisme :الاستمتاع بتعذيب الذات لنفسها .

1-المصدر نفسه ،ص 37

2- د/عز الدين إسماعيل ،المرجع نفسه **"التفسير النفسي للأدب"** ،ص230.

استند "فرويد" في تصنيف الفنان ضمن المجرمين.؟

يجيب فرويد" هو اختياره لمادة موضوعاته التي تجسدت في شخصيات قاسية مغتالة عنيفة مفرطة في الأنانية ، الأمر الذي يبرر وجود ميول مماثلة داخل نفسيته ذاتها من جهة ،ومن جهة أخرى وجود بعض الحقائق المرتبطة بحياته الخاصة كولعه بالقمار واعترافه المحتمل بالتعدي جنسيا على فتاة صغيرة*.(1)

و يحلل "فرويد" هذا التناقض بوجود نزعة هدامة قوية في شخصية الفنان التي كانت من المحتمل أن تجعل منه مجرما ،وجهت في حياته الواقعية نحو ذاته(أي إلى الداخل بدلا من الخارج) فعبرت هذه الغريزة عن نفسها في المازوشية والشعور بالذنب، ومع ذلك تنطوي شخصيته على قدر كبير من السادية"Sadisme "، تجلت في سلوكاته الانفعالية وحبه للتعذيب و ضيق نفسه وعدم تسامحه حتى مع الذين أحبوه، وفي الطريقة التي يعامل بها قراؤه بوصفه مؤلفا ،ومن ثم كان ساديا مع الآخرين في الأمور البسيطة أما في الأمور الكبيرة فقد كان ساديا مع نفسه أي ماز وشيا،بمعنى كان متواضعا لينا رءوفا و أسرعهم إلى مد يد العون للآخرين.(2)

وهكذا يمكن تفسير التناقض بين شخصيات "دوستويفسكي" الروائية و سلوكه الظاهر بأنها لا تناقض تكوينه النفسي ،فهي تمثل الشكل الذي كان من الممكن أن يأخذه سلوكه في الواقع ،إنها تعبير عن رغباته المكبوتة التي لم يستطع تحقيقها في الواقع ،وشقاؤه هو نفسه ينعكس على شقاء شخصياته ،ولهذا رأى كثير من كتاب السير وعلى رأسهم مؤسس التحليل النفسي العلاقة بين مقتل الأب في قصة "الإخوة كارامازوف" مقتل أب "دوستويفسكي" نفسه.(3) فإلى أي مدى تنعكس صفات "دوستويفسكي" على أفراد رواياته.؟

إن التناقض الذي عاشه الفنان نفسه أسقطه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة على شخصياته الروائية ،فالأب "فيودور بافلوفتش كارامازوف"Viodor pavlovitch Karamazov أول هذه الشخصيات التي اجتمعت فيها

1- سيغموند فرويد ،المصدر نفسه،" **دوستويفسكي و جريمة قتل الأب**" ، ،ص 38

*-يقول فرويد في أحد هوامش دراسته هذه أن موضوع الاعتداء الجنسي على فتاة صغيرة يظهر عدة مرات في كتابات دسيويفسكي وخاصة في بعض الكتابات التي نشرت بعد وفاته مثل "اعتراف ستا فروجين" وكذلك "حياة خاطىء"

2-المصدر نفسه ،ص .38

3-د/عزا لدين إسماعيل ،المرجع نفسه ،ص215

هذه المتناقضات في أكثر أشكالها حدة ،بين الخير والشر والايجابي و السلبي،فحين هجرته زوجته الأولى "أديلندا ايفانوفنا" Ivanovna Adelaïde كان في فترات صحوه يطوف أنحاء المدينة ويذرف الدموع و يشكو كل إنسان يجده عن ألامه جراء وفاة زوجته، والذي كان يرضي خاطره هو تمثيله للدور المضحك أي الزوج المظلوم ،وعرضه لآلامه و أحزانه بنسج من الخيال،الأمر الذي جعل الساخرون يقولون له:"المرء لا يتمالك نفسه من الاعتقاد بأن حالتك تحسنت يا فيدور بافلوفتش ،فانك عظيم السرور رغم كآبتك."و الذي يبرر الازدواجية التي يعيشها هذا الأب ،هو حين سماعه بوفاتها خرج مسرعا إلى الشارع في قمة الفرح رافعا يده إلى السماء "يا رب دع عبدك ينطلق في سلام."(1)

إن ولع "فيدور" بالكذب على نفسه وعلى الناس مبرر أخر على الازدواجية الكامنة في تكوينه النفسي ،حيث كان طوال حياته يظهر على غير حقيقته ،وهذا ما اكتشفه الراهب"زوسيما"Zosime حيث استطاع أن يسبر أغواره النفسية عندما اجتمعت العائلة في الدير،فدعاه إلى تجنب الكذب لا على الناس بل على نفسه كذلك،انه يحب الكذب لأنه يوفر له المهابة والمتعة وبذلك يعيش ازدواجية السلبي والايجابي معا ،وهما بالنسبة إليه شيء واحد.(2) و يرد كبير الرهبان "زوسيما" على كذب ونفاق "فيدور" كالتالي "نفاق قديم وجمل مهترئة .. معروفة وهذه الحركات، لا تخدعني هذه التحيات"قبلة على الشفتين وطعنة في القلب."(.....)إنني أكره الكذب أيها الآباء و أحب الحقيقة."(3)

يضاف إلى ذلك، ازدواجية أخرى تتمثل في الضعف والمرض والعهر والفجور والقساوة في الشهوانية إلى أقصى الحدود و هي تشبه قساوة حشرة رهيبة،وفي نفس الوقت كان يحس في بعض الحالات من السكر بنوع من الخوف وضعف نفسي يرهقانه جسميا.(4)

1-د/ عز الدين إسماعيل،المرجع نفسه ،ص 222 .

2- المرجع نفسه،ص 233..

3-دوستويفسكي ،**الإخوة كارامازوف،تر/ سامي الدروبي**(دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ،القاهرة،الجزء الأول،عدم وجود رقم الطبعة وسنة الطبع) ،ص.220

4- المرجع نفسه، ،ص229،230 .

إن صفات "ديمتري" Dimitriابن الزوجة الأولى الذي حوكم على أنه قاتل أبيه ،هي امتداد لصفات أبيه" فيدور" والتي بدورها انعكاس لشخصية "دوستويفسكي"حيث كان ينتقل في سلوكاته من النقيض إلى النقيض،فمشاعره تتأرجح بين مشاعر الحب النظيفة وبين مشاعر الحب الملطخة بالرذيلة،بين الخطيبة "كاترينا" Katherine والمرأة التي توصف بالعاهرة "جروشنكا"،تخلى عن خطيبته النظيفة و اتجه وراء "جروشنكا" ،رغم أن التجربة أكدت له أنها لم تكن امرأة عاهرة وإنما كانت امرأة تتعذب بالحب وتخلص له أكثر من أية امرأة أخرى ،وقد تصارع عليها هو وأبوه إلى حد جعل "ديمترى" يبيت نية القتل لأبيه .(1)

مرة أخرى تخرج الازدواجية الكامنة في شخصية الروائي "دوستويفسكي"و الأزمة التي يعيشها على المستوى الفكري بطريقة لاشعورية في شخصية الابن "ايفان" لقد كان ملحدا لكنه بدأ حياته بكتابة مقالات دينية ،وهذا يعني أن هذه المقالات كانت ضربا من الخداع ،أي يخدع نفسه بها،و هذا التأرجح بين الإيمان والإلحاد عاشه الفنان وتجسم في شخصية الابن "ايفان".(2)

إضافة إلى ميزة أخرى تميز بها الفنان المبدع وهي حب الحياة فكانت شخصياته الروائية تحب الحياة بشراهة ،وحتى الابن غير الشرعي "سمر دياكوف" الذي انتحر فقد أكد بانتحاره بأن الموت ليس حلا و أنه لا يزيد من المشكلة إلا تعقيدا،و أسرة كارامازوف ككل التي تحكي عليها الرواية هي قصة غريبة في تكوينها النفسي ،فأفرادها كلهم جشعون شهوانيون ،حيث يقول "ايفان" لأخيه "أليوشا" Aliocha (Alexeï)وهما أخوان من الزوجة الثانية ل"فيدور"وهو يحدثه عن حب الحياة"يجب أن نعترف على كل حال أن من السمات الخاصة بآل كارامازوف إرادة الحياة هذه بأي ثمن.لابد أن تكون هذه الإرادة قائمة فيك أنت أيضا(...)الحياة ممتعة و أني لأحيا ولو على خلاف كل منطق أنا لا أؤمن بقيمة النظام الذي يحكم العالم ،لتسلم بهذا.(3) و في مشهد يعبر أصدق تعبير عن الصراع بين "ديمتري" و أبيه من أجل ملذات الحياة وشهواتها،أي المال و وحب النساء"جروشنكا" ،يقول "فيدور" لابنه "ديمتري""أقبضوا عليه لقد ذهب يسرق مالا من غرفة نومي.و استطاع

1-د/عز الدين إسماعيل،المرجع نفسه، "**التفسير النفسي للأدب**"،ص225،226.

2-المرجع نفسه ،ص 229،230 .

3-دوستويفسكي،نفس المرجع الجزء الثاني ،ص41.

فيدور بافلوفيتش أن يتملص من يدي ايفان،فهجم ثانية على ديمتري ،ولكن ديمتري رفع ذراعيه ،و امسك العجوز فجأة من خصلتي شعره الباقيتين على صدغيه،وشده منهما شدا قويا فرماه على الأرض في قرقعة،واتسع وقته كذلك لأن يطرق رأس أبيه بكعب حذائه مرتين أو ثلاث و هو متمدد بين قدميه،فأطلق العجوز من صدره أنينا حادا.و لكن ايفان فيدروفيتش ،رغم أنه لا يملك ما يملكه أخوه من قوة طوق أخاه بكلتا ذراعيه واستطاع أن يبعده عن الأب، وعاونه أليوشا الضعيف على ذلك في حدود طاقته."(1)

4-دوستويفسكي العصابي:يرى "فرويد"أن "دوستويفسكي" كان عصابيا ،و هو دليل على فشل الأنا في التوفيق ،وتحقيق التكامل في شخصيته، فكيف يمكن أن يكشف هذا العصاب عن نفسه .؟ وفيما تجلت أعراضه في شخصية "دوستويفسكي".؟

إن الفنان كان مصابا بالصرع الهستيري Hystéro épilepsie، وهي هستيريا حادة تتسم بنوبات تشنجية* غير متوقعة ،تحدث دون تنبيه أو استفزاز واضحين ،تغير الشخصية في اتجاه الاستثارة والقابلية للعدوانية ،انخفاض تدريجي لنشاط الوظائف العقلية (الذاكرة والذكاء والتخيل) ويصاحب هذه النوبات عض اللسان وعدم التحكم في البول وغياب الوعي في فترات قصيرة أو نوبات الدوار أو الدوخة التي تمر بسرعة ،وقد يقوم المريض في هذه الفترات القصيرة بتصرفات لا تتفق مع شخصيته بطريقة لاشعورية.

أسباب هذه النوبات ليست عضوية و إنما عقلية خالصة ،وهناك حالة واحدة يعود فيها المرض إلى أسباب فيزيولوجية هي حالة هلمهولتز .* Helmholtz

و يعترف "فرويد" بأنه غير متأكد من صحة هذه الفرضية ،لنقص المعلومات حول المرض والخاصة بشخصية "دوستويفسكي"،و لأننا لا زلنا لم نستطع أن نفهم ونتحكم في الحالات المرضية المصاحبة للنوبات ذات الشكل الصرعي تحكما تاما.(2)

1- دوستويفسكي ،المرجع نفسه ،الجزء الأول ،ص335.

*-التشنج: هو إغماء يرافقه عض اللسان وجحوظ العينين واهتزاز في العضلات وصعوبة في التنفس وفقدان الوعي، والصرع هو نوبات تشنجية متكررة.

*-عالم فيزيزولوجيا و عالم نفس مشهور،قام بدراسات مبكرة وهامة على عدد من الحوادث النفسية.

2-سيغموند فرويد ،المصدر نفسه،" **دوستويفسكي و جريمة قتل الأب**" ،ص ص39-41.

يضيف مؤسس التحليل النفسي أعراضا أخرى للمرض، فغالبا ما يصاحب المريض بلاهة واضحة ونقص كبير في المخ،غير أنه ليس مكونا ضروريا من مكونات الصورة الإكلينيكية،لأن هذه النوبات على اختلافها توجد كذلك لدى الأشخاص الذين يظهرون ارتقاء عقليا كاملا ، والنقطة المشتركة بين هذه الأعراض تقوم على نظرة وظيفية تتمثل في ميكانيزم خاص هو التخفف الغريزي*la Décharge pulsionnelle و هو ميكانيزم لا يبتعد عن العمليات الجنسية التي هي في الأصل ذات أصل تسممي Toxique.لأن الأطباء الأوائل وصفوا الجماع le Coït بأنه صرعا صغيرا ،و أدركوا بأنه في النشاط الجنسي تخفيف من الألم ،وبالتالي الأسلوب الصرعي في التكيف عن طريق التخفيف من الرغبات الجنسية ومن المنبهات المثيرة لها.

إن رد فعل الصرعى* la Réaction épileptique يقوم بدور التخلص أو التخفيف بواسطة وسائل جسمية من كميات الاستثارة التي لا يمكن التعامل معها نفسيا ،فتكون النوبة الصرعية عرض من أعراض الهستريا التي في جوهرها تخفيف من الطاقة الجنسية مثلما هو الأمر في العمليات الجنسية العادية.

والدراسات الإكلينيكية تميز بين نوعين من الصرع :الصرع العضوي épilepsie organique تكون فيه الحياة العقلية للشخص خاضعة لاضطراب غريب يأتي من خارجها أي من أسباب عضوية ، والصرع الوجداني épilepsie affective يكون فيه الاضطراب تعبيرا عن حياة الشخص العقلية ، وهذا هو النوع العصابي الذي يدرج "دوستويفسكي" ضمنه ،ويبقى هذا مجرد احتمال لقلة المعلومات حول هذه النوبات وخبرات الروائي والتي كانت غالبا متناقضة،و الفرضية المرجحة هي أن هذه النوبات تجذرت في طفولته وبدأت في شكل أعراض بسيطة ولم تظهر في شكل نوبات صرعية إلا بعد الخبرة التي أرهقت أعصابه وذلك في سن ثامن عشر عندما تم قتل أبيه.(1)

إن النوبات الأولى التي عاناها في سنواته الأولى قبل حدوث الصرع لها دلالة الموت ومبعثها الخوف من

---

*-التخفف الغريزي Instinctual dis charge(باللغة الانجليزية)

*-رد فعل الصرعى the Epileptic reaction(باللغة الانجليزية)

1-سيغموند فرويد،المصدر نفسه ،ص42.

الموت، وتتضمن حالات من السبات و الخدر،و قد أصابه هذا المرض في سنواته الأولى بشكل مفاجئ بلا أسباب أو دوافع كما اخبر صديقه"سولفيف" Solovieff وهي حالة شبيهة بالموت الحقيقي ،و يخبرنا أخوه "أندريا Andrea أن "فيدور"Fédor(و هو الاسم الأول "لدوستويفسكي")في طفولته الأولى كان يترك مذكرات صغيرة قبل النوم ،يقول فيها يخشى أن يستغرق في ذلك النوم الشبيه بالموت ،لذلك يؤجل دفنه خمسة أيام.ما دلالة هذه النوبات بالنسبة لشخصية الفنان.؟ وكيف يفسرها مؤسس التحليل النفسي.؟

إن هذه النوبات الشبيهة بالموت لها قصد يتمثل في التوحد أو التماهي Identification مع شخص سواء كان قد مات فعلا أو ما يزال على قيد الحياة،وإذا كان مريضا يرجو له الموت، والحالة الثانية لها أهمية وأكثر دلالة ،لأن هذه النوبات تحمل معنى العقاب،لقد رغب شخص في موت شخص أخر وهو الآن نفس الشخص الأخر وهو نفسه ميت.

و التحليل النفسي يرى بأن الشخص الأخر بالنسبة للصبي هو أبوه وأن النوبة الهستيرية عقاب ذاتي على رغبة الموت لأب مكروه.فهذه النوبات الصرعية عند "دوستويفسكي" تشير إلى توحده مع أبيه باعتبارها نوعا من العقاب ،وقد أصبحت هذه النوبات مرعبة مثل موت أبيه الذي كان موتا مرعبا .

وبناءا على ما سبق فان "دوستويفسكي" يعاني من الشعور بالذنب ناتج le Sentiment culpabilité de من قصده في قتل أبيه ،و هو يحاول أن يتخلص منه، ولا يتسنى له ذلك إلا بعقاب الذات، وهو ليس ظاهرة فردية بل ظاهرة قديمة مصدرها أول جريمة اقترفتها الإنسانية وهي مقتل الأب البدائي أب العشيرة البدائية.

يتوغل "فرويد" في تحليل العصاب تحليلا سيكولوجيا بالولوج إلى مصدره ويطبقه على حالة "دوستويفسكي"، ومصدره عقدة أوديب نواة الأعصبة ،إن علاقة الابن بأبيه هي علاقة تناقض وجداني Ambivalente فبالإضافة إلى الكراهية التي تدفعه إلى التخلص من أبيه باعتباره منافسا له على الأم ،نجده يكن له نوع من الحب والمشاعر الرقيقة تجاهه ،وهذه الازدواجية في المشاعر تندمج وتشترك في التوحد أو التماهي

---

*-التماهي أو التوحد أو التقمص l'Identification:عملية لاشعورية يكتسب بها الشخص خصائص شخص أخر تربطه به روابط انفعالية قوية ،وهو يختلف عن المحاكاة التي هي عملة قصديه يضع بها الفرد نفسه مكان الأخر وضعا مؤقتا فيتأتى أفعاله و يردد أقواله .

بينه وبين الأب ،فالصبي يريد أن يأخذ مكان أبيه لأنه معجب به و يريد أن يكون مثله ،و لا يتم له ذلك إلا بإبعاده عن طريقه لكن هذا الأمر تواجهه عقبة عسيرة لأنه يدرك بأن هذه المحاولة يعاقب عليها الأب بعملية الخصاء Castration، ومن ثمة يقلع عن رغبته في امتلاك أمه والتخلص من أبيه خوفا من الخصاء وهذا ينطبق على "دوستويفسكي"فرغبته في محافظته على ذكورته و خوفا من الخصاء جعلته يقلع عن امتلاك أمه والتخلص من أبيه ،لكنها بقيت كامنة في اللاشعور تشكل أساس شعوره بالذنب(1).

و يزداد الأمر أكثر تعقيدا عندما تنمو الثنائية الجنسية Bisexualité في الطفل فعندما تتعرض ذكورة الولد إلى التهديد بالخصاء ،يميل إلى الانحراف نحو الاتجاه الأنثوي ليضع نفسه في مكان أمه بدلا من أبيه و يقوم بدور الأم تجاه أبيه حتى يكون موضوعا لحب أبيه،لكن الخوف من عملية الخصاء يجعل هذا الحل كذلك مستحيلا ،ويدرك الطفل أنه إذا أراد أن يحبه والده كامرأة أن يمر بعملية الخصاء ومن ثم فان كلا الدافعين أي الخوف من الأب والوقوع في حب الأم يكبتان .و يسمي "فرويد" العامل الأول من العاملين اللذين يضمران للأب الكراهية المتمثل في الخوف المباشر من العقاب والخصاء بالعامل العادي، و لا تكون خطورته المرضية إلا بإضافة العامل الثاني أي الخوف من الاتجاه الأنثوي.

إذن،هناك ميلا ذكريا أنثويا شديدا متضمنا في المرضى العصابيين وهذا ما يفترض في "دوستويفسكي" وهو بالتأكيد شعر بمثل هذا الميل أو الاستعداد الذي كشف عن نفسه في شكل جنسية مثلية مكبوتة ،من خلال الدور الذي تقوم به صداقات الذكورة في حياته وفي موقفه الرقيق على نحو يثير الإعجاب إزاء منافسيه في الحب ،وفي إدراكه الغريب للمواقف التي لا يمكن شرحها إلا من خلال الشذوذ الجنسي المكبوت كما هو واضح في كثير من الأمثلة في رواياته .(2) ويفترض "فرويد" أن عقدة الشعور بالذنب لدى "دوستويفسكي" تطورت إلى: **السادية المازوشية:**فكيف يحلل ذلك.؟

إن عملية التماهي مع الأب أو تقمص الطفل لأبيه تأخذ مكانا داخل الأنا le Moi،و الأنا تتقبله على أنه مصدرا مستقلا في شكل أنا أعلى Super moi و ينسب إليه كل ما ورثه الابن عن أبيه(وراثة ثقافية والتي من

1-سيغموند فرويد ،المصدر نفسه، **"دوستويفسكي و جريمة قتل الأب"** ،ص43،44 .

2- المصدر نفسه،ص45 .

بينها جملة القيم الأخلاقية التي يؤمن بها أفراد المجتمع) معظم الوظائف،فإذا كان الأب صارما قاسيا فان الأنا الأعلى يأخذ هذه الخصال، ومن ثم تعود السلبية التي يفترض أنها كبتت إلى الظهور في العلاقات بين الأنا الأعلى والأنا ،فيصبح الأنا الأعلى ساديا و الأنا ماسو شيا أي سلبية في قراراتها على النحو الأنثوي ، وهنا تنشأ الحاجة النفسية للعقاب ،فتجعل الأنا من نفسها ضحية للمصير من جهة ، ومن جهة تشعر بالرضى عندما يعاملها الأنا الأعلى بسوء وذلك في إطار الشعور بالذنب.إن كل عقاب للذات هو في نهاية الأمر عملية خصاء ومن ثم إرضاء للموقف السلبي القديم تجاه الأب(كراهية الأب ومحاولة قتله) وإسقاط متأخر له .(1)

و بصيغة أخرى إن أعراض النوم الشبيهة بالموت لدى "دوستويفسكي" ما هي إلا تقمص أو تماهي مع الأب يقوم به الأنا،تعبيرا عن عقاب من الأنا الأعلى للأنا ،يمكن التعبير عنه كما يقول "فرويد" بالصيغة التالية:" لقد أردت أن تقتل أباك لكي تكون أنت نفسك أباك ،و الآن أنت أبوك ميت"فيكون عرض الموت بالنسبة للأنا إرضاء خياليا للرغبة الذكورية(قتل الأب و أخذ مكانه) وفي نفس الوقت إرضاء ماز وشيا ،وهو إرضاء ساديا بالنسبة للأنا الأعلى و كلا الاثنين (الأنا والأنا الأعلى) يقومان بتنفيذ دور الأب.(2)

إن علاقة الذات (الطفل) بموضوع الأب تستمر بمحتواها وتتحول إلى علاقة بين الأنا و الأنا الأعلى ،وهو وضع جديد يعبر عن مرحلة جديدة ،وتختفي هذه الوضعية الأوديبية،لكن شخصية الأب تظل هي نفسها كامنة في لاشعور الطفل ،ومن ثم الاحتفاظ بكراهية "دوستويفسكي" لأبيه ومنه استمرار الرغبة اللاشعورية في موت الوالد الشرير،هذه الرغبة المكبوتة غير قابلة للتحقيق في الواقع لتعارضها مع المنظومة القيمية السائدة في المجتمع،تتحقق عن طريق الخيال أو التهويم ،فيكون الخيال واقعا خصبا حقق فيه "دوستويفسكي" رغبته المكبوتة تجاه الوالد الشرير في رواياته ومن بينها "الإخوة كارامازوف"'.

يتساءل "فرويد" عن علاقة النوبات الصرعية بالدوافع الجنسية: ما هو المحتوى الجنسي الزائد الذي امتصته هذه النوبات.؟

1-سيغموند فرويد ،المصدر نفسه ،ص 46

2-المصدر نفسه ،ص47.

يجيب مطبق التحليل النفسي على المجتمعات ،على هذا السؤال بأنه خلال الفترة المميزة السابقة للصرع يعيش الفرد لحظة من السعادة والبهجة والسرور،و يعقبها خلال الصرع أشد أنواع العقاب قساوة،فالمريض يمر بسلسلة من الفرح والسرور والحزن ،وهذه السيرورة التي يمر بها الفرد العصابي تنطبق على المجتمعات، حيث وجدت هذه الظاهرة عند الإخوة في المجتمعات البدائية عندما يقتلون أبائهم وفي احتفالات الطوطم أو الوليمة الطوطمية،فطقوس الفرح والسرور يعقبها حزن ونكد و ألم.

وإذا تأكد بأن النوبات المرضية عند "دوستويفسكي" توقفت و هو مسجون في سيبيريا فإنها مبرر على أنها عقابا له ،لأنه لم يكن بحاجة إلى عقاب مادام كان يعاقب بطريقة أخرى وهي الأشغال الشاقة، وعقاب "دوستويفسكي" بوصفه سجينا سياسيا لم يكن عادلا ،وهو كان يعلم بهذا دون شك ومع ذلك قبل العقاب على يد الأب الصغير القيصر تعويضا للعقاب الذي كان يستحقه لخطيئته تجاه الأب الحقيقي ،فبدلا أن يعاقب هو نفسه ترك نفسه تعاقب من خلال نائب الأب (القيصر) ويرى أن أفضل تفسير لمحتوى هذه النوبات "قدمه دوستويفسكي نفسه عندما أخبره صديقه "ستراكوف""Stracoff "أن قابليته للاستثارة وشعوره بالاكتئاب عقب كل نوبة صرعية كانا يرجعان إلى حقيقة أنه كان يبدو لنفسه فعلا على أنه مجرم وأنه لم يستطع أن يتخلص من الشعور بأنه يحمل عبئا ثقيلا من الشعور بالذنب على كاهله ،و أنه قد ارتكب بعض الآثام الكبيرة التي أصابته بالغم الشديد،و في مثل هذه الاتهامات الموجهة إلى الذات فان التحليل النفسي يرى علامات على المعرفة بالواقع النفسي ومحاولات لجعل الذنب المجهول معروفا أمام الضمير."(1)

يصرح "فرويد" بأنه على ثقة تامة بأن "دوستويفسكي" لم يتخلص من المشاعر الناتجة عن قصده في قتل أبيه،هذه المشاعر كان لها تأثير في تحديد موقفه الفكري في المجالين الآخرين اللذين تعد العلاقة الأبوية فيهما عاملا حاسما أي موقفه من سلطان الدولة وموقفه من الإيمان بالله ،حيث يقول"و يمكننا أن نقول ونحن على ثقة تامة بأن دوستويفسكي لم يتحرر أبدا من مشاعر الناجمة عن رغبته في قتل أبيه ،وأن هذه المشاعر قد قامت أيضا بتحديد اتجاهه في مجالين آخرين كانت فيهما العلاقة بالوالد واضحة هي سلطة الدولة و أيضا اتجاهه نحو

1-سيغموند فرويد المصدر نفسه، **"دوستويفسكي و جريمة قتل الأب"**، ،هامش الصفحة 49.

الاعتقاد في الله. وبالنسبة للاتجاه الأول فقد انتهى به الأمر إلى الخضوع التام لأبيه الصغير القيصر(.....) وفي المجال الديني كانت هناك حرية اكبر أمام دوستويفسكي ،فوفقا لما تذكره التقارير الموثوق بها حوله فانه قد تذبذب حتى اللحظة الأخيرة من حياته بين الإيمان والإلحاد."(1)

ويمكن تلخيص عصاب "دوستويفسكي"كالتالي: عقدة أوديب التي عاشها الفنان ولدت الشعور بالذنب تجلى في شكل نوبات صرعية شبيهة بالموت تعبر عن توحد الفنان بأبيه ،وتحمل هذه النوبات معنى العقاب والرغبة في موت الوالد الشرير ،وقد تطورت عقدة الشعور بالذنب إلى عقدتي السادية والماسوشية تشكلت في علاقة الأنا(الطفل) بالأنا الأعلى (الأب) فأصبحت الأنا ماسوشية و الأنا الأعلى سادية،وقد اختفت العلاقة الأوديبية لدوستويفسكي بأبيه لكنها بقيت كامنة في لاشعوره ،أي استمرار الكراهية للأب الشرير ومن ثم الرغبة اللاشعورية في موته ،هذه الرغبة لا يمكنها أن تتحقق في الواقع لتعارضها مع مقتضيات المجتمع والدين ،عبرت عن نفسها بطريقة لاشعورية في صور خيالية أو تهويمات تجسمت في موضوعات وشخصيات رواياته .

لكن كيف تجلت هذه الأعراض المرضية في شخصيات الفنان الروائية.؟ وكيف انعكس الصراع النفسي الذي عاشه الفنان على هذه الشخصيات.؟

إن مجموع الصفات النفسية والسلوكية التي يتصف بها الروائي خلعها على الأب "فيدور"،لقد كان "دوستويفسكي"يكره أباه ويتمنى له الموت،تجلى هذا في كرهه لهذا الأب ،فلم يذكر له أي فضيلة يستطيع أن يتحدث بها الناس عنه بعد موته،وكأنه يريد أن يقول بأن هذا الأب يستحق أن يغتال،وقد قالها على لسان محامي الدفاع حين قرر بان "فيدور" لا يستحق أن يطلق عليه اسم الأب لأنه لا يستحقه ، وكأن "ديستويفسكي" باختياره لهذا النمط من الأب يبرر لنفسه قتله ،وكأنه بذلك يدافع عن نفسه جراء قصده في قتل أبيه ،ويخفف عليها أثر الشعور بالذنب.(2)

و في تصريح لوكيل النيابة"هيبوليت كيريلوفاش" يصف الأب الشرير الفاجر الذي لا يكترث لأبنائه و لا يبالي بهم والذي يستحق الموت بقوله"أنظروا أولا إلى ذلك العجوز الشقي ،ذلك الفاسق الجريء ،ذلك "الأب"

1- سيغموند فرويد، نفس المصدر ص48،49 .

2- د/ عز الدين إسماعيل،المرجع نفسه ، **"التفسير النفسي للأدب"** ، ،ص223

الذي لقي مصيرا حزينا تعيسا ،لقد بدأ حياته طفيليا مسكينا رغم نبالة محتدة(...)لم يكن الرجل في ذلك الحين إلا غشاشا ضيق المدى ومهرجا يتملق الأقوياء.(....)وتختفي المذلة والاستكانة وتزول الزلفى والمداهنة ،ولا يبقى من الرجل إلا إنسان فاجر عاهر،إنسان شرير خبيث ساخر.غابت الحياة الروحية من نفسه غيابا تاما."(1)

كان "دوستويفسكي" ساديا ماسوشيا وهي صفة أسقطها على الأب"فيدور"فمثلا عندما ينتهي ب"فيدور" إلى الموت يكون قد حقق الارتياح لنفسه من الناحية السادية والماسوشية،فمن الناحية السادية فقد تم إبعاد الأب والتخلص منه ،و أما من الناحية الماسوشية فقد وقع القتل(أي التعذيب) على الأب السادي الماسوشي، وهو عندئذ الأب الذي يتقمصه "دوستويفسكي" وهذا يعني أن العقاب وقع على "دوستويفسكي" نفسه،تخفيفا من غلواء الشعور بالذنب ،وهكذا كانت العلاقة الوطيدة بين شخصية الفنان وشخصيته الروائية الأب "فيدور".(2)

إن الشعور بالذنب الذي يتأجج في ضمير"دوستويفسكي"أسقطه على الابن "ديمتري" الذي نعلم أنه لم يقتل أباه حقيقة ،لكنه قتله في نفسه منذ أمد بعيد ،وظل شعوره بالذنب يؤرقه طوال حياته ،ويظهر هذا في حديثه عن الحلم المزعج"حلم يراودني في أكثر الأحايين..."والمدلول النفسي لهذا الحلم هو أن الشخص الذي يلاحق "ديمتري" دائما و يعرف مكانه ،هو ديمتري نفسه ،إن نفسه تلاحقه أو شعوره بالذنب يعذبه لذلك يلجأ إلى شرب الخمر وملذات الحياة حتى يتخلص من هذه المعاناة .(3)

ومن جهة أخرى التحليل النفسي لهذا الحلم المفزع يثبت بأنه يقابل النوبات المرضية التي كانت تصيب "دوستويفسكي" والتي توقفت أثناء نفيه إلى سيبيريا ، هذا الحلم له دلالة تتمثل في انه يحمل في ذاته عقاب للذات(الماسوشية) من خلال جريمته وله أثر يتمثل في التخفيف من عذاب الشعور بالذنب.كما أن "ديمتري" الذي حوكم بدعوى قتله لأبيه لم يبدي أي رغبة في الدفاع ،فكلما حاول أن يقدم مبررات لصالحه جاءت هذه المحاولة سخيفة، وفي هذا يتفق "دوستويفسكي" الذي يقال أنه لم يرفض الحكم رغم أنه يعلم بأنه غير عادل

1-دوستويفسكي المرجع نفسه، **"الإخوة كارامازوف"**، الجزء الثالث ،ص 410

2- د/ عز الدين إسماعيل. المرجع نفسه،ص224

3- المرجع نفسه ،ص 227

عندما عقب كسجين سياسي ونفي إلى سيبيريا ،وهكذا يكون الحل الذي أدخله الفنان في الرواية يدخل في نطاق تجربته الشخصية.(1) و هو بهذا صورة عاكسة لشخصية "دوستويفسكي" الذي كان هو أيضا يعاني من المرض." من الحقائق الجديرة بالملاحظة أن دوستويفسكي قد قام أولا بعملية نسب لمرضه الخاص،أي ذلك الصرع المزعوم إلى "ديمتري" كما لو كان يريد الاعتراف بأن الجانب الصرعى العصابي بداخله عبارة عن جريمة قتل الأب."(2)

يتجسم عقاب الذات مرة أخرى في الابن الأول للزوجة الثانية "ايفان" الذي في الحقيقة لم يكن ينشد المال عندما أغرق في القمار بل كان ينشد العذاب،و هو بهذا يتفق مع "دوستويفسكي" الذي لم يكن غرضه جمع المال عندما اختار طريق القمار بل كان ينشد عقاب الذات ،وقد كان يعاني من هذيان ،يعتقد من خلاله أنه يكلم الشيطان، وفي الحقيقة أن هذا الشيطان ليس سوى ذاته(3)،وعلة هذا أنه روع ل"سمر دياكوف" الابن غير الشرعي ل"فيدور" بإباحة كل شيء حيث كان يقول:" كل شيء مباح ،كل شيء مشروع،كل ما يشتهيه الإنسان في هذا العالم حلال ،ما ينبغي أن يحرم بعد الآن." و قد فقد الخادم "سمردياكوف" صوابه بتأثير هذه الأفكار،و بتأثير مرضه ،مرض الصرع،في حياته العقلية.(4)

ومعنى هذا أنه أوحى إليه بطريقة غير مباشرة إلى قتل أبيه وما على الخادم إلا التنفيذ،ثم سافر إلى موسكو،و عندما عاد وبلغه مقتل أبيه واتهام ديمتري ارتاح نفسيا ،لكنه بمجرد أن زار"سمردياكوف" و صرح بأنه هو الذي قتل الأب و سرق ماله ،عند ذلك اعتقد بأنه هو المسئول خاصة بعد سماعه لخبر انتحار "سمردياكوف"،حيث أصيب خلالها بنوبة حادة ،خيل له فيها أن الشيطان قد زاره ،و أضحى يتحاور معه ،و قد طلب منه الشيطان أن يذهب إلى المحكمة في اليوم الموالي ويصرح بالحقيقة بأن هو الذي أمر"سمردياكوف"

1- د/ عز الدين إسماعيل، المرجع نفسه،ص،228،229

2-سيغموند فرويد،المصدر نفسه ،ص .51،52

3-د/ عز الدين إسماعيل،المرجع نفسه ،ص.230

4-دوستويفسكي،المرجع نفسه، الجزء الثالث ،ص412.

بقتل الأب أي هذا الهذيان يعبر عن تقمص تلقائي من ايفان ل"سمردياكوف"وبهذا يجد وسيلة للعقاب يعاقب بها نفسه تخفيفا من غلواء الشعور بالذنب.(1) وها هو "ايفان" يمنح المال لحاجب المحكمة الذي بدوره قدمه للرئيس هذا المال الذي سرقه "سمر دياكوف" لأبيه والذي بسببه قتل أبيه ، وقد سأله الرئيس":"كيف وجد هذا المال معك.؟ أ هو ذلك المبلغ نفسه فعلا.؟....أخذته أمس من سمر دياكوف،من القاتل.زرته قبل انتحاره ببرهة قصيرة.انه هو الذي قتل أبي ، ليس أخي القاتل. سمردياكوف هو الذي قتل،و أنا الذي حرضته على ذلك ودفعته إليه. ومن ذا الذي لا يتمنى موت أبيه.؟ صاح الرئيس على غير إرادة .منه:-أأنت تملك عقلك كاملا.؟- المصيبة هي أنني أملك عقلا كاملا ...وهو عقل قذر من جهة أخرى، لا يقل قذارة عن عقولكم أنتم وعن عقول جميع هؤلاء الأغبياء البلهاء.(....)ثم أضاف ملتفتا نحو الجمهور هم جميعا قتلوا أبائهم ،ثم يتظاهرون بالهول والروع(...) إنهم جميعا يتمنون موت أبائهم.السراطين يأكل بعضها بعض."ثم نهض أخيه أليوشا من مكانه صائحا انه مريض لا تصدقوه ،انه مصاب بنوبة حمى حارة." (2)

إن هذه العبارات تحمل دلالة صريحة على "عقدة أوديب" التي يعيشها كل إنسان وما يتبعها من تمنيات الموت للأب ،و ما ينتج عنها من شعور بالذنب يتأجج في نفسية كل الأشخاص،اتخذ شكل هذيان يناجي فيه"ايفان" الشيطان"سمردياكوف"، حيث قال عندما طلب منه رئيس المحكمة الأدلة " ليس عندي شهود.إن ذلك الكلب سمردياكوف لن يرسل إليكم اعترافه من السماء ...في ظرف (...) اللهم إلا شاهدا واحدا (...) إن له ذيلا يا صاحب السعادة، وليس يتفق والنظام أن تسمع شهادته هنا.الشيطان لا وجود له البتة .(...) لا تلقوا إليه بالا انه شيطان تعيس حقير لا شك في أنه مختبئ بمكان هنا،ربما تحت مائدة وثائق الإثبات."(3)

مثلما يعاني أفراد أسرة "كارمازوف" الذين تحدثنا عنهم من الشعور بالذنب وعقاب الذات (الماسوشية) يعاني الابن الثالث"أليوشا"و هو ابن الزوجة الثانية هو الأخر من الشعور بالذنب و ينشد العذاب ،ويتجلى عند ما تحدث أخوه"ايفان"عن الآباء الذين يعاقبون أبناءهم بالضرب ،حيث قال له "ايفان" "ألاحظ أنني أعذبك بهذا

1-- د/عز الدين إسماعيل،المرجع نفسه "**التفسير النفسي للأدب**" ،ص ص 230-232.

2-دوستويفسكي ،المرجع نفسه ، الجزء الثالث ،ص390،391 .

3- المرجع نفسه والجزء الثالث ،ص392.

الحديث يا أليوشا ،إن فيوجهك حزنا وشقاء ،سأمسك عن الكلام إن شئت.تمتم أليوشا ليقول:لا...إنني أحب أن أتألم أنا أيضا." (1) إن التحليل النفسي للجملة الأخيرة يثبت بجلاء أن أليوشا كان مازوشيا و هي الصفة التي اتصف بها "دوستويفسكي" و أسقطها على شخصياته الروائية ،كما أنه ارتبط كثيرا بأمه لقد أحبها وتعلق بها كثيرا رغم أنه فقدها قبل أن يكمل الرابعة من عمره،لكن صورتها بقيت مرسومة في ذاكرته،يتخيلها طوال حياته،وقد ساهمت هذه العلاقة مع أمه في تشكيل نفسيته إلى حد كبير،وقد ظهر فيه ميل نحو الطبيعة الأنثوية ،لأنه عاش بعيدا عن أبيه و انتقلت رعايته من سيدة إلى أخرى،وهذه المرحلة أي الطفولة هي العمود الفقري في تكوين شخصية الإنسان حسب التحليل النفسي ، قد اعتنق حياة الرهبنة لأنه وجد فيها ملجأ لروحه التي كانت تناضل من أجل الخروج من ظلمة الشر إلى نور المحبة التي افتقدها في طفولته نتيجة وفاة أمه ،وقد ساعده في ذلك الراهب"زوسيما "و هو أول رجل شعر أليوشا بالانجذاب إليه لأنه رأى فيه البديل عن أمه،و لهذا السبب لما عرف وفاة الراهب حزن كثيرا ،حيث كان يختبئ خلف ضريحه و يذرف الدموع ،بينما لم يذرف دمعة واحدة لما سمع بمقتل أباه،لأن هذا الأب الشرير قد قضى على أمه وحرمه من حبها ،وبذلك يكون عدوه ،و لابد أن يكون شعور "أليوشا" نحو هذا الأب شعور المقت والضغينة.(2)

و يرى مؤسس التحليل النفسي أن جميع الأخوة متساوون في الإدانة على جريمة قتل الأب باستثناء "أليوشا"،رغم أن الذي نفذ الجريمة الخادم"سمردياكوف" ، يرتبط بالقتيل بعلاقة البنوة ،فهو ابن غير شرعي له.و يرى "فرويد " أنه لا يمكن أن نفسر بالصدفة أكبر الأعمال الأدبية في جميع الأزمان وهي "مأساة أوديب" ل"سوفوكل" و"هملت" ل"شكسبير" و "الإخوة كارامازوف"ل"دوستويفسكي" تتناول كلها لموضوع واحد هو قتل الأب،و أن الدافع لارتكاب الجريمة واضحا في كل هذه الأعمال الثلاثة هو المنافسة الجنسية على المرأة.(3)

و كخلاصة للدراسة التحليلية لعملاق الأدب الروسي "دوستويفسكي" أنه ليس كاتبا فحسب بل هو فيلسوف و عالم نفس و رجل دين و مربي وعالم إجرام ،اختزل بطريقة لاشعورية صراعاته النفسية ،و حالاته المرضية

1-دوستويفسكي ،المرجع نفسه ،الجزء الثاني،ص66.

2- د/عز الدين إسماعيل،المرجع نفسه ، ص335،336..

3- سيغموند فرويد، **"دوستويفسكي و جريمة قتل الأب"**، ،نفس المصدر،ص50.

العصابية، والفقر والمعاناة التي عاشها و أفكاره الفلسفية ونظرته الخاصة للوجود كتجربة خاصة،مجسدة في قالب إبداعي، تستخلص منها الإنسانية الدروس في مختلف مجالات الحياة، النفسية و الفكرية و الاجتماعية والسياسية. و نشير إلى أن دراسة "فرويد" للفنان الايطالي كانت في حدود فرديته بينما في دراسته لشخصية "دوستويفسكي" فقد عرض الأثر الروائي و لصاحبه بدراسة تحليلية أفضت إلى مميزات هذه الشخصية وفلسفتها بداية من جذورها و هي مرحلة الطفولة و انعكاساتها على مادة موضوعاته الروائية وشخصياته.

و بصورة مقتضبة للإبداع الفني عند الفرويدية، يمكن أن نقول الفنان إنسان يعاني من العصاب المرتبط باضطراب الطاقة الليبيدوية في مرحلة الطفولة ،و السلوك الإبداعي ما هو إلا امتداد لخبرات وذكريات الطفولة(مركب أوديب) ،فحين يتعذر الإشباع الكامل للرغبات الجنسية في الحياة الواقعية ،تبرز قنطرة تؤدي إلى الإبداع الفني هي التسامي ،بحيث يتحول مجرى الطاقة الجنسية إلى نشاطات أخرى،تتمثل في عمليات الخلق والإبداع عند الفنان. ومنه نكون قد توصلنا إلى إجابات "فرويد" للتساؤلات الثلاث :ما مصدر الإبداع الفني.؟ هو اللاشعور. ما هي علته.؟ هو ضغط مركب أوديب في مرحلة الطفولة ،أي تعذر الإشباع للرغبات الجنسية في الواقع تحت ضغط الكبت ،هذا الكبت الذي تتلخص وظيفته في منع النزعات النفسية من السير في طريقها الطبيعي لكنها تبقى مختفية في اللاشعور وهي تحاول دائما أن تطفو إلى السطح لكن الأنا الأعلى يمنعها من الظهور والتحقق في والواقع بحجة تعارضها مع مقتضيات المجتمع والدين. و كيف يتم .؟ يتم بالقنطرة التي تسهل مرور الطاقة إلى مجالات غير جنسية هي "التسامي، التصعيد، الإعلاء"

إن الرغبات الجنسية المكبوتة في اللاشعور تتخذ ثياب رمزية في أشكال متعددة من بينها اللعب الأحلام و والنكتة،فهي الحلقة التي تربط العمل الفني بالنوازع الجنسية المكبوتة الأوديبية ،فكيف تساهم هذه الأشكال في الإبداع الفني.؟

المبحث الثاني :اللعب ،الأحلام ، النكتة ودورها في الإبداع الفني،و طبيعة الذوق الجمالي

أولا-اللعب والإبداع الفني:إذا كانت مرحلة الطفولة في الفرويدية تمثل أساس الشخصية ومصدر لكل نشاطات الإنسان العلمية والأدبية والفنية والتي من بين مميزاتها هو نشاط الطفولة المتمثل في اللعب ،فانه لابد لنا أن

نتساءل عن كيف يكون اللعب مصدر للخلق الأدبي والفني أو ما هي الآثار الأولى للفاعلية الإبداعية.؟

ينظر رائد التحليل النفسي إلى الخلق الأدبي و الفني في علاقاته بنشاطات بشرية ثلاثة ،هي: اللعب و التخيل والحلم ،والفنان أو الكاتب له مرونة في التعامل مع الكبت ،فمن خلاله تكوينه لعالم خيالي يفعل نفس ما يفعله الطفل و هو يلعب والمراهق وهو يتخيل و الراشد وهو يحلم أحلام اليقظة و أحلام النوم.(1)

إن الإبداع الأدبي والفني يشبه اللعب لأن الطفل وهو يلعب يكون مثل الشاعر يصنع عالما خاصا به ينظم من خلاله أشياءه التنظيم الذي يوافقه فيحقق المتعة لنفسه وان كان لا ينظر إلى العالم نظرة جدية لكنه ينظر إلى هذا العالم الخاص به والذي صنعه من خلال ألعابه نظرة تحمل كثيرا من الجد ،لأنه شارك في بنائه بكل انفعالاته."إن الفاعلية الأثيرة و الأكثر كثافة لدى الطفل هي اللعب، وربما لنا الحق في أن نقول أن كل طفل وهو يلعب يسلك سلوك الشاعر،من حيث أنه يخلق لنفسه عالما خاصا أو على نحو أكثر دقة ،ينقل أشياء العالم الذي يعيش فيه إلى نظام جديد موافق له تماما .و قد يكون عندئذ غير صائب قولنا انه لا يحمل العالم محمل الجد، انه على العكس تماما ،يحمل لعبه محمل الجد كثيرا،فيستخدم مقادير كبيرة من الحالات الانفعالية."(2)

إن هذا التمثل أو التشبه بين اللعب و الإبداع الفني لا يعد عملا ساذجا كما يتبدى للبعض بل له معنى ودلالة عظيمة ،لأن اللعب في نظره ليس ضد الجدي بل هو ضد الواقع ،فالواقع المعارض للرغبات يتحول في لعب الطفل إلى واقع يسمح له بإشباع هذه الرغبات " فليس الجدي عكس اللعب بل الواقع ،و على الرغم من كل توظيف للحالة الانفعالية ،فالطفل يميز تمييزا جيدا عالم ألعابه من الواقع و يبحث عن نقطة إسناد للموضوعات و الأوضاع التي يتخيلها في الأشياء الملموسة و المرئية من العالم الخارجي."(3)

ويشبه "فرويد" الشاعر بالطفل الذي يلعب عندما يصنع عالما من الخيال يغير فيه واقع ما ، يقتدي به غيره وينظر إليه نظرة جدية، ساهمت فيه انفعالاته كالقلق و الألم من أوضاع اجتماعية مزرية " ويفعل الشاعر كما يفعل الطفل الذي يلعب ، انه يخلق لنفسه عالما متخيلا يحمله محمل الجد كثيرا،أي انه يخصه بمقادير كبيرة من

1-د/شاكر عبد الحميد، المرجع نفسه ،**التفضيل الجمالي و سيكولوجية التذوق الفني** "، ص136 .

2-أنزنو فرويد ابرهام مايري بونابرت،المرجع نفسه ، **"التصعيد دروب الإبداع"** ،ص74. من مقال فرويد "الإبداع الأدبي والحلم المستثار"

3-المرجع نفسه،ض74.

الحالات الانفعالية."(1)

و الدليل على أن هناك علاقة بين الإبداع والطفولة هو أن كلمة (spiele) في اللغة الألمانية تعني (ألعاب) تطلق على مقادير الحالات الانفعالية في الإبداعات الأدبية. (2) فالطفل و هو يتقدم في العمر لا يتخلى عن خبرته السابقة التي استمدها من اللعب بل يستبدل شيء بشيء أخر،فهو يلجأ إلى مخيلته بدلا من اللعب." وهكذا يكف من تقدم في العمر عن أن يلعب أنه يتخلى في الظاهر عن اللذة التي كان يستمدها من اللعب ،و لكن كل عارف بحياة الإنسان النفسية يعلم أنه ليس ثمة على وجه التقريب شيء أكثر صعوبة عليه من التخلي عن استمتاع خبرة أنفا. والحقيقة أننا لا نحسن التخلي عن شيء و لا نتقن سوى أن نستبدل شيئا بشيء أخر،فما يبدو أنه تخلي، ليس الواقع سوى تكون أنابي ، ولهذا السبب ،فان المراهق و هو يترعرع ،لا يتخلى عندما يعكف عن اللعب عن شيء أخر سوى البحث عن نقطة إسناد في الأشياء الواقعية ،انه يعكف الآن بمخيلته بدلا أن يلعب ،و يبني قصورا في اسبانيا و يتابع من نسميه الأحلام المستثارة." (3)

و قد أشار "فرويد" إلى أن الكثير من الأشياء إذا كانت واقعية لا تثير أية متعة ،لكنها إذا حدثت من خلال اللعب الخاص بالتخيل، فإنها تحقق المتعة والسرور.و الكثير من الأشياء تكون مصدرا للقلق والضيق لكنها تصبح مصدرا للفرح والسرور لدى المشاهدين والمستمعين عندما تتحول إلى أعمال فنية يلعب التخيل فيها دورا كبيرا في شكل فكاهة.

وهكذا تكون طبيعة النشاط الفني مستمدا من نشاط اللعب عند الأطفال ومن ذكريات الطفولة وخبراتها المتسمة بالحيوية والتلقائية، وبذلك يكون "فرويد" قد سبق كثير من الكتاب و الفنانين المحدثين،الذين فصلوا في هذه النقطة.(4)

و نقطة الاختلاف بين لعب الأطفال وعمل المخيلة المستمد منه،هو أن نشاط المخيلة أصعب بكثير،لأن الراشد

1-- أنزنو فرويد،أبراهام ،مايري بونابرت، المرجع نفسه، والصفحة (74)

2- المرجع نفسه،ض.74

3- المرجع نفسه ،ص75.

4--د/شاكر عبد الحميد، المرجع نفسه، ،ص .136.

يخجل باستيهاماته و يخفيها عن الآخرين ويعتبرها أكثر خصوصية و يخشى من الخطيئة ،بينما الطفل لا يلعب إلا من أجل نفسه و لا يختبئ أو يخشى من الآخرين،و اللعب عند الأطفال توجهه رغبات التي تساعد على تربيتهم،و هي الرغبة في أن يصبح كبيرا راشدا ،وعلى هذا الأساس نجده يقلد في ألعابه الكبار،فهو يلعب "لعبة الكبير" . وليس لديه داع لإخفاء هذه الرغبة على خلاف الراشد الذي يطلب منه أن لا يلعب بل المطلوب منه أن يؤثر في العالم الخارجي باستيهاماته ،بدافع الرغبات التي تحركه،و لهذا يخجل من بعض الاستيهامات،لأنه يحس بها طفولية ،غير ناضجة وممنوعة.(1)

ثانيا- الأحلام والإبداع الفني: يرتبط البحث في ميدان الأحلام و دورها في الإبداع الفني بالبحث عن حقيقتها و دورها في التخفيف من حدة الصراعات التي يعيشها الفرد ،والاهتمام بهذه المادة ،قديم قدم النفس البشرية ،فقد كانت الشعوب البدائية تهول من أمر الأحلام ،لأنهم كانوا يعتقدون بأنهم يرون في منامهم صورا تأتي من وراء الطبيعة ،فتكون الأحلام رسائل من كائنات إلهية تعبر عن إرادات إلهية تتجاوز مستوى البشر،لذلك اهتم هؤلاء البدائيون بتفسيرها لمعرفة مدلولات الغيب وما هو مسطر لهم من طرف القدر،و سمي هذا بفن "التأويل" أو بفن "العرافة".

غير أن المعلم الأول"أرسطو"أرسى المنحى النفسي في دراسة الأحلام فالأحلام في نظره ليست لها علاقة بالميتافيزيقا، وهي ليست رسائل خارقة للطبيعة تبعثها إلينا الآلهة بل هي نوع من النشاط النفسي يصدره النائم حسب الظروف التي يكون عليها في نومه.(2)

إن الحلم في نظر مؤسس التحليل النفسي نشاط نفسي يحمل دلالة و معنى و يهدف إلى تحقيق رغبات مكبوتة تساور الحالم ،نستطيع دراستها بمنهج علمي هو منهج التحليل النفسي و هو بهذا يعارض أراء العلماء الذين يرون بأن الأحلام شيئا غير منطقيا لا يمكن تحليله تحليلا علميا "أما أنا فأرى أن الأحلام مجرد علامات تدل على عمليات نفسية فعلية وما علينا إلا أن نعثر على مفتاح "شفرة" هذه العلامات حتى نصل إلى المعنى الحقيقي

1-أنزنو فرويد،أبراهام،مايري بونابرت،المرجع نفسه،ص76.

2- سيغموند فرويد، **تفسير الأحلام ،تبسيط وتلخيص د/نظمي لوقا** (دار الهلال،مصر 1962م،عدم وجود رقم الطبعة) ص20.

والطبيعي للأحلام."(1) وهي ترتبط بالواقع تمثل استمرارا لما كان يشغل الفرد في مرحلة اليقظة ويستدل فرويد بوجهة نظر "كونراد بور داخ"Konrad bourdakh،*و هو شاعر ألماني عاش في القرن 19م الذي يقول"إن الحلم لا يبعدنا عن الواقع .بل هو على العكس يعود بنا و نحن نيام إلى ما ابتعدنا عنه من شواغل اليقظة."(2) وعلى هذا الأساس يكون للأحلام مغزى وهدف رغم أنها تأتي في الغالب غير متماسكة و مفككة ،و قد استنتج "فرويد" هذا من خلال عرضه وتحليله لمجموعة من الأحلام حدثت له ولمرضاه"أنا لا أعارض في أن للحلم مغزاه سواء كان متماسكا أو مفككا وهذا المغزى هو ما توصلت إليه بمنهجي الجديد."(3)

إن الرغبة المحققة في الحلم والتي لم يستطيع الشخص أن يحققها في الواقع لمعيقات أخلاقية واجتماعية ترتبط باليوم السابق للحلم ،وقد تكون في الغالب ذات طبيعة نكوصية ترتبط بمرحلة الطفولة(4)، لكنها لا تكون صريحة بل غالبا ما يشوبها التشويه لأن في الحلم قطبان ،الأول:يتمثل في الرغبة التي يريد الفرد أن يحققها النائم وهي رغبة جنسية تنبع من اللاشعور،والثاني الرقابة التي تمنع الرغبة من التحقق إذا لم ترضى بها فهي مثل حرس الحدود الذين يمنعون الأشخاص غير الشرعيين من الدخول ،ولهذا السبب تأتي الأحلام في صور رمزية مشوهة فتلبس أزياء و أشكال غريبة حتى تفلت من الرقابة ،فتكون تعبير غير مباشر للرغبات ،بحيث يحدث تفكك واضح و عدم التناسق بين الأجزاء(5) أي هذه الرغبات تأتي في صورة خيالات و استيهامات* les fantasmes،تتحقق عن طريق:أولا تحويل الرغبات إلى أفكار،ثم تحويل الأفكار إلى صور تستمد من تلك الصور المحفوظة في الذاكرة، تؤدي وظيفة تتمثل في التخفيف من حدة الصراعات الداخلية التي يعيشها الفرد

1-سيغموند فرويد،المصدر نفسه،ص 24.

*-كونراد بور داخ(1859-1936م) :أديب ألماني.

2- المصدر نفسه،ص 15.

3-المصدر نفسه ،ص37.

4-المصدر نفسه ،ص57.

5- المصدر نفسه ،ص47.

*-الاستبهام:منظومة من الصور أو سيناريو متخيل يحقق فيه الفرد رغبة لاشعورية في نهاية المطاف أو هو امتثال ذهني قريب من الحلم أو أحلام اليقظة،و الاستبهام شعوري ولاشعوري،ووظيفة الشعوري الذي يتجلى في أحلام اليقظة وفي الإنتاج الأدبي والشعري أن يصحح واقعا غير مرض،بينما الاستبهام للاشعوري لا يعرف إلا من خلال الأحلام و الأعراض المرضية، وهو منطلق الإبداع الفني و الأدبي.

في حياته الواقعية.

إن الأمنيات السرية أو الرغبات المكبوحة تتحول إلى قصة بلا رأس و لا مؤخرة تؤلف سلسلة غريبة من الصور و الأقوال و الأفعال تعرف بالمحتوى الظاهر للحلم.(1) هي لغة رمزية ملتوية ملغزة تعبر عن المضمون الخفي و المستتر للحلم ،أي تشير إلى رغبة لاشعورية ،فيكون للحلم شكل ظاهري و محتوى باطني"نخرج بهذا بأن في الحلم تيارين،أحدهما سطحي و الأخر خفي ،و التيار السطحي إنما هو تعبير بطريقة "ملغزة" غالبا وملتوية عن التيار الخفي ،و لذلك يجب علينا أن نستخدم الفطنة لنعرف مدلولات تلك"اللغة الهيروغليفية" التي يعبر بها المضمون النفسي للحلم عن أغراضه."(2)

نتيجة الرقابة الشعورية على العمل الحلمي،رغم أن هذه الرقابة تكون ضعيفة في الحلم مقارنة بحالة اليقظة،فيحدث التشويه ،و يعبر اللاشعور عن نفسه بميكانيزمات أو عمليات أولية تتمثل فيما يلي:

1-**التكثيف Condensation**:بواسطته يتم تمثيل المدى الكبير من الصور والأحداث بصورة واحدة " فلو كتبت ما أراه في الحلم لما استغرق أكثر من بضع سطور،ولكن تعقب الذكريات المتصلة بهذه الصور، وما فيها من تأويل لابد أن يستغرق صفحات ،ثم لو أني تابعت التفسير بعد ذلك و التحليل لوجدت مزيدا من الذكريات يشير إليها الحلم ، وهذا الشيء يقارب في العمليات الكيميائية عملية التكثيف ،فمن سحابة من البخار نخرج بدلو من الماء(....) و ما يجب أن نسلم به هو أن بنية الحلم جاءت نتيجة عملية تقطير أو تكثيف معقدة."(3)

فمثلا إنسان يكره أبيه يتم تكثيف و تجميع كل صفات الأب المرفوضة في رجل أخر،و تكون هذه العلاقة رمزية بين الرجل و بين الأب كتشابه رمزي في بعض الملامح أو بعض حروف الاسم ،و تسمى هذه العملية ترميز . Symbolisation

2-الإبدال أو الإزاحة Dis placement:هو انتقال الطاقة النفسية من شيء جوهري إلى شيء هامشي و من ثم نضفي أهمية كبيرة على الشيء الذي كان أقل أهمية.(4)"وهذا الإبدال من شأنه أن يبعد الذهن عن المضمون

1-د/ عز الدين إسماعيل، **"التفسير النفسي للأدب"** ،المرجع نفسه،ص23..

2-سيغموند فرويد ،المصدر نفسه،" **تفسير الأحلام"** ، ص.76

3- المصدر نفسه ،ص.77

4- د/ شاكر عبد الحميد ،المرجع نفسه **"التفضيل الجمالي و سيكولوجية التذوق الفني"** ،ص381.

السري للحلم ،و يجعل مهمة التفسير عسيرة ،فان الأشياء التي تشد اهتمام النفس بها هي أكثر الأشياء تعرضا للإبدال."(1) فمثلا الإنسان الذي يحمل كراهية لأبيه و هو لا يستطيع أن يعبر عن هذه الكراهية في اليقظة نظرا لما يحمله رمز الأب من معاني الاحترام و التقدير،فيحدث تحويل لهذه المشاعر العدوانية نحو صورة رجل أخر في الحلم.

3-شروط القابلية للتمثيل أو التمثيل البصري la Représentation visuel:و يكون هذا محتملا من خلال تمثيل أفكار معينة بواسطة صور بصرية.

4- المراجعة الثانوية :la Révision secondaireو يكون هذا ممكنا عن طريق فرض التمسك المنطقي والسردي على التيار المتدفق للصور.(2) إن بعض الأحلام جاهزة في منطقة اللاشعور و تنتظر المنبه الخارجي لتنطلق،مثل الشخص الذي يحلم بالإعدام،يقطع رأسه بالمقصلة ،و عندما يستيقظ يجد لوحا من السرير يسقط على رقبته ،فسقوط اللوح استغله الحلم للخروج من اللاشعور.

5- علاقة السببية la Relation de causalité: يمكن للحلم أن يتبع علاقة سببية، بحيث يمكن أن يكون الحلم الأول تمهيدا للحلم الثاني.(3)

6-علاقة التناقض أو التنافي :la Relation de contradictionإن الحلم لا يعترف بمبدأ عدم التناقض الذي يعتبره العقل مستحيلا ،فيمكن للحلم أن يأتي في صورة ،ثم في نقيضها و الغرض هو التمويه على الرقيب الشعوري.

7--الإدماج:يمكن للحلم أن يلجأ إلى وسيلة تتمثل في إدماج عدة شخصيات في شخصية واحدة لوجود صفات مشتركة بين هذه الشخصيات "هذا الشخص الذي يمثل نفسه بالآخرين مجموعة منتقاة من ملامح الجميع له أنف هذا و لحية ذاك."(4)

1- سيغموند فرويد ،نفس المصدر ،.84

2-د/ شاكر عبد الحميد ،المرجع نفسه ،ص.381

3- سيغموند فرويد ، المصدر نفسه،ص85.

4- المصدر نفسه،ص.86،87 .

بعد أن تعرفنا على طبيعة الأحلام و آلياتها ،نتساءل:كيف يكون الخلق الأدبي و الفني صورة عاكسة للأحلام و ميكانيزماتها.؟ أو بطريقة أخرى ،ألا يمكن أن يكون الإبداع الأدبي والفني مستمدا من آليات إخراج الحلم.؟

مثلما أشرنا سابقا إلى أن الخلق الأدبي والفني عند مؤسس التحليل النفسي ينظر إليه في علاقته بنشاطات بشرية ثلاثة، هي اللعب و التخيل والحلم.

إن الإبداع الفني شبيه بالحلم من حيث هو انفلات من الرقابة ،فهو تحقيق لرغبة جنسية لم يستطع المبدع أن يحققها في الحياة الواقعية فتتحقق بصورة رمزية مشوهة لكي تفلت من الرقيب الشعوري،فهو انتقال لمملكة الخيال من مبدأ اللذة إلى مبدأ الواقع تلبية للغرائز التي رفضها الواقع حيث يقول "فرويد""وكان الحال يغري بالانتقال من ذلك إلى محاولة تحليل الإبداع الشاعري والفني بوجه العموم ،فقد اتضح أن مملكة الخيال ملجأ يؤسس إبان الانتقال من مبدأ اللذة إلى مبدأ الواقع ،كي يقوم مقام إرضاء الغرائز التي ينبغي الإقلاع عنها في واقع الحياة،فالفنان كالعصابي ينسحب من واقع لا يرضي إلى دنيا الخيال هذه، ولكنه على خلاف العصابي يعرف كيف يقفل منه راجعا ليجد مقاما راسخا في الواقع. ومنتجاته،أعني الأعمال الفنية إشباع خيالي لرغبات لاشعورية شأنها شان الأحلام."(1)

وهكذا يكون الدافع واحدا سواء في الحلم أو في الإبداع الأدبي والفني، وهو المحتوى الغريزي المرتبط بالطفولة والذي تحول تحت مفعول الكبت إلى رغبات لاشعورية مكبوتة،وكما يلتقيان في الغاية وهي كونهما متنفسا للرغبات المكبوتة و في كونهما يحققان المتعة والسعادة لصاحبهما ،مع العلم بأن هذه النقطة تقال على بعض الأحلام و تنسحب على البعض الأخر.

إن الاشباعات الرمزية للأحلام و هي "جمل مسلسلة تعرض نفسها متوالية من السلوكات و الإحساسات و الأفكار الملموسة (...) مصبوغة باللذة و الانزعاج أو بنسبة متغيرة منهما معا."(2) مثلها مثل القصص والروايات

1-سيغموند ،فرويد ،مصدر سابق ،**"حياتي و التحليل النفسي"** ،ص98.

2- جان بليمان نويل، **التحليل النفسي والأدب تر/ حسن المودن** (المجلس الأعلى للثقافة،مصر،1977م،عدم وجود رقم الطبعة.) ،ص24.

الأدبية عبارة عن نصوص رمزية تحتوي على محتوى ظاهر و محتوى كامن أو باطني، لا نستطيع فهمه إلا بتحليل القصة التي يحكيها الحلم أو التي أبدعها الأديب والتي يسميها "فرويد" بواجهة الحلم للكشف عن المضمون هو الرغبة اللاشعورية الكامنة في الحلم أو في العمل الأدبي .(1) وهكذا كان التحليل النفسي ناجحا في الكشف عن الرغبات الحقيقية لكثير من الأدباء الذين حاولوا تمويهها ببعض الرموز و الأفكار الغامضة.

وقد أشار "فرويد " في كتابه "حياتي والتحليل النفسي"إلى أن إنتاج الحلم أو الآليات التي تحكم الأحلام هي نفسها التي تحكم "التأليف الخيالي"في الأعمال الأدبية .(2)و في مقدمتها التكثيف والإزاحة(الإبدال) والرمزية، في الحلم تتحول الرغبات إلى أفكار والأفكار إلى صور حسية، ونفس الشيء تتضمنه القصص والروايات الأدبية، حيث نجد تمثيل مجموعة من الأحداث و الأفكار و الصور بواسطة صورة واحدة (أي التكثيف) ،و يتم التعبير عن الأفكار الجوهرية بأفكار ثانوية تافهة ،و قد تحمل الفكرة الجزئية التافهة مفتاح العمل الأدبي (أي الإبدال)و العناصر المتمثلة في الأفعال والتصرفات والأشياء التي تحتضن الأفكار الكامنة تتعرض إلى تغييرات و تشويهات عن طريق الرموز(أي الرمزية) لأنه مثلما لا يحق للمكبوت الخاضع لرقابة أن يتكلم بكلام واضح ومميز في الحلم كذلك لا يحق التلفظ بكلام واضح و محدد في النص الأدبي.(3) وبذلك يكون التأليف الخيالي في الأعمال الأدبية مستمد من آليات العمل الحلمي.

يشبه "فرويد" "إخراج الحلم" بالعمل المسرحي بكل عناصره غير أن الحالم نفسه يمثل القاعة والخشبة و الحافة و الممثلين و المدير ...الخ ،حيث يقول:"إن كلمة الحلم تسعى نهائيا إلى ثلاث ظواهر واضحة:طاقة راغبة(تكتسح الخشبة) و سلسلة مفككة من المسرحيات،محكي هذه التمثيلية الإيمائية ،الذي أعيد تنظيمه ،أنا كنت (فيما يبدو) في الوقت نفسه القاعة و الخشبة و الحافة والممثلين و المدير،الأوهام و العرائس و التكشيرات و

1-د/ شاكر عبد الحميد، المرجع نفسه ، **"التفضيل الجمالي و سيكولوجية التذوق الفني"** ، ص381..

2-سيغموند ،فرويد،المصدر نفسه،،ص.98

3- جان بليمان نويل،المرجع نفسه ،ص27.ومحمد البسيوني **التربية الفنية والتحليل النفسي**(دار الكتب و الوثائق القومية،القاهرة،الطبعة الثانية 1983م) ،ص120

الظلال."(1)و نقطة الاختلاف هي أن العرض المسرحي يفترض جمهورا بينما لا نجد أمام خشبة الحالم لا متفرجين و لا عمال المسرح، و حتى مكان الملقن فارغ.(2)كما أن كل من الفن و الأحلام يشتركان في مبدأ السرور والألم الذي يسيطر على حياتنا بوجه عام،لأن الفن يهدف إلى تحقيق السرور و الأحلام تسعى إلى تجنب الألم.

ويرى "فرويد" رغم وجود التشابه بين خيال الكاتب و الحلم إلا أن هناك اختلاف بينهما،لأن منتجات الحلم لا اجتماعية فهي لا تستهدف جمهورا ،على خلاف الخيال الإبداعي الذي يكون أكثر تعبيرا لأنه يهدف إلى إثارة اهتمام الجمهور و تحقيق متعة أكبر لهم عندما تستثير وترضي فيهم الرغبات اللاشعورية، والعمل الأدبي حلم مقيد بقانون،ببناء وشكل ونظام خاص ،لكي يحقق الغاية وهي المتعة للجمهور المتلقي، .بينما الحلم العادي يسبح في سماء الحرية المطلقة،أي لا يخضع لأي قاعدة، حيث يقول"فرويد"" ولكنها(أي الأعمال الأدبية) تختلف عن منتجات الحلم النرجسية ،اللااجتماعية من حيث أن المقصود بها إثارة اهتمام الغير و أن بوسعها أن تستثير و ترضي فيهم بدورها الرغبات اللاشعورية نفسها و زيادة على ذلك فهي تستفيد من اللذة الحسية للجمال الشكلي بوصفها "جائزة مغرية." "(3)

الهذيان والأحلام في الفن من خلال تحليل "فرويد" لقصة "غراديفا"Gr diffa للكاتب "ولهام جنسن"*Wilhelm Johnson :إن "فرويد" لا يكتفي بتطبيق قوانين الحياة النفسية على الشخصيات الفنية و الأدبية بل يتطلع إلى تفسير عملية الإبداع الفني بالذات و إلى الكيفية التي بني بها الروائي روايته ،و ذلك في إطار تساؤل يمكن صياغته كالتالي: إلى أي مدي يستطيع التحليل النفسي فهم الأعمال الأدبية والفنية.؟

و تطبيق التحليل النفسي على رواية "غراديفا" أول محاولة في هذا المجال، وهي واحدة من أهم الدراسات التي ربط فيها بين ثلاثة عناصر أساسية اهتم بها: الفن و الأحلام والتحليل النفسي،فالأعمال الفنية و الأحلام و

1- جان بليمان نويل، المرجع نفسه ،ص25.مأخوذ من كتاب فرويد "محاضرات جديدة في التحليل النفسي".

2-محمد البسيوني،المرجع نفسه ،ص119،120..

3-سيغموند ،فرويد، المصدر نفسه، **"حياتي و التحليل النفسي"** ،ص98.

*-كاتب ألماني توفي سنة 1911م

الممارسة العيادية كلها مواد أساسية تمكننا من اكتشاف خبايا النفس الإنسانية.

اكتشف رواية "ولهام جنسن"، و اتجه إلى تحليلها بعدما فرغ من كتابه"تفسير الأحلام" و هو بهذا يعمد إلى تطبيق قواعد تفسير الأحلام التي وضعها هو بنفسه ،في تحليله لأحلام و استيهامات رواية "**غراديفا**".

و قبل أن نتعرض إلى تحليل "فرويد "للرواية ،لأبأس أن نقدم ملخصا مختصرا لها ،أحداثها في مدينة بومباي و بطلها عالم أثار شاب يدعى "روبرت هانولد" R.Hanold،و قد عثر هذا الشاب في روما على تمثال صغير أعجبه و صنع نسخة منه ووضعها في مكتبه في مدينة جامعية ألمانية صغيرة ،ليتمكن من دراسة التمثال بتأني، ولعل أكثر ما افتتن "هانولد" هو المنحوتة التي تمثل مشية المرأة أو الفتاة الحسناء ،و هي في مقتبل العمر تمشي و قد رفعت قليلا ذيل ردائها الكثير الثنايا،و كانت إحدى قدميها تلامس الأرض والثانية لا تلامسها إلا بطرف إبهام الرجل ،فهي تبدو و كأنها تطير،و هي مشية غير مألوفة، وفي غاية من الرشاقة، و بعد أن تأمل البطل هذا التمثال يغرم بصاحبته ،و تبدأ أحلامه تنهال عليه، فتجعله يجول بمخيلته أجيالا وقرونا و مدنا كثيرة ،و لم يجد من وجهة نظر العلم ما يقوم بتدريسه في تلك المنحوتة ، و أطلق على هذه "**غراديفا**" أي تلك التي تتقدم ،و قد رمته مخيلته إلى الاعتقاد بأنها من غير الممكن أن تكون قد عاشت بمظهرها الهادئ في مدينة روما،بل لابد أن تكون قد عاشت في مدينة بومباي،فجأة ترك العلم جانبا أطلق العنان لخياله بحثا عن النموذج الأصلي للمنحوتة.(1)

وقد سلطت عليه مشكلة التالية:هل مشية "غراديفا" كما صورها النحات مطابقة للواقع.؟ فاتجه إلى المراقبة والتدقيق في ساعات الصحو وفي ساعات المطر في أقدام السيدات و الفتيات المارين في الشارع، الأمر الذي أثار سخط هؤلاء السيدات و الفتيات بنظراتهن الغاضبة له ،لكنه لم يفهم معنى هذه النظرات ،فاستنتج بأن مشية "غراديفا" لا نظير لها في الواقع.

وبعد ذلك بقليل تنطلق المخيلة في حلم مخيف ومقلق ،انتقل فيه إلى بومباي القديمة في زمن ثوران بركان فيزوف سنة 79 ، وهي سنة شبه دمار للمدينة ،بحيث نقل هذه الشخصية التي نسجها من خياله 18قرنا ونيفا من

1-سيغموند فرويد "**الهذيان و الأحلام في الفن**" ،تر/جورج طرابيشي،(دار الطليعة للطباعة والنشر،بيروت ،الطبعة الأولى،ص1978م)،ص ص9-11

الزمن وشهدا دمار واختفاء المدينة من الوجود بأم عينه .

وبعدها يبدأ رحلة غامضة للبحث عن فتاته إلى ايطاليا باتجاه روما و نابولي ،و شاء له أن يسافر مع جماعة من العرائس الجدد يتبادلون عبارات الحب والود و التجاذب بين أقران قيس وليلى.(1) ثم وجد نفسه في بومباي بعد بضعة أيام هروبا من العشاق والعرائس ولكنه وجد أمثالهم في هذه المدينة.و في اليوم الموالي بعد أن تبعثر الزوار و في وسط الشمس اللاظية،استيقظت في "هانولد" ملكة الغوص" في الحياة المطمورة ،و فجأة لمح "غراديفا" تخرج من احد المنازل و تتجول في الشارع برشاقة و كانت طبق الأصل للتي رآها في الحلم،و هنا يضعنا الروائي حسب"فرويد" في قلق وتوتر،و ذلك لأننا وجها لوجه أمام طيف "غراديفا" ،فقد رأيناها في قسمات تمثال ثم في تخيل استيهامي ،فهل هي هلوسة من جانب البطل أضله الهذيان أم شبح حقيقي أم شخص حي فعلا من لحم ودم.؟

و بالفعل كانت عظاية ضخمة متمددة تتشمس في كسل و لما اقترب منها "هانولد" لاذت بالفرار،إذن ليست هلوسة فهناك فعلا شيء يجري خارج حواس البطل،ثم تختفي "غراديفا" أمام أحد المنازل،ثم ينقاد البطل بفعل هذيانه بأنه في ساعة الأشباح عادت الحياة إلى بومباي من جديد بعثت "غراديفا" نفسها من الموت و خرجت إلى المنزل الذي كانت تسكنه قبل الكارثة.ثم يدخل إلى أحد المنازل ويفاجئ بالطيف جالسا ،فيتحدث معه باليونانية لكن دون رد ثم باللاتينية،مفاجئة إياها بأنها تتحدث بالألمانية ،طارحة له هذا السؤال:لماذا لم تتحدث الألمانية و أنت ألماني.؟ وبهذا تختلط الأمور أمام بطلنا فتدور في ذهنه جملة من التساؤلات:هل ما رآه حقيقة أم مجرد شبح .؟ و إذا كان شبح فلماذا يتحدث بالألمانية.؟ (2) ثم يتسلط عليه هاجس أخرى هو معرفة الجوهر الجسماني ل"غراديفا" ،من أي مادة هو الطيف الجسماني ل"غراديفا" التي هي ميتة وحية في أن واحد.؟

و في اليوم الموالي هم بالدخول إلى أحد المنازل فلمحها من جديد ، بين الأعمدة فحسبها خدعة من خدع مخيلته،و قد حملقت فيه كثيرا و سألته أسئلة كثيرة و قد علمت بحلم "هانولد" الذي اختفت فيه المدينة التي كانت

1ـــسيغموند ،فرويد ،المصدر نفسه ،ص14.

2-المصدر نفسه ،ص ص16-18.

مسقط رأسها،و بوجود المنحوتة التي ألهمته ،و قد أفصحت عن استعدادها لأن تدعه يدرس مشيتها التي تطابق مشية صاحبة التمثال ماعدا اختلاف طفيف، وقد أعربت عن أسفها من عدم تمكنه من دراسة مشيتها في الشارع، و أعلمته بأن اسمها الحقيقي هو "زويه" و معناه الحياة ،ثم اختفت ومع اختفائها ساد الصمت.(1)

وقد اكتشف البطل اكتشافات مذهلة ،ففي سور البوابة التي اختفت منها "غراديفا/ زويه" يكتشف شقا تستطيع أن تلج منه غراديفا لتصل إلى قبرها ،فهي غير قادرة على اختراق الأرض اختراقا ،ثم يلتقي البطل تحت الشمس اللاظية رجل طاعن في السن يحمل أدوات صيد ،انصب اهتمامه على صيد الحيوانات، هو صياد العظيات.(2)

يواصل البطل رحلته بين فنادق مدينة بومباي لعله يلتقي ب"غراديفا" ولعله يتعرف على جوهرها الجسماني فيتجه هذه المرة إلى فندق ثالث يعرف باسم"البرجو دل سل" حيث قدم له صاحبه مشبكا من معدن نبش من رفاه غراديفا وهي في وضع عناق متلاحم مع حبيبها،هذا المشبك حرك فيه هذيانا جديدا ،و استمرت هذيانات البطل في شكل لقاءات مع غراديفا،وفي الأخير اعترف لها بهذيانه فقدمت له الوصفة الطبية الشافية، من الدوار الذي أصابه أياما طويلة ، حيث دعته إلى مشاطرتها غذاءها البسيط،و أعلمته بأنها ابنة صياد العظايا أو عالم الحيوان.(3) "إن ثمة شيئا واحدا قد بات واضحا و أكيدا و هو أنه كان فاقد الرشد و الصواب حين داخله الاعتقاد بأنه تبادل أطراف الحديث مع صبية بومبية تجسدت وبعثت إلى الحياة ثانية بطرقة أو بأخرى ، وكان هذا الفهم النير لجنونه الذاتي بلا جدال خطوة أساسية في التقدم على طريق العودة إلى صحة العقل."(4) و هكذا تكون منحوتة قديمة أيقظت في بطلنا عالم الآثار ذكرى تلك التي أحبها حبا شديدا في طفولته ،"غراديفا"،هي "زويه "Zoui صديقته في الطفولة.

يتعامل رائد التحليل النفسي في تطبيقه لمنهجه على الرواية مع البطلين"نور برت هانولد" و"زويه

1-سيغموند فرويد،المصدر نفسه،**"الهذيان و الأحلام في الفن"**،ص.21،22

2-. المصدر نفسه ،ص24.

3- المصدر نفسه ،ص ص.25-28.

4- المصدر نفسه ،ص30،31.

برتغانغ" وكأنهما شخصان واقعيان و ليسا من ابتكار المخيلة(1) لأن هدفه من هذه الدراسة التحليلية هي أن يبين بأن الأحلام في الفن تفسر بنفس الطريقة التي تفسر بها الأحلام الحقيقية،و ذلك من خلال نقطتين أساسيتين :الأولى هي ارتباط الأحلام بالواقع ،فهي تمثل تحقيقا لرغبات مكبوتة، و الثانية ارتباط هذه الرغبات بمرحلة الطفولة،حيث يقول في كتابه "حياتي والتحليل النفسي"" أمكنني أن أبين من قصة قصيرة كتبها "و،جنسن" هي "جراديفا" التي لا قيمة لها في ذاتها و أن الأحلام المختلفة يمكن تأويلها على نحو تأويل الأحلام الحقيقية ،و أن العمليات اللاشعورية المألوفة لنا في"إنتاج الحلم" تتم على النحو نفسه كذلك في عمليات التأليف الخيالي." (2) و يوجه ملاحظته للكاتب الذي أطلق على قصته اسم "فانتازيا" بدلا من "غراديفا" دراسة سيكولوجية،إن أحداث الرواية تتطابق مع الحقيقة إلى حد ما ،وهي تتفق مع الواقع في نقطتين،الأولى:جعل عالم الآثار "هانولد" يكتشف منحوتة لامرأة تتسم بمشية متميزة لكنها تشبه إلى حد ما امرأة من هذا العصر،أي هناك تطابق شبه مطلق في الهوية بين المنحوتة و بين الصورة الحية للفتاة، والثانية جعل الروائي بطله يلتقي في مدينة بومباي وذلك في المكان الذي انتقل إليه بمخيلته.(3)

وقد اندهش"فرويد" للروائي الذي قام بدراسة طبنفسانية مشابهة لتصوره للحياة النفسية ،حيث روى تاريخ المرض النفسي وطريقة شفائه.(4)إن معالجة الروائي لموضوع طبنفساني لا يفقد الرواية أو القصة طابعها الجمالي ،بل يمكن أن تكون المنفعة مزدوجة في نظرنا،حيث يقول "يمكن للروائي أن يعالج موضوعا طبنفسانيا بصوابية تامة من دون أن يفقد شيئا من جماله."(5)

أطلق الروائي على حالة بطله اسم الهذيان،هذه الظاهرة تتميز بسمتين أساسيتين: الأولى هي إن الهذيان

1-سيغموند فرويد، المصدر نفسه ،ص.46

2- سيغموند فرويد،المصدر نفسه" **حياتي والتحليل النفسي**" ، ص،98

3-سيغموند فرويد،المصدر نفسه، "**الهذيان والأحلام في الفن**"،ص47 .

4- المصدر نفسه،ص48.

5-المصدر نفسه ،ص49،50 .

ينتمي إلى الأمراض النفسية التي ليس لها تأثير على الجسم ،بل يتجلى هذا التأثير على شكل أعراض نفسية .و الثانية هي أن هذا المرض يتصف بكون الاستيهامات،تستقل بنفسها وتصبح تتحكم في سلوك الفرد،أي صاحبة الأمر والنهي ، ورحلة البطل إلى بومباي بحثا عن البصمات المتميزة التي خلفتها "غراديفا" في الرماد، خير مثال للفعل الذي يقوم به المريض المصاب بالهذيان.

إن هذيان "هانولد" يصنف ضمن الهذيانات الهذائية Paranoïas ،و يمكن وصفه بأنه مس شبقي صنمي érotomanie fétichiste*،لأن البطل توله بصورة من الحجر،و اهتمامه بقدمي الفتاة و وضعيتها يدل عند الطبيب النفسي على أنه حاملا لنزعة شبه صنمية.(1)

و يبدو ارتباط هذيان"هانولد" بالايروسية المتجذرة في مرحلة الطفولة جليا ،من خلال انتقال هذيانه من منحوتة حجرية إلى المرأة الحية ،و بهذا يكون للايروسية دورا في خياله ،فالروائي يخبرنا بأن بطله لا يختلف عن سائر البشر ،و انه كانت له علاقة حميمية مع فتاة صغيرة كان يشاطرها طعامها و يتبادل معها خفيف الضربات واللطمات، وفي مثل هذه الازدواجية الحاملة للحنان والعدوانية تتجلى ايروسية الطفولة ،غير المكتملة ،و أن شفاؤه من الهذيان يرتبط بمصادفته السعيدة بهذه الفتاة"زويه".إن المنحوتة أخذت مغزى واهتمام كبيرين عند"هانولد" لأنه تنبع من ذكرى رفيقة الطفولة ،التي تميزت برشاقة مشيتها و بطريقة خاصة في رفع قدمها ،و بهذا تعود ظاهرة الصنمية إلى الانطباعات الايروسية في عهد الطفولة ، ويشير "فرويد" إلى أن هذا التفسير لهذه الظاهرة كان مع "ألفريد بينيه Alfred، binet".*

إن البطل وهو أمام المنحوتة لا يعي بأنه قد رأى وضعية القدم أثناء طفولته ،لكنها ولدت فيه انطباع لا يصل إلى مستوى الوعي بل يبقى كامنا في اللاشعور، وهذا الانطباع هو الذي ولد الاضطرابات النفسية.(2) و تفسير

---

*-الهذيان الهذائي: مرض عقلي يتميز بوجود نسق منظم من الأفكار الهاذية و سلسلة منطقية من النتائج المستنبطة من مقدمة خاطئة خطأ مطلقا يؤمن به المريض إيمانا مطلقا ،ومن حيث المضمون نجد فكرة الاضطهاد و الريبة من نوايا الغير تقوم بدور رئيسي في هذا المرض.

*-هو الميل و الانجذاب نحو ملابس و حاجات الجنس ،مثل الحذاء أو الجوارب، القبعة الأخر، و الاحتفاظ بها كنوع من الإشباع الجنسي الشاذ.

1ـــسيغموند فرويد، المصدر نفسه،ص50.

*-بينيه:عالم نفساني فرنسي(1857-1911م)

2- المصدر نفسه،ص52،53.

ذلك هو أن ذكريات الطفولة المتعلقة ب"زويه" كانت مكبوتة في نفسية "هانولد" وهي ذكريات اللاشعورية وبرؤيته للمنحوتة استيقظت دوافعه الايروسية ،و حاولت ذكريات الطفولة أن تعود إلى نشاطها و فعاليتها،غير أن المقاومة المستمرة تعترض طريق هذه الايروسية،فينتج صراع بين الاندفاعات الايروسية الكامنة في اللاشعور و التي تريد الظهور و بين القوى الشعورية الواعية التي تكبتها،هذا الصراع أو المعركة تظهر أثارها في الخارج في شكل هذيان.(1)

و قد أعجب رائد التحليل النفسي بالروائي الذي بين الكيفية التي بواسطتها استيقظت الايروسية المكبوتة،بفعل أثر فني قديم ،تمثال حجري يمثل امرأة قد انتشل بطلنا عالم الآثار وجعله يعود إلى مهد ولادته ،وهو بهذا يذكرنا بحقيقة الإنسان الذي له دين يرتبط في عنقه منذ ولادته.فالتمثال الحجري كان بمثابة منبه أيقظ مخيلته وسلطت عليه مشكلة معرفة وضعية القدم تلك المطابقة للواقع ،فيتجه ليراقب السيدات والفتيات في شوارع المدينة ،بدوافع علمية تنبع من تخصصه كعالم أثار،غير أن الدوافع الحقيقية هي دوافع لاشعورية يجهلها بطلنا ،وهي مشية "زويه"التي ترتبط بذكريات طفولته. وعلى هذا الأساس نجد في استيهامات "هانولد" الهاذية على تعيين مزدوج:الأول واع يرتبط بتخصصه كعالم أثار،و الثاني لاواع نكتشفه من خلال البحث والتنقيب في سيرورته النفسية ، وهو يرتبط بذكريات الطفولة،الأول سطحي ،ظاهر وحاجب وستار للثاني المختفي وراءه، وحافزه العلمي مجرد ستار للحافز الايروسي الليبيدي اللاشعوري.(2) و هذا ما يسمى بالإبدال في الحلم .

يحلل "فرويد" تطور هذيان البطل من خلال حلم حلمه في محاولته اكتشاف مشية مشابهة لمشية "غراديفا" في شوارع البلدة التي سكنها،رأى نفسه في مدينة بومباي أثناء وقوع نكبة 79،حيث أصابه ذعر وخوف شديدين من دون أن يتعرض للخطر،و فجأة تراءت له"غراديفا" وهي بومبية ،فنادها لكنها لم تتوقف وواصلت طريقها و تمددت على درجات من معبد أبولون وانطمرت واختفت تحت وابل من الرماد ،ثم شحب لونها وتحول إلى رخام أبيض،فأصبح مشابها لصورة من الحجر،و قد لبث الشعور لديه بأن ما حلمه قد وقع له

1-سيغموند ،المصدر نفسه،ص55.

2—المصدر نفسه ،ص ص56-58.

فعلا متسلطا عليه مدة طويلة من الزمن،و بات متيقن بأن "غراديفا" قد عاشت فعلا في مدينة بومباي وقضت نحبها أثناء النكبة.

إن تفسير هذا الحلم لا يتم إلا بالاستنجاد ب"علم الأحلام" بتطبيق بعض قواعده،و تنص إحدى هذه القواعد على أن الحلم يرتبط ارتباطا مباشرا باليوم السابق له، وقد تقيد الروائي بهذه القاعدة لأنه ربط الحلم ربطا مباشرا بأبحاث "هانولد" القدمية ،أي ملاحقة"غراديفا" والتعرف على مشيتها في الواقع. والثانية ،عندما يترك الحلم وراءه أثر لمدة طويلة من الزمن يعني أن الصور الحلمية هي صور واقعية ،وعليه لا يمكن أن نتحدث هنا عن وهم وقعت فيه ملكة الحكم ،وإنما المسألة هي مسألة وثوق بوجود واقع مطابق للحلم،فالقاعدتين تخبرنا بالمكان الذي توجد فيه"غراديفا" وهي تقطن في المدينة التي يقطن هو فيها ،و أنها "زويه برتغانغ"معاصرة له،مع فارق واحد هو أن هذه المدينة ليست في الحلم المدينة الجامعية الألمانية،بل هي مدينة بومباي والزمن ليس الزمن الحاضر و إنما سنة79 ميلادية ،و هذا نوع من التحوير ،لكن ليست "غراديفا" هي المنقولة إلى عصرنا وإنما الحالم هو المنقول إلى الماضي. (1)

وتطبيقا للقاعدة التي ترى بأن للحلم محتوى ظاهر مشوه ،هروبا من مقاومة الرقابة و محتوى كامن نصل إليه من خلال ترجمة المضمون الظاهري،فان الأفكار الكامنة وراء هذا الحلم هي أن الفتاة التي يحبها والتي تتصف بالمشية الرشيقة والتي هو بصدد البحث عنها تقطن في نفس المدينة التي يقطن هو فيها.هذه الفكرة جاءت في ثوب ظاهري تنكري ،تجلت في شكل واقع حاضر يعيش فيه صاحب الحلم بالصيغة التالية"أنت تعيش في بومباي في زمن "غراديفا"" والحلم يحتوي على عنصر أخر يسهل تحريره من التشويه و كشف أفكاره الكامنة،فهو يرينا كيف تحولت "غراديفا" الماشية إلى صورة حجرية ،وهذا مجرد تعبير مجازي في نظر "فرويد" عن الكيفية الفعلية التي حدثت بها الأشياء، و"هانولد" كان فعلا قد حول اهتمامه من المرأة الحية إلى الصورة الحجرية،وهذا تشويه للفكرة الكامنة في الحلم والتي من المفروض أن تبقى لاشعورية والتي تريد أن تحول المنحوتة من جديد إلى امرأة حية،و هذه الفكرة هي"أنت لا تهتم بالمنحوتة إلا لأنها تذكرك "بزويه" الحية

1- سيغموند فرويد، المصدر نفسه"**الهذيان و الأحلام في الفن**"،ص ص63-66.

الراهنة والتي تقطن هنا."لكن لو صعدت هذه الفكرة إلى مجال الوعي لانتهى الهذيان".(1)

يحدد رائد التحليل النفسي نوع هذا الحلم،فهو من أحلام الحصر النفسي ،يحتوي على مضمون ايروسي ليبيدي " فحنين الحب استيقظ ليلا لدى هانولد وأخذ استيقاظه شكل اندفاعة قوية ،تهدف إلى بعث ذكرى الحبيبة على مستوى الوعي والى انتشال النائم من هذيانه ،غير أن هذا الحنين حرف من جديد عن وجهته و تحول إلى حصر.أدخل بدوره على مضمون الحلم صورا مرعبة مستمدة من ذكريات النائم المدرسية وعلى هذا النحو ينقلب جوهر الحلم اللاشعوري أي حنين الحب إلى زويه التي عرفها فيما غبر من الأيام إلى المضمون الظاهر التالي:انطمار بومباي وهلاك غراديفا"(2)

يتساءل "فرويد" :لماذا استخدم الروائي حلما في بنائه للهذيان.؟ يجيب بأن التقدم العلمي أثبت بان كل هذيان جديد أثناء المرض الفعلي يرتبط في أغلب الأحيان بحلم، ولابد من الإشارة بان الحلم والهذيان ينبعان من مصدر واحد وهو المكبوت، وباستطاعتنا أن نقول بأن الحلم هو الهذيان الفيزيولوجي للإنسان السوي قبل أن يملك المكبوت القوة اللازمة ليفرض نفسه على الإنسان اليقظ في شكل هذيان.

يواصل فرويد تحليله ،وهذه المرة يحلل الابتكار الهذياني للحلم الأول ،حيث يعقد "هانولد"على السفر إلى ايطاليا و ينتهي به المطاف في بومباي،وقبل أن ينفذ المشروع ،وبمجرد أن ينظر من النافذة يتراءى له شبح إنسان يشبه في سماته ومشيته مشية "غراديفا"،فجرى يلاحقه و هو في ثياب النوم ، ولم يدركه فاضطر إلى العودة إلى مسكنه مصحوبا باستهزاء المارة ،و عند العودة إلى مسكنه رأى طائر الكناري في المنزل المقابل أيقظ فيه فكرة فك أسره وتركه يفلت من قفصه ليطير.

بوصوله إلى مدينة بومباي وحين يتجول في شوارع المدينة لأول مرة تحت شمس الظهيرة تتراءى له "غراديفا" عبر شوارع بومباي،فيدرك أنه قدم إلى هذه المدينة للبحث عن أثر للمنحوتة الحجرية .

إن الشبح الذي لمحه البطل من النافذة يعبر الشارع هو الآنسة "زويه برتغانغ" النموذج الأصلي ل"غراديفا" وبذلك يتم تفسير الحلم كالتالي" إنها تقطن في الوقت الحاضر في نفس المدينة التي تقطنها أنت"و

1-سيغموند فرويد، المصدر نفسه،ص 67،68.

2-المصدر نفسه ،ص69.

الطائر الكناري الذي حفزه على الرحيل يخص "زويه" وكان قفصه معلقا في شباك بيتها في الزاوية المواجهة لبيته.

يفسر "فرويد" سفر "هانولد" بأنه انتصار لقوى الكبت الذي ينتزع الغلبة في الهذيان، وهو أي السفر شاهدا على محاولة هروب إزاء حضور الصديقة حضورا فعليا ،على خلاف للتحريات القدمية و مراقبته لسلوك السيدات والفتيات في الشارع في المرحلة السابقة التي هي دليلا على غلبة الدوافع الجنسية.لكن البطل ابتعد عن "زويه"الحية و اقترب من ممثلتها "غراديفا"،و هكذا تكون رحلة بومباي تندرج ضمن الفكرة الظاهرة المضللة لمضمون الحلم ،و الدليل على ذلك هو الأحوال النفسية التي كان يعيشها"هانولد" أثناء إقامته بايطاليا ،فنفوره من عرائس شهر العسل وعدم اعتنائه بالحلم الذي حلمه قبل وقت وجيز الذي رأى من خلاله انطمار بومباي دليل على تسلط النوازع الأخرى المعادية للايروسية ،هذا من جهة ، ومن جهة ثانية إن انتصار القوى الكابتة للدوافع الجنسية لا يرضي البطل بل يجعله يعيش قلق وتوتر، يتجلى في عدم فهمه لدوافع رحلته التي قام بها خدمة للهذيان ،فيعيش ارتباك و حيرة كاملتين و اضطراب شديد يصل إلى قمة عنفوانه. (1)

وبعدما يصل الاضطراب إلى أوجه يتدخل الروائي كمنقذ ، فيدخل "غراديفا"إلى خشبة الأحداث لتشرع في علاج هذيان "هانولد"عن طريق لقاءات بينهما،حيث نقل الفتاة التي هرب منها البطل إلى بومباي بالذات .

يواصل المحلل النفساني تفسير بقية أحلام البطل بنفس الطريقة إلى غاية النهاية السعيدة المعهودة بالزواج فكان تدخل "زويه" بمثابة الطبيب الشافي لهذيان "هانولد".إن الروائي"بالفعل أنه يعرف طبيعة الهذيان خيرا من منتقديه ، و يعلم أن مركبا من حنين الحب و مركبا أخر من الصراع ضد الحب قد تضافر في تكوين الهذيان"(2) والطريقة العلاجية التي استخدمتها البطلة"زويه" في شفاء هذيان صديق طفولتها تشبه بل تتطابق مع منهج في العلاج أدخله الدكتور "جوزيف برويز" مع "فرويد" سنة 1895م سمي في البداية بالتطهير ثم سماه "فرويد" بالتحليل النفسي الذي يقوم على إرجاع اللاشعور المكبوت الذي سبب المرض إلى الوعي وهو نفس ما فعلته

1-سيغموند فرويد، المصدر نفسه،"**الهذيان و الأحلام في الفن**"، ص ص 70- 78.

2- المصدر نفسه،ص100.

"غراديفا" بالنسبة إلى الذكريات المكبوتة من طفولة "هانولد"،أي هناك تشابه بين طريقة "غراديفا" في العلاج الهذيان و المنهج العلاج للتحليل النفسي في:إرجاع المكبوت إلى الوعي، وتزامن التفسير والشفاء ،و يقظة العواطف.(1)

وهكذا تكون الأحلام على اختلافها سواء الحقيقية أوالنهارية التي ينسجها الروائيون تمثل تحقيق وهمي لرغبة حقيقية مكبوتة ،و أن جذور هذه الرغبة هو الطفولة المبكرة.

ثالثا-النكتة والإبداع الفني:يولي "فرويد" اهتماما بالغا للنكتة في كتابه"النكتة وعلاقاتها باللاشعور." الذي صدر سنة 1905م ،فما حقيقتها .؟ وهل من الواجب توفر شروط ذاتية لدى صاحبها.؟ و ما هي دوافعها.؟ وما دورها في حياة الأفراد.؟

إن النكتة كلام معجب مزيف يمثل احتجاجا موجها ضد القواعد الأخلاقية و المؤسسات و السلطة القائمة، وهي رفض للعقل و الأحكام النقدية ، وهي مثل الأحلام و اللعب تتصل بدوافع جنسية لاشعورية ،فالمحرك على إنشاء النكت عند"فرويد" هو هذه الدوافع الايروسية المقموعة،لذلك كل نكتة تشكل محاولة جادة لتجاوز عقبات الحصول على متع تحظرها المؤسسات الاجتماعية .

إن الباعث الأساسي هو مبدأ اللذة فيكون المزاح و الضحك و الجانب الهزلي في النكتة بمثابة ارصان*Élaboration نفسي للطاقة الليبيدية،أي تحويل كمية الطاقة و تعديل مسارها، الأمر الذي يتيح السيطرة عليها.(2) فهناك مصادر لاشعورية للذة تؤمنها النكتة سواء لصاحبها أو للمتلقي ،بدليل أن عددا كبيرا من النكت تخرج عن المعايير الأخلاقية المتعارف عليها في المجتمع و تستخدم كلاما فاحشا ." وبعض العناصر من التكوين الجنسي لفرد ما قادرة على وجه الخصوص أن تمثل على سبيل المحركات لتكوين المزاح،فثمة عدد من الحكايات الفاحشة يمكنها أن تجعلنا نشتبه أن لدى مؤلفها نزوة خفية للاستعراء.و النكت المغرضة على النموذج العدواني ميسورة على وجه الخصوص للذين تحتوي جنسيتهم على مكون سادي قوي قمعته الحياة قليلا أو

1-سيغموند،فرويد،المصدر نفسه ،ص100،101

*-هذه الترجمة لمصطلح Élaboration إلى "ارصان" هي اقتراح الدكتور مصطفى حجازي ،من هامش الصفحة 61 .

2- أنزنو فرويد،أبراهام،مايري بونابرت،المرجع نفسه **"التصعيد دروب الإبداع"** ،ص61 إضافة إلى هامش هذه الصفحة .

كثيرا."(1) أي على خلاف لبعض النكت من النموذج العدواني التي تعكس سادية صاحبها.

غير أن "فرويد" يجعل ارصان المزاح* حكرا على بعض الناس فقط، بمعنى لابد من توفر شروط ذاتية عند صانع النكتة تتمثل في استعدادات و قابليات خاصة وقدرا ت عقلية كالذكاء والخيال والذاكرة تشجعه على خلق الهزل والمزاح للغير." وليس ارصان المزاح بمتناول الناس كلهم ،انه يصبح ،و على وجه الخصوص في درجة عليا وقفا على أقلية قليلة العدد ،منهم يقال أنهم نبهاء ،حتى تميزوا عن الآخرين ،و يبدو أن المزاح هنا بمثابة خاصة "ملكة النفس"(لكي نستخدم المجموع القديم للمصطلحات)تحتفظ باستقلال معين بالنسبة للقدرات الأخرى:الذكاء والخيال والذاكرة ،الخ. وبوسعنا إذن أن نفترض بان لدى رجال الفكر استعدادات خاصة أو قابليات نفسية تتيح أو تشجع ارصان المزاح."(2)

و في سياق حديثه عن الشروط الذاتية لصاحب النكتة يتكلم "فرويد" عن نكتة للشاعر والناقد الأدبي الألماني "هنريك هاين"Hanrich Heine*"" وهي نكتة"الأقل رعاية".الذي اخترع من خلالها كلمة Fa" « millionnaire-وهي تجمع معنى الأسرة la Famille إلى معنى المليونير ويقصد بها"الأقل رعاية"*(3)

و إذا كان الباعث على النكتة هو نفسه الباعث على الحلم يمكنهما آن يرتبطا ارتباطا مشروعا بسيرورة الإبداع الفني و هذا الباعث هو الكف عن تحقيق هدف الدافع الجنسي أو تغيير هدف وموضوع الرغبات

---

*-ارصان المزاح:أي تحويل الطاقة الجنسية إلى مزاح حتى يسهل السيطرة عليها .

1- أنزنو فرويد،أبراهام،مايري بونابرت،المرجع نفسه ،نص مستخلص من "النكتة وعلاقاتها باللاشعور" لفرويد،ص67.

2-المرجع نفسه،ص63،64..

*-هنريك هاين:شاعر و ناقد أدبي وصحفي ألماني(197-1856م)

3-sigmound.freud « **.le mot d'esprit et ses rapports avec l'inconscient** » Traduit de l'alle-mand par Marie Bonaparte et le Dr.M Nathan en 1930(. Paris: Gallimard, 1930. Réimpression: Gallimard, 1971,) .p16

*-كلمتان(الأقل رعاية) وضعهما الشاعر على لسان شخصية مضحكة"هيرش هيا شنت"،وهي تعكس شخصية الشاعر وحياته،لأنه كان فقيرا،و أراد ان يتزوج بنتا من أبناء العم"سولومون"،و لم يكن مقبولا من بنت العم قط، وكان العم يعامله دائما على نحو الأقل رعاية،فهو يعامله بوصفه "القريب الفقير" ولم يعتبره أبناء العم الأغنياء واحدا من أبناء العم،فقد عانى"هاين" في صباه كثيرا من نبذ أبناء عمومته الأغنياء،و في تربة هذا الألم الذاتي برزت كلمة"الأقل رعاية" "Fa millionnaire"

الايروسية، فان هذا المفهوم يكون مكافئا للإعلاء(التسامي ، التصعيد) مع العلم أن "فرويد" لم يستخدم هذا المصطلح في كتابه "النكتة وعلاقاتها باللاشعور.(1)

يضيف "فرويد" شرط أخر يتمثل في وجود الغير ،لأن التجربة تدلنا على أن الشخص لا يخترع نكتة من أجل نفسه وحدها ،فالنكتة التي يخترعها الفرد لا يمكنه أن يضحك منها هو ذاته على الرغم من المتعة غير المشكوك فيها ،التي تتضمنها،و بذلك صنع النكت و تحقيق الارصان النفسي يرتبط كذلك بالحاجة إلى نقله إلى الآخرين.لأن في نقل الضحك و المزاح إلى الغير لذة أخرى."ولكن النكتة التي تخطر في بالي .النكتة التي أخترعها لا يمكنني أن أضحك منها أنا ذاتي على الرغم من المتعة غير مشكوك فيها التي أجدها متصفة بها ،ومن الممكن أن يكون ثمة علاقة بين حاجتي إلى نقل النكتة إلى الغير وبين المفعول المثير للضحك الذي منع علي أنا نفسي ،في حين أنه يظهر لدى الغير."(2)

وعلى هذا الأساس نجد سامع النكتة شأنه شأن قارئ العمل الأدبي نفسه ،أن ألمه الناشئ عن بعض التوترات قد سكن، فالعمل الذي تحققه النكتة يكمن في الاقتصاد جزئيا من الطاقة التي تستخدم في الكبت،التي من ورائها يحقق السامع لذة ،فمقدار الطاقة المقتصدة تعادل على الأقل قوة الكف أو القمع أو الكبت، وهذا التفريغ للطاقة للسامع يفترض أن يكون لصانع النكتة ،الذي يكتسب لذة تمهيدية في صنعه لها،ثم لذة إضافية أخرى في استمتاع الغير بها ،أي صرف جديد للطاقة.(3)

إذا كان التطهير اسم أطلق على العلاج الجديد للاضطرابات النفسية قبل أن يطلق "فرويد" عليه اسم التحليل النفسي ،فانه يعتبر النكتة بمثابة تطهير أو متنفس للمكبوت من العواطف.(4)وإذا كانت للنكتة لذة تتحقق من ورائها سواء عند سامعها أو قارئها شأنها في ذلك شأن قارئ العمل الأدبي ، فهل يعني هذا أن مفهوم الذوق

1- المرجع نفسه،ص 60.

2-- أنزنو فرويد،أبراهام،مايري بونابرت،المرجع نفسه **"التصعيد دروب الإبداع"** ،ص.68

3-المرجع نفسه،ص 71،72.

4-- مولوين ميرشنت،كليفورد ليتش **"التراجيديا والكوميديا"** ،ت،د/علي أحمد محمود ،(سلسلة عالم المعرفة،الكويت طبعة 1979م،عدم وجود رقم الطبعة).ص20.

الجمالي ينحصر في تحقيق اللذة .؟ و ما طبيعته.؟

رابعا-طبيعة الذوق الجمالي عند فرويد:من الضروري التسليم بأن كل عمل فني مهما كان نوعه لا يمكن تحريره من ارتباطه بمبدعه أولا ، ومن تعلقه بمتلقيه ثانيا،فهو غير مقطوع الصلة بالمبدع وخصائصه النفسية والاجتماعية و الثقافية التي ينتمي إليها.كما يمكن أن يكون النص أو العمل الفني مفيدا للولوج إلى الأعماق اللاشعورية للمبدع.

و قد خضعت عملية التذوق الفني لعدة تفسيرات فقد رجح بعضهم العوامل الموضوعية التي يتكون منها العمل الفني،في حين ركز البعض الأخر على العوامل الذاتية لدى المتلقي ،لكن المشكل الذي يطرح نفسه: كيف نفسر طبيعة الإدراك الجمالي في الفرويدية.؟هل بإدراجه في الاتجاه الموضوعي الذي يجعل الذوق الفني مرتبطا بالعمل ذاته أم بضمه إلى الاتجاه الذي يركز على العوامل الذاتية التي ترتبط بالمتلقي ذاته.؟ وما هي مصادر المتعة التي تحصل للمتلقي للعمل الفني.؟

إن التذوق الفني لا يعني مجرد الرفض أو القبول للموضوعات الفنية ،بل يشير إلى دراية المتذوق بحالات وجدانية مختلفة ،نستطيع أن نسميها بالخبرة الاستيتيقية، و لا يمكن أن يكون تذوقا جماليا لمثير ما إلا بظهور المشاعر الداخلية له بغض النظر عن المثير ، و بذلك تكون المشاعر الوجدانية الداخلية أساس مكونات الخبرة الجمالية.(1)

في تفسيره للتذوق الجمالي يرجع "فرويد" مصادر المتعة التي يحصل عليها المتلقي للعمل الفني إلى اللاشعور،فالفن يقدم حافزا إضافيا An incentive bonus للمتلقي يسمح له بالاستمتاع بمادة قد تكون مهددة للأنا أو ضارة بها لو قدمت بشكل أخر مباشر أو بشكل واقعي . و بذلك يكون الإنسان ليس واعيا بمصادر المتعة أو بأسبابها التي تحصل له من تلقيه للعمل الفني.(2)

و لابد من الإشارة إلى أن "فرويد" لم يضع فصلا حاسما بين موضوع الإبداع و موضوع التذوق ،فقد تعامل معهما كما أشار كثير من الباحثين على أنهما موضوعا واحدا، و بذلك ينطلق من الافتراض الذي يماثل

1-أمينة إبراهيم الشناوي،**"التفضيل الجمالي لخصائص المثير المرئي"**(رسالة ماجستير كلية الآداب ،قسم علم النفس،طنطا،سنة1999م) ،ص.6

2--د/ شاكر عبد الحميد، المرجع نفسه **"التفضيل الجمالي و سيكولوجية التذوق الفني"** ص132.

بين العمل الفني وعملية الإبداع له.

وإذا كانت مصادر المتعة الجمالية تعود إلى اللاشعور، ومادته الخام هي الغرائز الجنسية و العدوانية المكبوتة أو المقموعة ،ذات الطبيعة المحرمية، فان القدرات العقلية و الخصائص المرتبطة بالعمل الفني شروطا غير كافية للإبداع و التذوق في نظرية التحليل النفسي الفرويدية، بل الدوافع السيكولوجية وبالخصوص الجنسية هي الأكثر أهمية في الإبداع و التذوق على حد السواء.(1) حيث يقول فرويد"إن كل ما يستطيع التحليل النفسي أن يقوله بيقين عن الجمال يستمده من مجال الإحساس الجنسي(....) وليس الجمال وجاذبيته إلا صفتين من صفات الموضوع الجنسي.*"(2) فنواة اللاشعور إذن المتمثلة في المحتوى الغريزي هو جوهر عملية الإبداع والتلقي معا.الإبداع و التذوق متناظران و متماثلان لأن متعة التلقي للعمل الفني تماثل متعة الإبداع، ولأنها تأتي من عملية التحرر من القيود الخاصة بالكبت اللاشعوري ،بمعنى مثلما تتيح الخبرة الفنية للمبدع الفرصة للاستيهامات الخاصة بإشباع الرغبة بالهروب الرمزي أو المراوغة ولو بشكل مؤقت للانفلات من المراقبة لليقظة،حيث يتحقق إشباع الرغبات بطريقة رمزية في الخيال و أحلام اليقظة،يتمكن المتلقي من تحقيق نفس الغاية عن طريق عملية التوحد أو التماهي l'identification ، وعملية الهروب المؤقت هي أساس الخبرة الجمالية ،سواء عند المبدع أو المتلقي وبهذا يؤكد "فرويد" على أهمية عملية التواصل مع الآخرين،لأن عملية التوحد تستند أساسا على التواصل.(3)

إن المتعة أو اللذة التي يحققها كل من المبدع و المتلقي للعمل الفني بتحقيق وهمي مزيف(أي في الخيال فقط) للدوافع الجنسية ، تثير في النفس نوع من الأحاسيس المخدرة بشكل خفيف ،وهذا ما صرح به "فرويد" في سياق حديثه عن طرق تحقيق السعادة التي يحركها مبدأ اللذة، فأشار إلى أن نشوة الجمال المؤقتة المزيفة تثير

1-د/شاكر عبد الحميد، المرجع نفسه، ص133.

*-الموضوع الجنسي هو شخص أو أي شيء تتوجه إليه الرغبة و السلوك الجنسي،و غاية الشعور الجنسي امتلاك الموضوع جنسيا.

2-سيغموند ،فرويد،مصدر سابق **"الحب والحرب و الحضارة والموت"**، ،ص.54

3-د/ شاكر عبد الحميد،المرجع نفسه ،ص134.

متعة نفسية ،في جوهرها إحساس بالثمل الخفيف ،دون شعور بالعار أو الخجل أو الخوف.(1) و نفس الفكرة يتحدث عنها في كتابه"قلق في الحضارة" حيث يرى أن التحليل النفسي لا يملك الكثير ليقوله بصدد الجمال و طبيعته ،لكن المتعة الجمالية بوصفها انفعالا تثير في النفس متعة خفيفة من الثمل ،و هذا الانفعال الجمالي ينحدر من دائرة الإحساسات الجنسية ،فهو يمثل لذة جنسية مكفوفة،أي تغيرت من حيث الهدف في إطار التسامي،في قوله" والمتعة الجمالية بصفتها انفعالا يبث في النفس نشوة خفيفة من الثمل، متعة لها طابعها الخاص(...) و من دواعي الأسف أن التحليل النفسي لا يملك الشيء الكثير ليقوله لنا بصدد الجمال ، وثمة نقطة واحدة تبدو أكيدة و هي أن الانفعال الجمالي ينحدر من دائرة الإحساسات الجنسية، وعلى هذا الأساس ،مثال نموذجي للميل المكفوف من حيث الهدف."(2)

إن تذوق العناصر الشكلية في العمل الفني في نظره يمثل هبة أو وسيلة تحفيز إضافية تمكننا من التنفيس Abréaction عن الرغبات المكبوتة و تحقيق متع أعظم ،حيث يقول" أن كل المتع الجمالية في رأيي التي يقدمها الكاتب أو المبدع لنا لها طبيعة تماثل طبيعة المتعة التمهيدية التي من هذا النوع لدينا واستمتاعنا الحقيقي بالعمل الخيالي ،إنما ينشأ عن ذلك التحرر من التوترات الموجودة في عقولنا ، وقد يكون المرء كذلك لأن قدرا ليس بالهين من هذا الأثر ،إنما يرجع إلى تمكين الفنان لنا من خلال ذلك من الاستمتاع بأحلام يقظتنا الخاصة دون ندم شخصي أو شعور بالعار أو الخجل."(3)

وهكذا يكون الفن وسيلة للاستمتاع بموضوعات و خبرات على مستوى عالم الخيال، يتعذر الاستمتاع بها على مستوى الواقع لأسباب أخلاقية واجتماعية، هذا الاستمتاع يحدث دون خجل ولا خوف أو شعور بالخطر والتهديد ،على خلاف لما يحدث عندما تتحقق هذه المتع على مستوى الواقع.(4)

و ختاما لطبيعة الذوق الفني في الفرويدية ،هو أن الإدراك الجمالي ذو طبيعة نفسية ذاتية ،مادامت مصادر المتعة

1-- سيغموند ،فرويد،المصدر نفسه؛ والصفحة نفسها(54)

2-سيغموند فرويد ،مصدر سابق ،**"قلق في الحضارة"**،ص32

3-د/شاكر عبد الحميد، المرجع نفسه، «**التفضيل الجمالي و سيكولوجية التذوق الفني**" 135،136.

4-المرجع نفسه ،ص 136.

لاشعورية ،نواتها الغرائز الجنسية و العدوانية ، و النص أو العمل الفني مجرد مثير يولد انفعال جمالي لا يخرج عن دائرة الإحساسات الجنسية. أي الذوق الجمالي مجرد إسقاط لليبيدو.

و أخيرا ،نصل إلى الاستنتاج التالي في ما يخص الجمالية الفرويدية، وهو أن المصدر الأول للإبداع الفني هو اللاشعور،الناتج من ضغط "عقدة أوديب" ،فالرغبات الشبقية التي لم تتحقق في الواقع ،تحت ضغط الواقع الخارجي،تجعل الفنان يلجأ إلى وسيلة يشبع بها رغباته المكبوتة في الخيال في شكل إبداعات فنية،و الفنان شخصية عصابية ،عصابه مرتبط "بعقدة أوديب" الناتجة بدورها من قمع الدوافع الجنسية في مرحلة الطفولة ،هذه الأخيرة تتسامى إلى مواضيع اجتماعية و أخلاقية،يجنح فيها الفنان بمخيلته ،فيشبع رغباته الجنسية أو يخفف من حدتها.

و الأعمال الأدبية، ما هي إلا صور تعكس نفسية الأديب،فهي تمثل انعكاسا و تجسيما لنفسيته، وهي تعبر عن "عقدة أوديب" وما ينجم عنها من مشاعر الشعور بالذنب ،المرتبطة بطفولة الأديب.

و أن اللعب و الأحلام و النكتة،لها دور في الإبداع الفني،فالشاعر الذي يجنح بمخيلته في الخيال يشبه الطفل، الذي و هو يلعب يصنع عالما خياليا ،يغير فيه واقع ما،يساهم فيه بكل انفعالاته،و هو يتقدم في العمر لا يتخلى عن خبرته السابقة ،بل يستبدل شيء بشيء أخر،أي يلجأ إلى المخيلة بدلا من اللعب.و الإبداع الفني يشبه الحلم من حيث أن الدافع فيهما واحد،وهو الدافع الجنسي المرتبط بمرحلة الطفولة،و الغاية واحدة هي التنفيس عن الرغبات المكبوتة، ومن حيث أنه انفلات من الرقابة بصورة مشوهة ،و الآليات التي تحكم الأحلام هي نفسها،التي تحكم الأعمال الأدبية،وهذا يدل على أن آليات الأعمال الأدبية مستنبطة من ميكانيزمات الأحلام"إخراج الحلم"،و النكتة هي الأخرى ترتبط بسيرورة الإبداع الفني،لأن الدافع واحد،بحيث عن طريق النكتة ،يتم تحويل كمية الطاقة الجنسية و تعديل مسارها،في الهزل والضحك والمزاح،وبذلك تحقق لذة أو منعة لاشعورية لصاحبها وللمتلقي.

وطبيعة الذوق الجمالي عند "فرويد" ذاتي سيكولوجي،أساسه الليبيدو،فالمتعة الجمالية تعود إلى اللاشعور،و مادتها هي الغرائز الجنسية المكبوتة، ومتعة التلقي للعمل الفني تماثل متعة الإبداع عن طريق عملية التوحد،و القدرات العقلية و الخصائص المرتبطة بالعمل الفني شروطا غير كافية في العمل الفني.

الفصل الثالث

القيم بين التحليل النفسي الفرو يدي و الفلسفة العقلية الكانطية ،مع دراسة نقدية للتحليل السيكولوجي للقيم.

لقد طرقت باب هذا الفصل، بمقارنة بين "فرويد" و مؤسس الأخلاق العقلية"ايمانويل كانط" ،في نظرتهما إلى القيم الأخلاقية ،ثم إلى الدين ،و أخيرا إلى القيم الجمالية،حيث أجريت مقابلة بين التحليل النفسي للقيم أو الأسس النفسية للقيم الأخلاقية و الجمالية و الدينية، وبين النظرة الفلسفية العقلية لها، و أتممتها بدراسة نقدية للتحليل السيكولوجي للقيم الأخلاقية ،ثم الدين، ثم القيم الجمالية،بتحليل أحيانا أراء المنشقين عن الفرويدية،و الاتجاهات الفرويدية الجديدة،عندما يستدعي الأمر ذلك، و بالإشارة إلى هذه الآراء أحيانا أخرى.

المبحث الأول:القيم بين "سيغموند فرويد" و"كانط" Emmanuel Kantأو بين التحليل النفسي و الفلسفة العقلية الكانطية.

أولا-القيم الأخلاقية بين الكانطية والفرويدية:

في حديثه عن التقييدات الأخلاقية في المجتمعات البدائية أو ما يعرف ب"التابو" Tabou في كتابه "الطوطم والحرام" يماثل "سيغموند فرويد" بينها وبين الواجب القطعي الكانطي ،ف"التابو" الذي ظهر في المجتمعات البدائية في زمن ما قبل التاريخ يحافظ على قيمته في شكل محظورات تقيد العصابي في المجتمعات المعاصرة تعرف بالأوامر المطلقة أو القطعية في قاموس الفلسفة الأخلاقية الكانطية." و قد استوعب "فرويد" الفكرة الكانطية حول "الواجب الأخلاقي" مفترضا أو مرتئيا أن هذا الأمر في المجال السيكولوجي هو "التابو" الذي يؤدي دورا هاما في حياة البدائيين."(1)فما مصدر الواجبات الأخلاقية عند كل منهما.؟ وهل الضمير أو الوعي الأخلاقي قبلي أم بعدي مكتسب من الوسط الاجتماعي.؟

إن الواجب الأخلاقي عند "كانط" إلزام داخلي يفرضه الضمير أو العقل العملي، مؤسس على مبدأ قبلي*، فالإنسان في نظره ينتمي إلى العالم المحسوس، عالم الدوافع و الميول، بحيث يكون مقيدا بقوانينه. ومن جهة أخرى ينتمي العالم المعقول (عالم العقل والحرية)،بمعنى الإنسان يتأرجح بين عالمين متناقضين، ولابد عليه أن

1- فليري ليبين ،،مرجع سابق **"فرويد ،التحليل النفسي والفلسفة الغربية"** ص106.

*-قبلي Apriori بمعنى مستمد من العقل سابق لكل تجربة ،في مقابل البعديÀ posteriori المستمد من الواقع ويعنى هنا ،السلوك الذي تتدخل فيه الميول=

يعتبر نفسه ينتمي إلى العالم المعقول، فيكون الواجب صادرا عن مبدأ قبلي سابق لكل تجربة، لا تحركه دوافع ولا يهدف إلى تحقيق منافع .(1) بينما "فرويد" يتوجه إلى الآليات النفسية لهذه الواجبات الأخلاقية ،فالواجب القطعي عند ه ليس إلا الضمير في جوهره غير العميق والذي يشكل "الأنا الأعلى" ،و يكمن دوره في إزاحة الرغبات الجنسية و العدوانية و سحقها ومنعها من التحقق في الواقع.(2) و هذا الأخير أي الضمير أو الأنا الأعلى هو الذي يولد عند الإنسان الشعور بالذنب و الذي تمتد جذوره إلى جريمة قتل الأب البدائي ،مع العلم أن هذا الشعور بالذنب يوجد عند الإنسان قبل تشكل الأنا الأعلى ،إلا أنه يكون صادرا سلطة خارجية و مع نمو شخصية الفرد و تمثله لقيم المجتمع و عاداته و نتيجة لفعل التربية وتأثير الكبار في سلوكه يصبح الوازع الأخلاقي "الأنا الأعلى-الضمير" سلطة نفسية داخلية تحاسب الأنا/ الذات التي تفعل كل ما في وسعها حتى لا تثير قلقه و غضبه.

بناءا على ما سبق فان الواجبات المطلقة عند "كانط"قبلية من صنع العقل ،بينما الوازع الأخلاقي عند "فرويد" مكتسب ناجم عن تأثير المحيط الاجتماعي ابتداء من مرحلة الطفولة، وما هو فطري عنده يتجسد في "الهو" ،مستودع الغرائز ،فهو يمثل جملة الدوافع الجنسية والعدوانية المكبوتة في نفسية الإنسان، وهو يتسم بالتهور والاندفاع و لا يعير اهتماما للقيم الأخلاقية.

و هل الضمير كيانا مستقلا عن وعي الأفراد أم هو مكون من مكونات الجهاز النفسي تشكل تدريجيا ،ابتداءا من مرحلة الطفولة.؟

إن الضمير الأخلاقي كيانا قبليا مستقلا عند "كانط" ،في حين يعتبره التحليل النفسي جزءا من البنية النفسية يمثل المتطلبات الأخلاقية للمجتمع ،أو بصيغة أخرى هو مكون من مكونات الجهاز النفسي تشكل تدريجيا ابتداء

= و الرغبات ،و قد أخذ "كانط" المصطلحان "القبلي" و"البعدي" من أرسطو ،حيث يتضمن مصطلح القبلي عنده المعرفة بالعلة و مصطلح البعدي ،المعرفة بالمعلول(النتيجة) غير أن "كانط" منحهما معنى خاص ،ثم انتقل هذا المصطلح إلى العصور الوسطى عند "توما الاكويني" الذي رأى بأننا لا نستطيع معرفة العلة الأولى (الله) وهذا حسب مترجم كتاب" تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق" "عبد الغفار مكاوي".

1-ايمانويل كانط Emanuel .Kant، **تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق**، ت/عبد الغفار مكاوي ،مراجعة عبد الرحمان بدوي،(الهيئة المصرية العامة للكتاب،الطبعة الثانية 1963.) ،معلومات مستنبطة من،ص ص113-115.

2- فليري ليبين ،المرجع نفسه ،نفس الفصل والصفحة.(106).

من الطفولة، ويعبر عن الصراع القائم بين السلطة الخارجية المتمثلة في المنظومة القيمية السائدة في المجتمع و التي احتلت مكانا في نفسية الإنسان (الأنا الأعلى)، و بين الاندفاع نحو إشباع الحاجات و الدوافع الغريزية للفرد و التي يؤدي حرمانها من الإشباع إلى توليد ميل نحو العدوانية ،و إلى عدم اتزان الفرد و اختلال في شخصيته.

و قد أكد "كانط" أن أساس الواجب الأخلاقي(و الذي يفرضه الضمير) هو الارداة الخيرة* (النية الطيبة) التي تتميز بالاستقلال الذاتي l'Autonomie الذي يجعلها قادرة على التشريع لنفسها بعيدا عن كل اكراهات أو بالأوامر المطلقة" l'Impératif catégorique ،هذه الأخيرة غير مقيدة و غير مشروطة بأية منفعة أو غاية بل مجردة ومنزهة من كل الغايات و المنافع،فهي أوامر صادرة عن إرادة حرة،إن محركها هو مبدآ الإرادة الصوري*"من بين الأمور التي يمكن تصورها في هذا العالم أو خارجه لا يوجد شيء يمكن عده خيرا اللهم إلا شيء واحد هو الإرادة الخيرة."(1)على خلاف للواجبات المقيدة والمشروطة فالمبدأ الذي يحركها مادي * أو ميول ورغبات و تهدف إلى تحقيق منافع أو غايات، يسميها "بالأوامر الشرطية"، حيث يقول"كانط""إن الحرية و القانون العملي غير المشروط يستلزمان كل منهما الأخر."(2) فالأوامر المطلقة ممكنة لأن فكرة الحرية تجعل الإنسان ينتمي إلى العالم المعقول و يتجرد من العالم المحسوس بالرغم انتمائه إليه،"و لكننا نرى الآن كيف أننا حين نتصور أنفسنا أحرار نضع أنفسنا في العالم المعقول كأعضاء فيه و أننا نتعرف الاستقلال الذاتي للإرادة مع النتيجة المترتبة عليه نو نقصد به الأخلاقية،و لكننا حين نتصور أنفسنا ملتزمين بالواجب نحسب أننا أعضاء في العالم المحسوس كما نحسب أننا في الوقت نفسه أعضاء في العالم المعقول."(3) بينما الواجبات الأخلاقية عند "فرويد" مرتبطة بضرورة اجتماعية يفرضها "الأنا الأعلى" كهيئة مكونة للبنية النفسية للإنسان و الذي بدوره يخضع للسلطة الخارجية القائمة في المجتمعات ،فالواجب الأخلاقي بالنسبة لمدرسة التحليل النفسي الفرويدية لم

---

*-الإرادة الخيرة:هي الفعل المجرد من الميول ومن الغايات(المنافع) و الذي يفرضه الواجب،و الواجب إلزام داخلي يفرضه الضمير(العقل العملي).

*-مبدأ الإرادة الصوري:هو الفعل المجرد من الميول والرغبات أو الذي لا تحركه دوافع، وبذلك يكون نزيها بريئا من كل أثر نفعي(الارادة الخيرة).

1-ايمانويل، كانط، ،المصدر نفسه، ،ص17.

*- مبدأ الإرادة المادي: الفعل الذي تحركه ميول ورغبات ويهدف إلى تحقيق منافع أو غايات،

2-ايمانويل،كانط،**نقد العقل العملي** ت/هنا غانم،(توزيع مركز دراسات الوحدة العربية،الطبعة الأولى بيروت 2008 ،الكتاب الأول:أنا لوطيقا العقل المحض)،ص.81

3-ايمانويل،كانط ،المصدر نفسه "**تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق**"، ص116.

يعد مرتبطا بسمات الحرية التي يدعي الفرد امتلاكها بقدر ما أن الفرد قد أصبح جزءا من كل اجتماعي خارج عن ذاته .و ما طبيعة الواجبات الأخلاقية.؟ هل هي ضرورية وكلية و مطلقة أم ذاتية ونسبية.؟

و يضاف إلى ذلك هو أنه إذا كان الواجب الكانطي مفهوما قبليا صادرا عن العقل، لابد أن يكون ضروريا و كليا أو كونيا، هذه الكونية أو الضرورة، لا يمكن أن تكون نتيجة التجربة والخبرة، ذلك لأن الكونية والضرورة هي من سمات ما هو قبلي ،و لأن الواجبات الأخلاقية التي تؤسس على الطبيعة الإنسانية ذاتية نسبية متغيرة تحركها دوافع و ميول وتهدف إلى تحقيق منافع،فهي ليست ضرورية و كونية ،و لا تصلح لكل إنسان عاقل،وهذا يعني الفعل وفق الأمر الشرطي لا يكون ضروريا وكليا ، و لهذا وضع "كانط" ثلاث قواعد للأمر المطلق،أولها:قاعدة التعميم، والتي تقول"افعل كما لو كان على مسلمة فعلك أن ترتفع عن طريق إرادتك إلى قانون طبيعي."(1) أي معيار أخلاقية أفعالنا هو لابد أن تصبح بمثابة قانونا عاما صالحا لكل الكائنات العاقلة، ومن الأمثلة التي يقدمها "كانط" عن شخص بحاجة إلى المال ،تدفعه حاجته إلى الاقتراض من شخص و يعده بتسديده و هو يعلم بأنه عاجز عن ذلك ،فهذا الفعل يتعارض مع الواجب و لا يصلح كقانون عام لكل الإنسانية،"و ذلك لأن التسليم بقانون عام مؤداه أن كل إنسان يعتقد أنه في ضائقة يستطيع أن يعد بما يخطر على باله مع النية المعقودة على عدم الوفاء بهذا الوعد سيجعل الوعد نفسه و الغاية التي يطمح في تحقيقها عن طريقه أمرا مستحيلا،إذ لن يصدق أحد ما يبذل له من وعود،بل أنه سيهزأ بمثل هذا القول كما لو كان ادعاء باطلا سخيفا."(2) و ثانيها: قاعدة الغائية و نصها كالتالي" افعل بحيث تعامل الإنسانية في شخصك و في شخص كل إنسان بوصفها دائما وفي نفس الوقت غاية في ذاتها،و لا تعاملها أبدا كما لو كانت مجرد وسيلة."(3) و هذه القاعدة تدعونا إلى أن نتعامل مع الآخرين معاملة الغايات لا الوسائل. وثالثها: قاعدة التشريع(استقلال الإرادة)"إن إرادة كل كائن عاقل من حيث هي إرادة تضع تشريعا كليا." (4) أي الإرادة الخيرة هي المصدر

1-ا ،كانط، المصدر نفسه،**"تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق"** ص.62

2- ،المصدر نفسه،.ص. .63

3-المصدر نفسه ،ص.73

4- المصدر نفسه،ص 77.

الوحيد للتشريع الأخلاقي، فكل كائن عاقل يعتبر نفسه مشرعا في مملكة الغايات،و يعني بها أن الكائنات العاقلة لها قوانين مشتركة تتمثل في خضوعها جميعا للقانون الذي يقتضي أن يعامل كل منهما الأخر كغاية لا كوسيلة ،و كل كائن يشرع لنفسه الأفعال تشريعا كليا.

بينما التقييدات الأخلاقية عند مؤسس التحليل النفسي لا تخضع لقواعد تجعلها ضرورية،موضوعية و كونية، بل ترتبط بالأنا الأعلى كهيئة نفسية ،تراعي المعايير الأخلاقية السائدة في المجتمع ، وهذه الأخيرة متغيرة بتغير المجتمعات ،فيكون حكم "الأنا الأعلى" على الأفعال التي يحركها "الهو" نسبي وغير موضوعي.

إضافة إلى ذلك ،هو أن التقييدات الأخلاقية عند "فرويد" تعد سببا في نشأة الأمراض العصابية،باعتبارها عوائق تحد من رغبات "الهو "الايروسية،و هذا ما استنتجه من خلال مقارنته بين الحرام في المجتمعات البدائية وبين الأعراض المرضية الموجودة لدى المصابين بالعصاب الوسواسي"فالحرام تحظير سحيق القدم ،مفروض من الخارج(من قبل سلطة ما) و موجه ضد أقوى رغبات الإنسان والميل إلى انتهاكه يظل قائما في لاشعوره ،و الأشخاص الذين ينصاعون للحرام يقفون موقفا ازدواجيا حيال ما هو حرام."(1) هذه المعايير الأخلاقية السائدة في المجتمع والموجهة ضد أقوى رغبات البشرهي التي تجعل العصابي ذو طبيعة لاجتماعية يميل إلى الهروب من الواقع الذي لا يشبع له نهمه الجنسي ،فيخلق لنفسه عالما وهميا حافلا بالوعود المعسولة"أما من وجهة النظر التكوينية فان الطبيعة اللا اجتماعية للعصاب تنبع من ميله الأصلي إلى الهرب من الواقع الذي لا يقدم اشباعات ليلوذ بعالم وهمي حافا بالوعود المعسولة،وفي ذلك العالم الواقعي الذي يهرب منه العصابي يسود المجتمع البشري بجميع مؤسساته التي خلقها العمل الجماعي ،و العصابي،إذ يشيح عن هذا الواقع ينفي نفسه بنفسه عن الأسرة الإنسانية."(2) بمعنى غلبة الميول الجنسية على الميول الاجتماعية(التي تسودها التحريمات الأخلاقية) هي العلامة المميزة للعصاب. على خلاف الواجبات القطعية الكانتية ،فهي صادرة عن إنسان عاقل و ترتبط بماهية الإنسان باعتباره كائنا عاقلا. وهل توجد نقاط اتفاق تجمع بين بين مهند س التحليل النفسي و"كانط.؟

رغم هذا الاختلاف، إلا أنه تبدو نقطة اتفاق ظاهرية بين مؤسس التحليل النفسي و ورائد الأخلاق العقلية

1-سيغموند فرويد ،**مصدر سابق"الطوطم والحرام "** ص.51

2-المصدر نفسه ،ص99.

و تتمثل في كونهما يجعلان السعادة ليست غاية الأخلاق، فلا يوجد ارتباط ضروري بينهما، إن سيطرة القيود الأخلاقية على دوافع "الهو" التي تتطلب دوما الإشباع، وذلك عن طريق سلطة "الأنا الأعلى" هي التي تعيق تحقيق السعادة للفرد.هذه الفكرة نلمسها عند "كانط" و بطريقته الخاصة ،فلا يمكن أن نجمع بين تأدية الواجب و البحث عن السعادة ، لأن الواجب يقتضي السبق بالأمر الأخلاقي عن السعادة و لأن هذه الأخيرة ترتبط بالميول و الرغبات أو بالطبيعة ،فهي تتناقض مع الواجب لذاته الذي لا يكون أخلاقيا إلا إذا انطلق من مبدأ صوري نزيه ،و استقل استقلالا تاما عن الطبيعة، وهو يقول في كتاب "نقد العقل العملي""و الحال أن القانون الأخلاقي بصفته قانون الحرية ،إنما يأمر بمبادئ معينة عليها أن تكون مستقلة استقلالا تاما عن الطبيعة ، وعن توافق هذه مع ملكة الرغبة عندنا(بصفتها دوافع).لكن الكائن العاقل الفاعل في العالم ليس نفسه هو في الوقت عينه ،على الرغم من ذلك علة العالم و الطبيعة،فإذا لا يوجد في القانون الأخلاقي أي سبب مهما كان صغيرا لارتباط ضروري بين الأخلاق و السعادة المتكافئة معها لدى كائن ينتمي إلى العالم كجزء منه وبالتالي تابع له." (1)

و إذا كان " كانط" يرفض أن تكون السعادة هدف الأخلاق ،فلا يعني أن أنه يرفض السعادة بل يرى أننا نستحق أن نكون سعداء طالما كانت الفضيلة شرط السعادة، ومن العبث الحث على السعي وراء السعادة رغم أنها مطلب الكائن العاقل الفاني ،مثلما أن منعه و تحريمه من هذا المطلب هو عبث أيضا ، وفي حالة التعارض بين مطلب السعادة و بين مقتضى الواجب الأخلاقي يجب أن يكون الفصل لهذا الأخير.(2) و يقول "كانط":"أن يكون سعيدا . هذا هو بالضرورة مطلب كل كائن عاقل ، ولكن فان، وهو اذا سبب لتعيين ملكة الرغبة عنده لابد منه."(3)

إن السعادة الحقيقية في منظور الكانطية تكون في الحياة الأخروية، فهي تبقى موضوع أمل مشروع لا تتحقق في الأرض، ولهذا سلم ، بمسلمات ميتافيزيقية ،تعرف بمصادرات العقل العملي:وجود الله و خلود النفس

1-ايمانويل كانت،،المصدر نفسه **"نقد العقل العملي،الكتاب الثاني"** ص.218

2-المصدرنفسه ، مقدمة الكتاب،ص.28

3- المصدر نفسه،الكتاب الأول،ص73.

و الحرية ،وكلية العالم،هكذا ترك "كانط" الإجابة عن السؤال النقدي الثالث *"ما الأمل المسموح به لي.؟" للدين و لم يستطع الإجابة عنه ،و قد خصص لهذه المسألة كتاب "الدين في حدود مجرد العقل " و يبدو آن الفلسفة أصبحت غير قادرة على النظر في مسألة الرجاء و الخلود في السعادة القصوى، فما هي نظرته للدين .؟ و هل الدين الذي يؤمن به ،هو دين سماوي تاريخي منزل أم دين عقلي خالص يقوم على التوفيق بين العقل الأخلاقي والوحي المنزل.؟ و هل هناك نقاط تجمع مؤسس "الفلسفة الدينية" مع مؤسس التحليل النفسي في نظرتهما للدين أم هما على طرفي نقيض في نظرتهما للمسألة الدينية.؟

ثانيا-حقيقة الدين بين التحليل النفسي الفرويدي و الفلسفة العقلية الكانطية:

إن النظرة التحليلية الثاقبة لنظرة كل من "فرويد" و "كانط" للدين تثبت أنهما يشتركان في المنطلق و هو نقد المعتقدات الدينية ، ف"فرويد" يتساءل عن الأساس الذي تقوم عليه المعتقدات الدينية مثلما تم توضيحه سابقا ،و قد وجد ثلاثة أجوبة:لأن أسلافنا و أجدادنا كانوا يؤمنون بها،و لأن هناك أدلة وبراهين تناقلتها الأجيال يعود تاريخها إلى الأزمنة البدائية ،و لأنه لا يمكن أن تطرح مسألة مصداقيتها لأن المجتمع يعاقب بالقصاص كل من يطرح مثل هذا السؤال. يرد "فرويد" على هذه المبررات كالتالي:بالنسبة للحجتين الأوليتين، أسلافنا كانوا أشدوا جهلا منا ،و الأدلة التي تركوها لنا عبارة عن ميراث مدون من نصوص تحمل تناقضات كثيرة لا يحملها العقل. و بالنسبة للحجة الثالثة فهي تحمل في ذاتها بطلانها لأن تحظير المجتمع التساؤل حول الدين مرده دافع واحد فقط ،هو أن المجتمع يعلم بأن الأساس الذي تقوم عليه هذه المعتقدات واهن وضعيف، و لو لم يكن الأمر كذلك لوضع المجتمع المادة الضرورية التي على أساسها يقتنع الجميع، كما انتقد محاولتين لتبرير المعتقدات الدينية ،محاولة "أومن به لأنه محال" و محاولة "فلسفة كما لو آن" ، وتوصل إلى أن الأفكار الدينية ليست خلاصة تجربة ،أي ليست نتيجة تأمل وتفكير، ولا تستند على أدلة و براهين عقلية تبرر صحتها ومصداقيتها .و في نفس الخط لكن في إطار النهج النقدي الذي بدأه "كانط" يواصل نقده للعقل الديني، بعدما انتقد العقل النظري في مجال المعرفة ثم العقل العملي في مجال الأخلاق، وقد كان هدفه من أربع قطع أو مقالات التي يضمها كتاب"الدين في

---

* -السؤال النقدي الثالث: يضاف إلى السؤالين الأوليين:ما ذا يمكنني أن اعرف.؟ وما ذا يجب أن افعل.؟ الأول في مجال المعرفة والثاني في مجال الأخلاق .

حدود مجرد العقل " ليس الدفاع عن عقيدة معينة ،و إنما أولا: نقد الدين التاريخي* عامة، ثانيا: نقد كل محاولة لتأويل الدين تأويلا مذهبيا تعبر عن طائفة معينة،و ذلك وفق ثلاث اتجاهات،أولا: توجيه انتقادات عنيفة للدين الشعبي بسبب إفراغ الجمهور شعائره من مضمونها الأخلاقي،حيث تم تحويله إلى مجرد مقايضة بين الإنسان والله.وثانيا: توجيه نقد عنيف إلى الدين النظري لعلماء الكلام الذين أخضعوا الإيمان لمقتضيات العقل النظري، بهدف تحويله إلى معرفة برهانية ،بادعائهم بأنهم قادرين على إثبات الله بالأدلة العقلية ،وتحديد ماهيته بالحدود المنطقية.ثالثا: نقد الدين الذاتي للمتصوفة الذين اخضعوا الإيمان لتقلبات القلب، لتبرير قولهم بوحدة الوجود.(1) بهذا يكون كتاب الدين نوعا من "نقد العقل الديني"بأدوات العقل الأخلاقي.(2)

و إذا كانا يشتركان في المنطلق المتمثل في نقد الدين، فإنهما يختلفان في الغاية، فقد كانت غاية "فرويد" إثبات بأن المعتقدات الدينية مجرد أوهام ،فهي مجرد علاقة وهمية تتوسط العالم الداخلي للإنسان والعالم الخارجي ،تعود إلى عقدة أوديب والقلق والضائقة البشرية، مجرد تكرار لتجربة الطفولة،ففكرة الدين نابعة من الخوف أو من الحاجة إلى تلطيف الضائقة البشرية ،و بفضلها يشعر الإنسان بأنه محمي من أخطار الطبيعة، عندما يترعرع الإنسان و يعرف أنه يبقى طوال حياته طفلا و أنه بحاجة إلى حماية من قوى عليا ،يضفي على هذه القوى صفات الأب و يصنع لنفسه ألهة يخشى منها ويسعى إلى عطفها من جهة ،و ينتظر منها الحماية من جهة ثانية،أي القصد من نقد ه للدين هو رفض الدين السماوي و الإيمان بالدين الوضعي وهو بهذا يعبر عن فلسفته الإلحادية.بينما غاية مؤسس الفلسفة النقدية هي تطهير الدين من الأوهام والمعتقدات الزائفة،فمثلما قام بإصلاح الميتافيزيقا و تحريرها من عقمها وجمودها اللذان كانا سببا في ادعائها معرفة ما لا نستطيع معرفته أصلا،حيث حرر العقل النظري من تلك الأوهام وبين حدوده في المعرفة ،ثم العقل العملي و طهره من الأخلاق التجريبية

---

*- الدين التاريخي: يقصد به الدين المنزل ويطلق عليه أسماء متعددة وهي:الدين المادي، دين الشعائري،الخاص ،في مقابل: الدين الطبيعي،الدين العقلي،الدين الروحي ،الكوني الكوسمولوجي،الذي دعي إليه في كتاب الدين .

1- مجموعة من المؤلفين ،**فلسفة الدين ،كانط:من العقل الخالص إلى الإيمان الخالص.قراءة في كتاب الدين في حدود بساطة العقل**،د/محمد المصباحي(منشورات ضفاف،بيروت+منشورات الاختلاف،إشراف د/علي عبود المحمداوي،الطبعة الأولى 2012م)ص75

2-المرجع نفسه ،ص74.

النفعية ،بحيث أسس في كتابيه"تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق" و"نقد العقل العملي" دين ذاتي صادر عن العقل البشري، قام بثورة مماثلة في مجال الدين بغرض إصلاحه وتطهيره من عوائق مشابهة كانت سببا في جموده وعدم تطوره.(1) و تأسيس دين خالص ،دين الحق، دين في ذاته، استمده من الذات البشرية التي تختزن بجانب العقل حاجتها الماسة إلى المقدس ومن دين الوحي الذي يقدم منظومة متكاملة من الطقوس و الأمثال والأساطير بعد إعادة تأويلها بمنطق ينسجم مع العقل ،وبهذا يعترف "كانط" صراحة بضرورة الوحي للحياة الأخلاقية باعتباره صادرا عن الله و باعتباره يحتوي على نواة عقلية ،يمكن للعقل البشري أن يتصل بها ويتفاعل معها من حيث هي مبدأ القوانين الأخلاقية.(2) ومنه نستنتج أن الدين الكانطي قائم على أساسين:الأول صادر عن العقل والثاني صادر عن الوحي,

يعتقد "فرويد" أن الدين ظاهرة مرضية ،فهو عصاب البشرية الوسواسي ينبثق من عقدة أوديب مثله مثل عصاب الطفل الذي ينبثق هو الاخر من عقدة أوديب، بينما يرى"كانط" أن الدين ظاهرة طبيعية تنبثق من حاجة العقل الماسة إلى الوحي أو بطريقة أخرى أن هناك عقل أخر في الإنسان ليس هو العقل النظري ولا العقل العملي بل هو عقل قريب من القلب يمكن تسميته ب"العقل الديني" أو "الأنا الإيمانية "التي هي بحاجة ماسة إلى المقدس، هذا ما يجعل التجربة الدينية الخالصة التي تحدث عنها تجربة إيمان ذاتي بحكم استنادها على عقل شبيه بالقلب.(3)

يرى"فرويد" أنه إذا كان الدين هو مجموعة أوهام، يحرم على الناس التفكير النقدي، يدل على حالة مرضية تعيشها البشرية ،فانه لا شفاء لها إلا بتحريره منه ،و يتوقع أن يتم العزوف عنه مستقبلا،على النقيض من هذا الموقف الإلحادي،يرى "كانط" أن الدين ضروري للإنسان،فمن أجل ردع الجانب الشرير من الإنسان و تدعيم الجزء الخير لابد من الاستناد على المبادئ الآتية من السماء.(4) والشر الجذري الذي تحدث عنه "كانط"

1-مجموعة من المؤلفين **"فلسفة الدين"**المرجع نفسه، ص.72

2-المرجع نفسه ،ص.77،78

3-المرجع نفسه ،ص.81

4-المرجع نفسه ،ص81.

كامن في الطبيعة البشرية ذاتها ،بمعنى لا يأتي من خارجها مثلما تعتقد الديانات(فكرة الشيطان)،فهو مبدأ فطري يولد مع الإنسان وعام على كل الجنس البشري يوجد بجانب الخير في الذات البشرية"انه فيه بالفطرة، ومع ذلك نحن في الأثناء نقر على الدوام بأن الطبيعة لا هي تتحمل الذنب الذي عنه(حيث يكون شريرا) و لا هي لها الفضل فيه(حين يكون خيرا) بل إن الإنسان ذاته هو صاحبه و المتسبب فيه"(1) ،كما أنه قادرا على تخريب القواعد الأخلاقية لكن من دون أن يكون قادرا على إبادة إرادة فعل الخير،لأنه هي الأخرى جذرية، وضرورة التغلب عليه تستدعي الاستعانة بوسائل دينية كاللطف الإلهي أو الاقتداء بالنموذج الكامل الصادر من السماء و هو السيد المسيح.(2) و بهذا تكون الديانة الطبيعية التي يتحدث عنها "كانط" هي الديانة المسيحية،بمعنى عندما يتكلم عن الديانة الآتية من خارج حدود العقل ،فانه كان يقصد المسيحية (3) لكن بعد تأويلها بما ينسجم مع العقل وتطهيرها من الطقوس التي تتنافى مع الأخلاق العقلية،فهي الديانة الوحيدة القابلة لأن تكون عقلانية أي أخلاقية.إن إصلاح الإنسان و الرجوع إلى طريق الفضيلة يكون بإعادة ترتيب ميزان القوى داخل النفس البشرية لصالح الاستعداد للخير على حساب الميل إلى الشر . ويكون ذلك بإحداث ما يسميه "كانط" ب"الخلق الجديد" وهو يعتمد على النفس في القيام بالفعل الحسن مع الاستنجاد بالمدد الإلهي ،فالإرادة الحرة ليست كافية لتحقيق الأمل الإنساني في تحقيق الخير المطلق والسعادة القصوى،إن الجود الإلهي ضروري لتعويض نقص مجهودنا للوصول إلى الكمال الأخلاقي.و قد استمد "كانط" مفهوم "الخلق الجديد" من البروتستانتية و بخاصة الطائفة التقوية التي ينتمي إليها.(4) كما أن تطوير العنصر الخير والارتقاء به إلى مستوى الكمال اقتداء بالنموذج الكامل لا يرتكز على الإصلاح الفردي فقط بل يمتد أيضا إلى الجماعة،وذلك بخلق جماعة أخلاقية مثالية هي الكنيسة غير المرئية،لأنها هي التي تسمح بتطوير عقل و أخلاق الفرد داخل الجماعة، ولأن بدونها لا يمكن التغلب على

1-ايمانويل كانط،**الدين في حدود مجرد العقل**،ت/فتحي المسكيني(جداول للنشر والتوزيع ،الحمرا ،شارع الكويت ،الطبعة الأولى 2012،القطعة الأولى:في أن مبدأ الشر ساكن بجوار مبدأ الخير أو حول الشر الجذري في الطبيعة الإنسانية).ص.68،69

2-المصدر نفسه ،ص.86

3- المصدر نفسه ،ص.249

4-المصدر نفسه،ص88.

الشر المتجذر في الذات البشرية.

و الكنيسة غير المرئية هي وحدة شبه سياسية بين كل الناس الأخيار في العالم مثل الجمهورية العالمية،و نظامها يشبه الأسرة و الله مشرعها الأعظم ،و و ابنه هو الذي ينوب عليه لتنظيم هذه الكنيسة الخيرة.(1) حيث يقول" وهكذا فانه لا يمكن تصور جماعة أخلاقية إلا بوصفها شعبا تحت أوامر إلهية، بمعنى بوصفها شعب الله وبلا ريب طبقا لقوانين الفضيلة(...) كذلك لا يمكن للمرء أن يتصور شعب الله طبقا لقوانين تنظيمية ،يعني قوانين لا يتعلق الامتثال لها بالخلقية ،بل فقط بشرعية الأفعال ،بحيث ستكون جماعة حقوقية،فيها يكون الله هو المشرع (وبالتالي يكون دستورها الثيوقراطية) ولكن البشر بما هم قساوسة يأخذون أوامره منه مباشرة."(2) و يقول"وهكذا فان جماعة أخلاقية من جهة ما هي كنيسة ،أي من جهة ما ينظر إليها بوصفها ممثلة لدولة الرب،هي ليس لها على الحقيقة طبقا لمبادئها أي دستور شبيه بالدستور السياسي ،فهذا الدستور الذي فيها لا هو ملكي (تحت إمرة بابا أو بطريرك) و لا هو أرستقراطي(تحت الأساقفة و المطارنة) و لا هو ديمقراطي (كما هو حال الاشراقيين أصحاب الفرق) بل قد يمكن مقاربتها على أحسن بتعاونية منزلية(عائلة) تحت إمرة أب خلقي يعرف إرادته و في الوقت نفسه يوجد في رابطة دموية مع كل أعضائها(...)ولهذا السبب فان هؤلاء يعظمون الأب الذي فيه ومن ثم هم يدخلون الواحد مع الأخر في اتحاد طوعي كلي و دائم بين القلوب."(3)

في سياق هجومه على الدين يرى "فرويد" أن الدين يضع الأخلاق على أسس مهزوزة ،أشد الاهتزاز ،لأن الأخلاق تستند إلى الدين في تأسيسها ، وهو في طريقه إلى الانحلال ،بينما الدين ضروري للأخلاق في نظر "كانط"،لأن الإنسان غالبا ما يعرف ما يجب عليه أن يفعله و لكنه لا يعرف لأجل ماذا، وهو يشعر دائما بحاجته إلى غاية ما تكون هي غاية الغايات ،يجعلها نصب عينيه في كل وجود له على الأرض، وتمكنه من العثور على الخيط الرفيع الذي يربط بين ما يجب عليه أن يفعل و نتيجة ذلك الواجب وهي تحقيق السعادة بصفة عامة ومن ثم

1-ايمانويل كانط،المصدر نفسه ،ص .90

2- المصدر نفسه،القطعة الثالثة،ص.170

3-المصدر نفسه،القطعة الثالثة،ص173،174.

فان الحاجة إلى الدين لا تأتي إلى الأخلاق من الخارج ،بل تنبع من الأخلاق ذاتها،و عليه لا يصبح الإنسان متخلقا لأنه متدين بل العكس ،فهو لا يكون متدينا، إلا لأنه متخلق.(1)ولهذا صرح كانط"بأن الأخلاق إنما تقود على نحو لابد منه إلى الدين،و عبر ذلك ،هي تتوسع إلى حد فكرة مشرع خلقي واسع القدرة خارج عن الإنسان،في إرادته تكمن الغاية النهائية (لخلق العالم) التي يمكن و يجب أن تكون الغاية النهائية للإنسان"(2)و لأنه يعترف صراحة في كتاب"الدين في حدود مجرد العقل" بأهمية الوحي للحياة الأخلاقية،مثلما أشرنا سابقا ،باعتباره يحتوي على نواة عقلية تنسجم مع الأخلاق العقلية التي يدعو إليها،وعلى هذا الأساس قام بتخليص الدين من عقائده المتعارضة مع العقل، لكي يصبح دينا خالصا نقيا من العوائق التاريخية و الثقافية،دين يرتقي إلى المفهوم العام الصادق على جميع الأديان،و اقتضى منه ذلك إخضاع الدين لضوابط العقل باعتبارها واجبات أخلاقية صادرة عن إرادة حرة،حتى يكون دينا واحدا صالحا لجميع الناس وفي كل الأزمنة.(3) و بهذا تكون الأخلاق ضرورية للدين ،و الدين ضروري للأخلاق.و لتحقيق هذه الغاية (وحدة الدين)قسم الدين أو العبادة إلى عبادتين،عبادة حقيقية:لا يوجد فيها فرق بين الدين الطبيعي والدين المنزل،لأنها تخضع شرائع الدين المنزل لمقتضيات الإيمان العقلي و الأخلاقي،أي يتحقق فيها الانسجام بين الأخلاق الصادرة عن العقل والأوامر الصادرة عن الوحي.و عبادة زائفة:هي التي تخضع الإيمان الطبيعي والأخلاقي للإيمان المؤسساتي،أو هي العبادة التي تعمل بقاعدة:من الأفضل لك أن تعتقد أكثر من أن تعتقد أقل،ثم قسم الدين إلى،دين منزل: هو الذي يضع الواجب الأخلاقي داخل الأمر الديني،فتكون الالتزام بالواجبات الأخلاقية طلبا للثواب و انتظارا للغفران. ودين طبيعي:هو الذي يكون فيه الواجب الأخلاقي نفسه امرأ إلهيا.(4) و قد عرف الدين بقوله" إنما الدين(متى اعتبرناه على الصعيد الذاتي) هو معرفة بكل واجباتنا بوصفها أوامر أخلاقية."(5)و على هذا الأساس

1-ايمانويل كانط،المصدر نفسه، **"الدين في حدود مجرد العقل "** ، مقدمة المترجم ،فتحي المسكيني،ص.11،12

2-المصدر نفسه ،تصدير الطبعة الأولى لكانط ،ص.48،49

3-المصدر نفسه،ص.79

4- المصدر نفسه، ص.80

5- المصدر نفسه،القطعة الرابعة،ص،243.

تصبح الأخلاق جوهر الدين العقلي المحض .مع العلم أنه كان الغرض العام من كتاب الدين هو بيان صلة الدين بالطبيعة البشرية.حيث يقول"كانط""من المقالات الأربع التالية التي سعيت فيها إلى بيان صلة الدين بالطبيعة الإنسانية التي هي مشوبة باستعدادات خيرة في جزء منها وباستعدادات شريرة في جزئها الأخر."(1)

يعتقد مهندس التحليل النفسي، ودائما في إطار فلسفته الإلحادية، بأن الدين هذيان جماعي و سعادة الإنسان مرهونة بقطع الصلة مع عالم الغيب، والانفلات من الأوهام واستبدالها بالتربية غير الدينية والعلم،و استبدال الدين بالعقل لمواجهة غرائز البشر،بينما يرى مؤسس الفلسفة الدينية أن الدين كفيل بتحقيق السعادة للإنسان،لأن الأمل في السعادة القصوى هو الجسر الذي يربط الأخلاق بالدين مثلما أشرنا إلى ذلك سابقا،على أساس أن كل الكائنات العاقلة لها غاية نهائية تطمح إليها من خلال التزامها بالواجبات الأخلاقية وهي السعادة"إن السعادة الخاصة هي الغاية النهائية الذاتية لكل الكائنات العاقلة في العالم."(2) "و بما أن قوة الإنسان لا تكفي لتحقيق السعادة في العالم باتفاق تام مع كونه أهلا لأن يكون سعيدا، فانه ينبغي علينا أن نقبل بوجود كائن خلقي واسع المقدرة بوصفه مهيمنا على العالم بفضله يحدث هذا النوع من الاتفاق أي أن الأخلاق(باعتبارها تنشد السعادة في حياة أخروية غير أرضية) تقود على نحو لا مرد له إلى الدين."(3)

و لا ننسى بأن "كانط" يجعل الشعور الأخلاقي ضروري لتربية الذوق الفني و تهذيبه و هذا ما يقودنا إلى البحث في القيم الجمالية عند كل منهما(كانط و فرويد).فما مصدر الإبداع الفني عندهما.؟ هل مصدره نفسي يعود إلى الدوافع اللاشعورية الجنسية المكبوتة و المرتبطة بمرحلة الطفولة أم يعود إلى العبقرية ،باعتبارها ملكة فطرية خاصة بالفنان.؟ وهل الفنان شخصية مرضية أم طبيعية، عادية.؟وهل حكم الذوق الجمالي ذاتي مادته الخام الغرائز أم ذاتي و يتصف بالكلية والموضوعية، خال من المصلحة.؟

ثالثا-القيم الجمالية بين التحليل النفسي الفرو يدي والفلسفة العقلية الكانطية:

1-ايمانويل كانط،المصدر نفسه ،تصدير الطبعة الأولى لكانط ،ص55.

2المصدر نفسه،تصدير الطبعة الأولى،هامش الصفحة.49

3-المصدر نفسه ،تصدير الطبعة الأولى،هامش الصفحة50.

مثلما أفضنا بالتحليل والتوضيح في الفصل الثاني عن الإبداع الفني عند "فرويد" فانه يعود إلى الدوافع اللاشعورية الجنسية المكبوتة والمرتبطة بمرحلة الطفولة ،و ذلك عن طريق التصعيد أو الإعلاء الذي هو تحويل لليبيدو إلى طاقة روحية ، ولا دخل للقدرات العقلية إلا بنسبة ضئيلة جديدة ، وهذا من خلال تطبيقه لمعطيات التحليل النفسي على الشخصيات الفنية :ليوناردو دافنشي ودوستويفسكي، وعلى الأعمال الفنية والأدبية ،مثل غراديفا ل"ولهام جنسن".بينما يرى "كانط" مصدر الإبداع الفني هو العبقرية ، وهي موهبة أو هبة طبيعية ،أو ملكة فطرية خاصة بالفنان."تنتمي بذاتها إلى الطبيعة(.....)هي(أي العبقرية) استعداد فطري تقوم من خلالها الطبيعة بإعطاء القاعدة أو القانون للفن."(1)

استنتج "فرويد" من خلال أبحاثه بأن الفنان شخصية مرضية تعاني من العصاب نواته عقدة أوديب نواة الأعصبة، أي هناك علاقة بين الفن و المرض ،وكل إبداعات الفنان ما هي إلا تسامي لكبته الجنسي بطريقة قهرية ،بدليل الابتسامة المحيرة التي يرسمها"ليوناردو" على شفتي نماذجه النسائية و يكررها في لوحاته والتي أصبحت إحدى العلامات المميزة لأسلوبه في التصوير والتي تعرف باسم ليونارد يسك. و يظهر التسامي بطريقة قهرية كذلك في أبحاثه العلمية خاصة في مجال الطبيعة ،حيث تصدى لفكرة الأبوة من خلال رفضه للقدماء و للكنيسة المسيحية و دعوته إلى النظر للسلطة نظرة سفلى،فالقدماء و السلطة يعبران رمزيا عن رفضه لوالده و الطبيعة مثلما ذكرنا من قبل ما هي إلا الأم الحنون التي غذته بحنانها الدافق. بينما يرى "كانط" أن الفنان شخصية سوية طبيعية لأن عبقريته الفنية نتاج الطبيعة.

يرى مهندس التحليل النفسي بأن طبيعة الذوق الجمالي ذاتي، لأن مصادر المتعة الجمالية عنده تعود إلى اللاشعور و مادته الخام هي الغرائز الجنسية والعدوانية المكبوتة ،وبذلك تكون القدرات العقلية و الخصائص المرتبطة بالعمل الفني شروطا غير كافية للإبداع و التذوق ،بل الدوافع السيكولوجية و بالخصوص الجنسية هي الأكثر أهمية للإبداع والتذوق على حد السواء ، ومتعة التلقي للعمل الفني تماثل متعة الإبداع،فمثلما تتيح الخبرة

1-د/شاكر عبد الحميد، مرجع سابق"**التفضيل الجمالي،دراسة في سيكولوجية التذوق الفني**" ، ص102.

الفنية للمبدع الفرصة للاستيهامات الخاصة بإشباع الرغبات و الهروب الرمزي أو المراوغة ولو بشكل مؤقت للانفلات من المراقبة اليقظة ،حيث يتحقق الإشباع بطريقة رمزية في الخيال و أحلام اليقظة،يتمكن المتلقي من تحقيق نفس الغاية عن طريق عملية التوحد أو التماهي l'Identification ،و بذلك يؤكد "فرويد" على أهمية عملية التواصل مع الآخرين،لأن عملية التوحد تعتمد على التواصل.في نفس السياق يرى "كانط" أن حكم الذوق ذاتي لكنه يتصف بالكلية و الموضوعية ،أي يمتد إلى الآخرين ،وهو خال من المصلحة،لأن الحكم الجمالي الذي تحركه مصلحة هو حكم غير نزيه ، وقد طبق على الحكم الجمالي مقولات:الكم و الكيف والجهة والعلاقة،التي طبقها على الأحكام المنطقية و يسميها اللحظات أو القواعد التي تحدد شروط الحكم الجمالي، وهي أربع:

***اللحظة الأولى:حكم الذوق وفق الكيف**: حكم الذوق ليس حكما معرفيا ، وعليه ،فهو ليس بالضرورة حكما منطقيا ،انه حكم ذاتي، لا يتحدد من خلال المعرفة بل من خلال الخيال والوجدان، وهو يرتبط أساسا بالشعور بالمتعة و الألم. (1) . حيث يقول "كانط""لكي نميز الشيء الجميل أو غير الجميل،فإننا لا نعيد تمثل الشيء إلى الذهن من أجل المعرفة،بل إلى مخيلة الذات (ربما مرتبطة بالفهم) و شعورها باللذة أو الألم . و من هنا فان حكم الذوق ليس حكم معرفة،و بالتالي ليس منطقيا ،بل جمالي ونعني بذلك أن المبدأ الذي يعينه ،لا يمكن أن يكون ذاتيا."(2) و هو يختلف عن الشعور بالارتياح الذي يحققه الملائم أو النافع أو الحسن،لأن الملائم ،يحقق لنا لذة نستشعرها عن طريق الحواس،لذلك يعد أمرا ذاتيا صرفا، أما الحسن فهو الشيء الذي نستحسنه لما له من قيمة موضوعية في أنفسنا،أما النافع هو الذي يرتبط بتحقيق منافع و أثار ملموسة للفرد، فهو ، لا يرتبط بأي قيمة في ذاته.على خلاف للاشباع الجمالي ،انه بعيد عن هذه الصور الثلاث،فهو بمنزلة شعور خالص بالرضا أو وجدان حر منزه عن كل غرض،فهو ما يروقنا فقط.(3)" الرضا الذي يعين حكم الذوق خال من المصلحة، وعلى كل امرئ أن يقر بأن أي حكم على الجمال يمتزج فيه أقل مصلحة، هو حكم غير نزيه،و لا يمكن أن يكون حكم ذوق محض.فللقيام بدور القاضي في أمور الذوق يجب عدم الاهتمام إطلاقا بوجود الشيء، بل على العكس يجب أن

1-د/ شاكر عبد الحميد،المرجع نفسه،ص96.

2-ايمانول كانط، **نقد ملكة الحكم**،تر/غانم هنا،(المنظمة العربية للترجمة،بيروت،لبنان،الطبعة الأولى،سبتمبر 2005) ،ص.101

3-د/شاكر عبد الحميد، نفس المرجع والفصل، ص97.

أن يكون المرء غير مكترث لما يتعلق به."(1)إن الذي يرضي الإنسان هو الملائم، وهو مشترك بين الإنسان والحيوان، والذي يستحسنه يعد خيرا بينما الذي يسره ويروقه هو الجميل وهو خاص بالإنسان فقط."فالمرء يسمي ملائما ما يرضيه وجميلا ،ما يسره،و خيرا ما يقدره و يستحسنه،أي ما يعزو اليه قيمة موضوعية ،و للملائم قيمة حتى بالنسبة إلى الحيوان العجم(الخال من العقل) أما الجمال فلا قيمة له إلا بالنسبة للإنسان(....) و يمكن أن نقول:أنه من بين الأنواع الثلاثة من الإرضاء،فان رضا الذوق بالجمال هو وحده الرضا النزيه و الحر،إذ لا يحمل على الرضا به أية مصلحة سواء مصلحة الحس أو مصلحة العقل."(2) و بصورة مختصرة للحظة الأولى نستنتج إن حكم الذوق هو الذي يحقق الشعور بالرضا أو عدم الرضا بعيدا عن أية ميل أو مصلحة"انه موضوع الرضا الخالي من كل مصلحة."(3)

في مقابل ذلك يرى "فرويد" أن الذوق الجمالي غير خال من المنفعة، بل يرتبط بتحقيق الرغبات الجنسية بطريقة وهمية مزيفة ،و الهروب المؤقت الذي يحققه المبدع والمتذوق هو أساس الخبرة الجمالية. وهكذا يكون "كانط" قد أسهم بشكل رئيسي و فعال في التأسيس ل"لا غائية الجمال"بعزله عن قيمتي الحق والخير .

***-اللحظة الثانية:الحكم على الجميل وفق الكم:**للحكم الجمالي طابعا كليا، أي لابد أن يكون الجميل موضوع رضا الإنسانية جمعاء،ولا يكفي أبدا أن يروقني الشيء حتى أصفه بالجميل، أي الجميل ، ليس الذي يحقق الرضا لبعض الناس فقط ،بل موضوع رضا كلي أو ارتياح عام دون الحاجة إلى مفهوم عقلي محدد خاص حول الشيء،و الحقيقة التي لابد للمرء أن يكون واعيا بها هي أن ما يشعر به المرء من ارتياح منزه عن كل هوى أو مصلحة ،و هذا الرضا هو رضا لجميع البشر، ولذلك لا يمكنه أن يقول بأساس ذاتي خاص به يرتبط بهذا الشعور،بل عليه أن يفترض وجود هذا الشعور في كل إنسان ،كما لو أن الجمال صفة موضوعية مرتبطة بالموضوع ، وكان منطقيا ، وفي هذه الحالة يماثل الحكم الجمالي ،الحكم المنطقي ،لأننا نفترض صدقه بالنسبة

1-ايمانويل كانط،،المصدر نفسه،ص.103

2-المصدر نفسه ،ص .109،110

3-المصدر نفسه ،ص111.

لجميع الناس،لكن هذا التعميم لا ينشأ عن تصورات عقلية لأن الوعي الخاص المرتبط بالشعور باللذة أو الألم لا ينشأ من مفاهيم عقلية ولا عن مصلحة ما، فهو يمثل نوع من العمومية الذاتية la Subjectivité univers ale .(1)

اللحظة الثالثة :أحكام الذوق في ضوء العلاقة:يرى "كانط" أن حكم الذوق هو حكم غائي ،لكنه حكم غائي بلا غاية،أي حكم بلا غرض عملي محدد ،و يرى أن الفرد يقوم بإنتاج بداخله نموذج أعلى أو أصلي للذوق وبناءا عليه يحكم على الموضوعات ، و هو ما يسمى بمثال الجميل،ينتجه، ينتجه كل فرد بالاعتماد على نشاط العقل والخيال الذي يتكئ على عرض للصور وللأشكال،حيث يكون صورة وسيطة أو عامة تقوم بدور ت مثيل الجميع.(2) ،و هو عبارة عن فكرة مجردة ،حيث يقول"ينتج عن هذا أن النموذج الأعلى ،الصورة الأصلية ،هي مجرد فكرة يجب على كل واحد أن ينتجها في ذاته،ووفقا لها ،يجب أن يحكم على كل موضوع للذوق وكل ما هو نموذج لحكم الذوق،بل وذوق كل إنسان."(3) وهكذا ،تؤكد هذه اللحظة على أن الأحكام الجمالية مستقلة عن كل الأغراض الحسية والانفعالية و التصورات العقلية .(4)

على نقيض "كانط" يعتقد "فرويد" بأنه لا يوجد نموذج أصلي للذوق أو مثال للجميل يحكم به الفرد على الموضوعات ،بل يبقى حكم الذوق مرهون بتحقيق مزيف للرغبات الجنسية اللاشعورية .

اللحظة الرابعة:الحكم على الموضوع في ضوء الجهة الخاصة بالرضا أو الإشباع الخاص بالموضوع(أي من حيث الإمكان أو الضرورة):يرتبط الجميل على نحو ضروري بالرضا أو الإشباع ،لكن هذه الضرورة هي من نوع خاص ،فهي ليست ضرورة نظرية موضوعية ،نعرفها على نحو مسبق أو قبلي ،إن كل فرد يستشعر بمثل هذا الرضا عندما يدرك موضوعا جميلا، وهذه الضرورة الخاصة ،يمكن أن نسميها "ضرورة نموذجية"

1-ايمانويل كانط،،المصدر نفسه"**نقد ملكة الحكم**"، ص.111،112

2-د/ شاكر عبد الحميد ،المرجع نفسه" **التفضيل الجمالي وسيكولوجية التذوق الفني**"،ص100،101.

3-ايمانويل كانط، المصدر نفسه ،ص.137

4-د/شاكر عبد الحميد،المرجع نفسه،ص 103.

،خاصة بالاتفاق من طرف الجميع على حكم معين ،كما أن هذه الضرورة الذاتية التي تنسب إلى حكم الذوق مشروطة بالوجوب من كل الأفراد، و هذا يعني أن شرط الضرورة هو نفسه "الحس المشترك" وهو إحساس عام مشترك بين جميع الناس، ومنه يكون تبادل الانطباعات الجمالية بينهم أمرا ممكنا (1)، و بذلك يجعل "كانط" الجمال بمثابة "أمر استاطيقي" يشبه إلى حد ما "الأمر الأخلاقي" من حيث أنه ضروري و أولي.(2)

إن الشعور بالارتياح أو الرضا الذي يحققه الجميل في الجمالية الكانطية هو شعور كل إنسان لنفس الموضوع ، فالجميل يروق الإنسانية جمعاء، وهذا ما يجعله يتصف الكلية أو العمومية الذاتية ،بينما الذوق الجمالي عند "فرويد" يمكن المتلقي من إشباع رغباته الجنسية بطريقة رمزية عن طريق التوحد مع المبدع و هذه العملية تقوم على التواصل مع الآخرين، لكن هذا التواصل لا يصل إلى درجة العمومية التي دعي إليها "كانط " بل تبقى على شكل علاقة تربط المبدع بالمتذوق،لامتلاكهما نفس الدوافع ، ولأن لهما نفس الغاية و هي رغبة كل منهما في التنفيس عن الرغبات بالهروب من الواقع أو في عالم الخيال.

رغم تناقض أرائهما ،إلا أنهما يشتركان في فصل الجمال عن التصورات العقلية والمعرفية ،فالذوق الجمالي في الاستيتيقا الكانطية يحقق الإشباع و الارتياح دون مفاهيم عقلية ،و نفس الرأي تقريبا يؤمن به مهندس التحليل النفسي، لأن متعة الذوق الجمالي التي يحققها العمل الفني مصدرها الدوافع الجنسية المكبوتة في اللاشعور،و بالتالي يتفقان بالقول بالطبيعة النسبية للذوق الفني أو الإحساس بالجمال.

كما يشتركان في منح الأهمية للخيال الحر في التذوق والحكم الجمالي،فقد رأى "كانط" أن حرية الخيال تكمن في كونه يقوم بالتخطيط Schématisation دون أي تصور أو مفهوم عقلي محدد،(3) ويمنح "فرويد" بدوره أهمية للخيال الحر في تحقيق إشباع الرغبات بطريقة رمزية.

1-ايمانويل كانط،المصدر نفسه ،ص ص 143-146.

2-د/ شاكر عبد الحميد، المرجع نفسه،ص 102.

3-نفس المرجع ،ص104.

المبحث الثاني:دراسة نقدية للتفسير السيكولوجي للقيم عند "فرويد".

تعرضت أراء "فرويد" في مجال الأكسيولوجيا إلى انتقادات لاذعة و هجوم حاد من طرف كثير من الفلاسفة و علماء النفس و خاصة المنشقين عنه و الرافضين لفلسفة التحليل النفسي ،والذين يعرفون باسم الفرويدية الجديدة أو ما بعد الفرويدية ، و رغم ذلك فقد قبلها علماء كثيرون و دافعوا عنها و اجتهدوا من اجل نشرها والدفاع عنه، وسنتعرض إلى أغلب هذه الانتقادات بالتحليل والتفصيل.

أولا:نقد تفسير التحليل النفسي لنشأة القيم الأخلاقية وطبيعتها.

إن اللوحة التاريخية التي رسمها "فرويد" والتي تمثل بداية الأخلاق ،لا تستند إلى أي أساس علمي ، بل تبقى مجرد فرضية ،إن فرضية "داروين" القائلة بأن المجتمعات البدائية كانت في شكل قطعان و نقائل بدائية مثلها مثل القردة ، وفرضية "أتنكسون" التي تدعم فكرة "داروين" و التي اعتمدت عليها فرضية "فرويد" ،قد أثبتت أبحاث الاثنوغرافيين المعاصرين بأنها غير مؤسسة علميا ،و لا تساعدنا على الفهم الحقيقي لتاريخ تطور المجتمع البشري و على كيفية بداية الأخلاقيات.(1) و لتوضيح ذلك:

1- يعتقد "فرويد" أن نشأة الأخلاق و قيام المجتمع و الحضارات يبدأ بأسطورة القبيلة البدائية التي يحكمها أب قاس مستبد ،استأثر نساء القبيلة ،فحاول أبناء القبيلة أن يتمردوا عليه (سلطة مبدأ الواقع،الأب) ،فثاروا عليه و التهموه ،ليتحرروا من استئثاره بالنساء، وعندما قتل الأبناء الأب و استولوا على النساء لتحقيق غرائزهم ،نشأت الخطيئة الأولى .غير أن الأبناء تنازعوا حول ميراث الأب المقتول ،إلى أن حدث نوع من الاتفاق الاجتماعي ،يتنازل بموجبه الإخوة عن غرائزهم ،فيتحملون الكبت لصالح قيام المجتمع ،و بذلك تم إحلال الطوطم كنائب للأب ،و تأسست التحظيرات الأخلاقية ، تحريم القتل، وتحظير زنى المحارم ووجوب الزواج الخارجي.

إن هذا التفسير لا يقدم الحجة الكافية على بداية الأخلاق لأن الأمر في هذه الحالة لا يخص الواجبات الأخلاقية في المجتمع البدائي ،و إنما يرتبط بالتنظيم الاجتماعي ، لأن تغير آليات الضبط الاجتماعي و العلاقات بين البشر من شكل إلى أخر لا يدل بالضرورة على وجود مبادئ أخلاقية للسلوك الإنساني ،فالتابو الذي تحدث

1-فليري ليبين ،مرجع سابق **"فرويد التحليل النفسي والفلسفة الغربية"** ص101.

عنه "فرويد" يمثل الشكل البدائي للتنظيم الاجتماعي ، وتحريم القتل و تحريم زنا المحارم لا تمثل ضوابط لتنظيم السلوك البشري و لا تشكل قيودا أخلاقية حصرا،لأنها لا تقوم على أساس الوعي الأخلاقي.(1)

2-يعتقد "فرويد" أن "عقدة أوديب" عالمية ،و هي النواة التي فجرت الصراع بين الإخوة الأشقاء و الأب البدائي في العشيرة البدائية ،و هذا الاعتقاد ناجم من إيمانه بوجود " نفس سلالية" تتوارث الخصائص البيولوجية والنفسية ،بحيث تنتقل التجارب الوجدانية من جيل إلى أخر،و تتجسد وراثة الميول النفسية في "الأنا الأعلى"(القيم الأخلاقية والاجتماعية،الضمير) وريث"عقدة أوديب"،و الأنا الأعلى يتصرف على مر الأجيال كما لو كان حاملا للتقاليد و الأعراف ،حتى أنه يمثل مجموعة من التماهيات بالوالدين و بالخصوص سلطة الأب ، حيث يظهر الشعور بالذنب النابع من قتل الأب البدائي بعد قرون و أجيال من اقتراف الجريمة ، وهذا يعني أن فلسفة التحليل النفسي الفرويدية ،تقوم على مفهوم جوهري وهو عودة الكبت Retour de refoulementفي صورة ميراث عقلي فطري منذ المجتمع القبلي" العشيرة البدائية" و الذي يدعم ذلك هو أن الحضارة لازالت تقمع الرغبات الجنسية ،وبذلك توارثت البشرية مشاعر الشعور بالذنب التي يشعر بها القتلة والرغبات الجنسية المكبوتة ليس عن طريق الوعي وإنما عن طريق اللاوعي ، لذلك تكون حياة الفرد ما هي إلا تكرار للتاريخ البدائي للجنس البشري ،و المطلوب من الطفل أن ينتصر على البذور البدائية (الرغبات الجنسية والعدوانية) و أن يعمل على كبتها لصالح الأنا الأعلى،هذا الميراث المختزن في لاوعي الإنسان جعل "فرويد" يعتقد بعالمية "عقدة أوديب".

هذا الاعتقاد تعرض إلى انتقادات من طرف كثير من الباحثين و على رأسهم " برنسلاف مالينوفسكي*" Bronislaw Malinowski ،فقد أثبتت أبحاثه أن "عقدة أوديب" ليست عالمية ،و هي ترتبط بنمط الأسرة أو الشكل الأسري الأبوي الموجود في المجتمعات الأوربية الآرية ،أي نظرة مطبق التحليل النفسي على المجتمعات مرتبطة برؤية واحدة ه ،هي الثقافة الأوربية المنحدرة من ثقافة رومانية مسيحية المدعمة

1-فليري ليبين،المرجع نفسه ، ص 104.

*-برنسلاف مالينوفسكي(1889-1942م):أنثر وبولوجي بريطاني من أصل بولندي،ينتمي إلى الفرويدية الجديدة.أخذ بمنهج التحليل النفسي،ولكنه عارض أراء "فرويد" فيما يتعلق بالثقافة و أثرها على تنشئة الفرد سيكولوجيا،وتأثر بأفكار فريزر الأنثروبولوجية،أشتهر بدراسته لثقافة شعب جزر تروبرياند .

بالبورجوازية الاقتصادية.(1)فالعقدة العائلية le Complexe familial تتغير بتغير شكل الأسرة ،وذلك بعد أن أجرى مقارنة بين الأسرة الأبوية la Famille patrilinéaire الموجود في مجتمعاتنا الحديثة المتحضرة،أين تكون السلطة للأب ، وبذلك ينشأ الصراع بين الأب والابن ، الذي يعد نواة "عقدة أوديب"،و بعض الجماعات في المنطقة الشمالية الغربية من ميلانيزيا Mélanésie ،يعرفون بسكان "تروبرياند"" Trobriand" ،أين يسود الشكل الأسري الأموي أو العائلة الأموية Famille matrilinéaire،فالأم هي نواة الأسرة ، والوراثة تنتقل بحسب عمود الأم ،و الابن أو البنت تتبع وضع الأم و ليس الأب، والأب يعتبر غريبا كليا عن أولاده ،و ليس أبا لهم ، وهو راعيا وصديقا لهم، لذلك لا توجد علاقة صراع بين الابن و الأب لأنه محبوب و غير مكروه، ولأن السلطة تعود إلى الخال(أخ الأم) و هو يعيش خارج الجماعة العائلية بسبب وجود "تابو" الإخوة والأخوات ، وبذلك يصل "مالينوفسكي" من خلال دراسته الميدانية الأنثروبولوجية إلى أن "عقدة أوديب" توجد في المجتمعات الأبوية التي تتميز بتحريم العلاقة مع الأم و بالكرة تجاه الأب ،بينما في المجتمعات الأموية النسب هناك عقدة أخرى، ترتبط بالعلاقة المحرمة مع الأخت و الكره نحو الخال ،لأن السلطة أصبحت في يد الخال(شقيق الأخت) و الموضوع الجنسي المحرم هو الأخت.(2)

و يصل إلى إثبات وجود عقدة أخرى جديدة ترتبط بالصراع الطفولي ،المرتبط هو الأخر بالنمط الأسرى السائد في المجتمعات هي "العقدة النووية" le Complexe nucléaire.(3)

3-يعتقد "فرويد" أن نواة الصراع في العشيرة البدائية هو "عقدة أوديب" حيث يتنافس الأبناء على الأم ،لكن لماذا يرتكز الليبيدو على الأم فقط دون غيرها من البنات.؟ ولماذا يحدث الصراع داخل الجماعة الواحدة بدل من محاولة سبي نساء من جماعات أخرى.؟ ولماذا يبقى الأبناء مرتبطين بالعائلة الواحدة التي انبثقوا منها مع

1- Bronislaw Malinowski **.la sexualité et sa répression dans les sociétés primitives**(traduction francaise1930.édition électronique .réalisée avec le traitement de textes.microsoft word.en mars 2002 .une collection développée en collaboration avec la bibliothèque Paul Émile boulet de l'université du Québec Chicoutimi). P11.

2-ibid. P13.14.

3-ibid. P16

شعورهم بالكراهية تجاه الأب والرغبة في موته، بدل الذهاب إلى مكان أخر.؟ (1)

إن دراسات "مالينوفسكي" على المجتمعات البدائية و بالخصوص سكان "تروبرياند" ،الذات الشكل الأسري الأموي ،أن الصبيان الصغار والبنات الصغيرات يلعبون لعبة الأم و الأب قبل سن البلوغ ويمتثلون الألعاب الجنسية الغلمية ،و يتعانقون فيما بينهم،و هذا يدل على أن الليبيدو لا يتجه نحو الأم ،و ما ينطبق على المجتمعات البدائية الحالية يمكنه أن ينطبق على العشيرة البدائية.(2)

و يرى "مالينوفسكي" أنه حتى لو افترضنا أن الليبيدو كان متجها نحو الأم ، فلكي يحدث الصراع وجريمة القتل لابد أن يعرف البدائي الغيرة ،و البدائيين لا يعرفون الغيرة الجنسية ،و لكي يكون ثمة شعور بالغيرة ،لابد أن تكون المرأة ليست مجرد حبيبة فقط، بل تعتبر و كأنها ملكية خاصة،و هذا الحس كان ضعيفا عند البدائي، ولو كان البدائي يعرف الغيرة لتوقف الصراع حول الأم بمجرد أن تنفذ جريمة قتل الأب.(3)

4-يرجع التحليل النفسي الأخلاق إلى الشعور بالذنب والندم على اثر قتل الأب في القطيع البدائي ،لكن "مالينوفسكي" يرى بأن الندم يستلزم وجود ضمير ،والضمير كما هو معروف نتاج الحضارة وهو مجرد من الغريزة البيولوجية ،أي ليس فطري ، إن المجتمع والوعي الأخلاقي وما ينجر عنه من مبادئ الأخلاق لم يولد مباشرة من الليبيدو و لم ينبثق مباشرة من الأرض لصالح الجريمة الكارثة أو التمرد.(4) وعليه فان ربط الشعور بالذنب والندم والضمير "بعقدة أوديب" واستنتاج الواحد من الأخر يوقعنا في حلقة مفرغة .(5) لأن مضمون "عقدة أوديب" يستند على وجود قيم أخلاقية و وعي أخلاقي"ضمير" و إلا ،لا يكون لها معنى،هذا ما يدفعنا إلى التساؤل:أيهما أسبق .؟ و أيهما علة للأخر.؟ هل الأخلاق و الضمير كانا العلة في وجود "عقدة أوديب" أم عقدة الأوديب الكبرى في العشيرة البدائية وما نتج عنها من صراعات بين الإخوة هي التي أثمرت الشعور بالذنب

1-د/فيصل عباس ،**التحليل النفسي و الاتجاهات الفرويدية،المقاربات العيادية** ،(دار الفكر العربي،بيروت،لبنان ،الطبعة الأولى 1996م)ص.146

2-ibid. P13.

3-المرجع نفسه ،ص.146

4-المرجع نفسه ،ص.147

5-فليري ليبين ،المرجع نفسه ،ص113.

الذي شكل تأسيس الوعي الأخلاقي.؟ وهذا ما يوقعنا في مشكلة الدور الديكارتي .

كما أن رد الأخلاق إلى الشعور بالذنب و في النهاية إلى "عقدة أوديب"، تعترضه تناقضات و صعوبات عديدة ، لماذا تشرب الإخوة الذين قتلوا الأب فجأة مشاعر الذنب والندم.؟ أليسوا مجرمين خرقوا الضوابط الاجتماعية السائدة في المجتمع البدائي.؟ و كما هو معروف حتى في المستوى الأرفع من تنظيم الحياة الاجتماعية لا يمتلك كل مجرم وعيا أخلاقيا ، ولا يشعر بالندم للجرم الذي اقترفه، وحتى لو افترضنا أن نشاط الأبناء اللاواعي قد تطور إلى وعي أخلاقي فان هذا لا يعني الاعتراف الإلزامي بالذنب ،وبالتالي ليست له طبيعة أخلاقية ،بل من الأرجح أن يبرر تبريرا ذاتيا ،كضرورة الكفاح من أجل البقاء،مع العلم أن الروابط القائمة بين البدائيين هي روابط دموية ،وهي لا تتوافق أبدا مع الالتزامات الأخلاقية.(1) وبصيغة أخرى، التحليل النفسي يرى بأن الشعور بالندم كان كرد فعل سيكولوجي على الفعل الإجرامي الذي أرسى البداية لظهور الأخلاق، لكنه لم يحدد طبيعة الندم من حيث هل هو خاص بالأخلاق أم له أسباب أخرى تخرج عن نطاق الأخلاق.؟ و لم يبرهن على الطبيعة الأخلاقية لهذا الندم من حيث هو أساس لجميع المعايير الأخلاقية.(2)

5- يعتقد "فرويد" بأن الضمير "الأنا الأعلى"وريث "عقدة أوديب" وهو يمثل معايير الإنسان الأخلاقية ناتج من كبت الغرائز ،بل ونشوء المجتمعات و قيام الحضارات، كان نتيجة للكبت الجنسي،لكن أبحاث "مالينوفسكي" الانثروبولوجية أثبتت أن في بعض القبائل البدائية في الباسفيك"Pacific *" تختفي كل أنواع الميول العدوانية والكبت الجنسي وعليه، المجتمع و الحضارة والأخلاق لا تتأسس على كبت الميول الفطرية، بل على إظهارها أكثر من كبتها مع خضوعها للعادات و القوانين، أي ترويض هذه الميول بما يتماشى مع القوانين والعادات.(3)

وبناءا على ما سبق، فان الغرائز ليست ثابتة،بل تتصف بالمرونة ،ومتحولة في جزء كبير منها ومقبولة بفعل الوسط الاجتماعي والحضارة ،وهي الصفة التي تميز الإنسان عن الحيوان ،على خلاف ما كان يعتقد

1-فليري ليبين،المرجع نفسه "**فرويد التحليل النفسي والفلسفة الغربية**" ص.105

2- المرجع نفسه،ص104.

*-القبائل البدائية في الباسفيك:و تشمل جزر المحيط الهادي(ميلانيزيا، بولينيزيا، ميكرونيزيا)،وهي منطقة تتمركز في جنوب المحيط الهادي.

3-د/ فصل عباس ،المرجع نفسه ،ص150

"فرويد " بأن الغرائز ثابتة.(1)

6- استند "فرويد" في تبرير نشأة الأخلاق والدين على أبحاثه المتعلقة بالوليمة الطوطمية، وهو يعتقد أنها تكرار لذكرى قتل الأب البدائي و إحياء لمشاعر الشعور بالذنب ،غير أن هذا التفسير يرفضه"روها يم"*"Róheim" الذي يرى أن أكل لحم الطوطم أو الأب المفترض هو نكوص للمرحلة الفمية و إحياء لأوهامها ،و التي تعتبر مرحلة ضرورية في تطور الطفل النفسي والجنسي ،فهي تمثل العدوان كرد فعل لقلق الانفصال ،و يتمثل العدوان في قتل الطوطم ،ثم تلي محاولة إنهاء الانفصال و لم الشمل واستحداث الاجتماع بالكل من الطوطم و المشاركة في الوليمة الاجتماعية،لأن الإنسان ابن طفولته و علاقة الطفل بأمه هي أقوى العلاقات.(2)

فضلا عن ذلك أبحاثه حول رهاب الأطفال ،التي رأى أنها مجرد تحويل ل"عقدة أوديب" كانت محل نقد من طرف بعض المحللين النفسانيين ، ومن بينهم "اريك فروم" Irik Fromm ،حيث رفض تحليل قصة "هانز الصغير" و حللها تحليلا مغايرا ل"فرويد"

7-يرد التحليل النفسي الأخلاق إلى قمع الغرائز "الليبيدو"، وقد وصفت الفرويدية بأنها **"نظرية الجنس الشامل"** Pansexualisme،لأن صاحبها يرى بأن الجنس هو التفسير الأعلى للحياة العقلية ، و قد أنتقد كثيرا في هذه الفكرة لأن الحب لا يقتصر على الليبيدو،بل يتعداه إلى أشكال أخرى غير جنسية.

و حصر الحياة الإنسانية في الليبيدو يعني من الصعب استخراج أشكال اللذة الأخرى،إن اللذة الجنسية تعتبر نوعا من اللذة ،إلى جانب الأشكال الأخرى غير الجنسية.(3)

إن القيم الأخلاقية لها مرتبة سامية في حياة الإنسان ،فهي التي تمنحها وجهتها وتضيء أمامها الطريق،لذلك فهي لا تعود إلى الليبيدو"فالأعلى الذي ينير الوجود أمام أعيننا و يعطينا تفسيرا،لا يمكن تفسيره بالأدنى الذي

1-د/فصل عباس،المرجع نفسه ،ص150،151.

*-روها يم(1891-1953م):أمريكي من أصل مجري،يعتبر رائد تطبيق التحليل النفسي في مجال الأنثروبولوجيا،و كان من الأوائل الذين خرجوا عن "فرويد" في هذا المجال،أعجب بكتابه"الطوطم والحرام".ركز على مرحلة الطفولة في التطور الجنسي والنفسي للفرد، ورأى أن الإنسان ابن طفولته،و رأى بأن جذور الثقافة ينبغي البحث عنها في طفولة الإنسان،وطفولة المجتمعات الإنسان. وعلاقة الطفل بأمه هي أقوى العلاقات الإنسانية.

2-المرجع نفسه ، ص ص152-.154

3-د/ ربيع ميمون، مرجع سابق**"نظرية القيم في الفكر المعاصر بين النسبية والمطلقية"**، ص166.

يفتح لنا الطريق إلى كل المتاهات ،إذا تعلقنا به."(1) ولو كانت القيم الأخلاقية ناتجة من قمع الغرائز لما شملت على هذا العدد الهائل من الواجبات كالصدق و الأمانة والإخلاص...الخ و على هذا العدد الهائل من التحضيرات كتحظير القتل والزنى والكذب والسرقة ...الخ و بذلك تكون الفرويدية قد أطاحت من قيمة الإنسان إلى مرتبة الحيوان ،و لهذا رفض علم النفس الإنساني* بقيادة "وليم جيمس*"William James،و "غولد شتاين*" Hurt goldstein"روجرز"Carl Rogers* ، هذه النظرة الأحادية التي تجعل السلوك الإنساني مقيدا بغرائز لاشعورية ،و رأوا بأن الإنسان هو مجموعة من الأفكار والقيم ،و هو حر و قادر على تحقيق ذاته و تقرير مصيره .(2) و قد رفض "أدلر"Adler تلميذ "فرويد " ومؤسس السيكولوجيا الفردية* ،قول أستاذه بالجنسية الشاملة ، ورأى أن الإنسان ليس مجرد ألة تعمل ميكانيكيا تحركها الدوافع الجنسية المكبوتة ، وهو كائن شعوري واع لأحواله و أفعاله و أماله وطموحاته وهو ذات واعية وخلاقة واجتماعية.(3) و كما رفض مفاهيم الكبت والنشاط الجنسي في مرحلة الطفولة وحتى فكرة اللاشعور ذاتها، وقد عرض أفكاره في اجتماعات جمعية الأربعاء لعلم النفس.* في كانون الثاني وشباط من سنة1911م،وقد قال"بما أن الكبت عند "فرويد" يأتي من الحضارة،و أن الحضارة تأتي من الكبت،فان كل هذا الحديث عن الكبت كان تلاعبا بالألفاظ."(4) و عليه، الأنا الحقيقي هو أنا العقل والحرية ،"فأنا الإنسان الأساسي ليس هو الأنا التحتاني الغريزي الذي يوجد في مستوى

1-د/الربيع ميمون ،المرجع نفسه ،ص168.

**-علم النفس الإنساني:ظهر كرد للتحليل النفسي و للمدرسة السلوكية اللذان جردا الإنسان من العقل والشعور واعتبراه مجرد آلة بيولوجية،لذلك فهو ينظر للإنسان كعقل وحرية وإرادة وشعور.و هو يرى أن الإنسان له غرض وقيم واختيارات و قدرة على تقرير مصيره بنفسه وتحقيق ذاته،و يسمى بالقوة الثالثة.

*-وليم جيمس(1842-1910م):فيلسوف أمريكي ذو نزعة براغماتية،يعتبر من مؤسسي التوجه الإنساني في علم النفس.

*- هرت غولد شتاين(1875-1965م):عالم أعصاب وطبيب نفساني ألماني.

*-كارل روجرز(1902-1987م) وهو عالم نفساني أمريكي

2-د/فيصل عباس،المرجع نفسه **''التحليل النفسي و الاتجاهات الفرويدية،المقاربات العيادية''** ص154.

*-يقوم علم النفس الفردي على فكرتين:الميل لتعويض الشعور بالدونية أو النقص،و العدانية الفطرية ،و قد استوحاه من هوبز بواسطة نيتشة.

3-د/ فيصل عباس ، المرجع نفسه،ص83.

*-جمعية الأربعاء للتحليل النفسي: أسسها "فرويد" سنة 1902م،تمثل حركة التحليل النفسي،المتكونة من حشد من المريدين تجمعهم أمسيات الأربعاء.

4-د/برسيفال بيلي،**نقد نظرية التحليل النفسي**،تر/ وتعليق د/محمد هلال(دار المناهج للنشر والتوزيع،سلطنة عمان،الطبعة الأولى 1999م)،ص.121

5-د/ الربيع ميمون،نفس المرجع والفصل،ص165.

الميول الدنيا ،بل أنا الحرية و العقل والروحانية والإرادة والميول العليا."(1)

هكذا يكون التفسير النفساني للقيم الأخلاقية ضعيف لقيامه على أسس واهية ،هي مجرد فرضيات ،إلا أن هذا لا يعنى أن هذا التفسير مرفوض بصفة مطلقة،بل يمكن القول أن "فرويد" تمكن من تلمس الجوانب الأساسية لنشاط الإنسان و المتمثلة في التحديد المزدوج للسلوك البشري و المرتبط برغبات الفرد الطبيعية و متطلبات الحياة الاجتماعية و الأخلاقية و المعنوية،أو بين الحوافز الداخلية و القيود الخارجية المفروضة على الإنسان.(2)

ثانيا:نقد التحليل السيكولوجي للدين.

إذا كانت الأخلاق ترتبط بالدين ارتباطا وثيقا ،على أساس أن العلاقة القائمة بينهما هي علاقة نسب ،فان الانتقادات و الاعتراضات التي توجه للدين تعتبر في أساسها استكمالا للاعتراضات السابقة، وهنا يحق لنا أن نتساءل:هل يمكن قبول وجهة نظر التحليل النفسي للدين.؟ وهل فعلا المعتقدات الدينية مجرد أوهام و خيالات تعبر عن قلق طفولي يعيشه الفرد.؟

لابد من الإشارة إلى أن هناك من يعتقد بأن "فرويد" لم يعاد الدين بالجملة وإنما عاد الجانب الميتافيزيقي فيه أو الديانات السماوية ، و هذا ما سعى عالم النفس مدرسة فرانكفورت "اريك فروم" Irik Fromm،إلى إقناعنا به.(3)

و نتعرض إلى توضيح وتحليل وجهة نظره ،بعد أن نحلل نقاط الضعف وجهة نظر "فرويد" الرافضة للدين السماوي، وقد نبه الدكتور "عبد المنعم الحفني" في ترجمته لكتاب "الحب و الحرب و الحضارة و الموت" في هامش ص34،إلى أن "فرويد" ملحد،في قوله" ننبه إلى أن "فرويد" ملحد ،برغم تذكيره الدائم باعتزازه بيهوديته، واليهودية التي يعتنقها ،ليست ديانة ،بقدر ما هي نظرة فلسفية و رؤيا خاصة للحياة ،هي سمة

1--د/ الربيع ميمون،المرجع نفسه ،ص.165

2- فليري ليبين،المرجع نفسه **"فرويد التحليل النفسي و الفلسفة الغربية"** ،ص106.

*-اريك فروم(1900-1980م):عالم نفساني ،وفيلسوف إنساني ألماني أمريكي،ولد في مدينة فرانكفورت و هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية،من مؤلفاته:الهروب من الحرية(1941)التحليل النفسي والدين(1950)،أزمة التحليل النفسي..

3- مجموعة من المؤلفين ،نفس المرجع**"فلسفة الدين"** ،ص181،182.

الشعب اليهودي أو هي تراث "فرويد" الذي ينتسب إليه،و "فرويد" حينما ينسب نفسه إلى موسى،يقصد موسى هو مؤسس الشعب اليهودي،و أنه البطل القومي لليهود، وهو يتناوله كمنظر ديني ،في عصر كان التنظير ،فيه للدين،و كان الدين ظاهرة، وحينما يناقش "فرويد" مسألة موسى في كتابه "موسى والتوحيد"(من ترجمتنا) لا يناقشه إيمانا بموسى كنبي ، ولأنه يناقشه إيمانا بموسى كمنظر عظيم لمرحلة من مراحل الحضارة،هي المرحلة الدينية التوحيدية، بعد المرحلة الدينية المتعددة الآلهة، ومن ثم فتعامل "فرويد" لموسى واليهودية تعامل واقعي مادي ،و ليس تعاملا ميتافيزيقيا ، واعتقاده فيهما،اعتقاد في تراث ينتسب إليه حاضره و يمتد إلى المستقبل،و أحسب أن هذا ما يقصده حينما يقول موسوي او إسرائيلي أو يهودي." (1)

يعتقد مؤسس التحليل النفسي أن الدين ليس حقيقة خارجية ،ميتافيزيقية ،تقوم على التسليم والاعتراف بقوة غيبية ، تتحكم في مصير الفرد،بل هو مجرد حالة نفسية لقضية وهمية تعود إلى أثار الطفولة ،ترتبط بعقدة أوديب ،فعندما يعرف الطفل بأنه يبقى طوال حياته طفلا و أنه بحاجة إلى حماية من قوى عليا يصنع لنفسه أب عظيم،هو الله،يخشى منه ويسعى إلى عطفه و ينتظر منه الحماية، وهو بذلك حاول أن يكذب جوهر الدين و أصله ،لكنه لم يتطرق إلى حقيقة العقائد الدينية ذاتها ،و الاعتراضات التي يمكننا أن نوجهها هي:

1-يرى "فرويد" أن الدين ظهر على اثر الجريمة الشنعاء التي أرتكبت في فجر الإنسانية ضد الأب البدائي،لكن ما الذي جعل الإنسان يخلد هذه الذكرى.؟ ولماذا الإنسانية تتناقلها جيلا بعد جيل.؟ إن كثير من الآباء قتلوا أبائهم في لحظة ضعف أو غضب،لكن أحفادهم لا يهتمون بهذه الجريمة و لا يمنحونها صفة القداسة ،و لا تلبث أن تمحى من ذاكرة الأجيال عبر الزمن.

و عليه تأسيس الدين على جريمة قتل الأب البدائي التي زعمها "فرويد" هي مجرد فرضية ليس لها أساس علمي ،واقعي.

2- إذا كان الدين مجرد وهم ناتج من الخوف الطفو لي و القلق والضائقة الإنسانية إزاء أخطار الحياة ،فكيف نفسر المعجزات ،لأن كل الرسالات مقرونة بمعجزات تدعمها ،و كيف يمكن التوفيق بين الحالة النفسية التي يعيشها الفرد وهذه الخوارق الطبيعية .؟

1-سيغموند فرويد،مصدر سابق"**الحب و الحرب والحضارة و الموت** " هامش ص34

3-إذا كان الدين ناتج من "عقدة أوديب" و هو مجرد امتداد للعلاقة بين الأب و الابن،فلماذا لا نجد هذه العلاقة في كل الأديان.؟ فهي موجودة في بعض الديانات كالديانة المسيحية،و الديانة اليهودية، وغير موجودة في الإسلام،لذلك وقع مؤسس التحليل النفسي في خطأ تعميم نموذجي الديانة المسيحية واليهودية على جميع الأديان،،و هذا التفكير ليس له مصدر سوى ما يعتقده اليهود بكونهم أبناء الله، ويتبعه في ذلك النصارى.*

4- لا يمكن الاستدلال و تعميم ذلك بالربط بين خوف الابن من أبيه و خوف الإنسان من الله، بدليل الأيتام، فاليتيم الفاقد لأبيه لم يعرف يوما الخوف من أبيه.

5- لو كانتا "عقدة أوديب" و "الشعور بالذنب" هما اللذان أنتجتا الدين ،لما استطاع الدين أن يجيب عن الغاز فلسفية كبرى تتعلق بالموت والحياة والمصير ،و لما استطاع أن يحل مشاكل البشرية المتعلقة بالعلاقات الاجتماعية و طبيعة تنظيمها،كما أن الأدلة العقلية على وجود الخالق باعتباره واجب الوجود لا تدع مجالا لفرضية "فرويد".

6-يرى "فرويد" أن الدين نابع من الصراع بين الدوافع الغريزية و التمرد على الأب، وإنكار الغرائز الجنسية و العدوانية القائمة على الشهوة ، والتضحية بها من أجل الحصول على مبادئ أو مثل عليا،حيث يقول في كتاب"موسى والتوحيد""فنحن إذا أبينا أن نصدق أن نكران الدوافع الغريزية و الأخلاق المبنية على هذا النكران هما جوهر الدين،فهذا لن يغير شيئا من حقيقة أن النكران و الدين مرتبطان وثيق الارتباط و راثيا وتكوينيا ."(1)

لكن ،لو كان كذلك لما أتيح لهذا الصراع الذي انتهى إلى النكران إلى أن ينتج نظاما دينيا متكاملا،يتمثل في الالتزام بجملة من الأوامر و النواهي تجاه الله،وفهما متناسقا للكون و لرسالة الإنسان،و لما أنتج هذا الصراع نظاما أخلاقيا متكاملا،مثلما هو في العقيدة الإسلامية ،التي ألف فيها العلماء مؤلفات كثيرة.

7-يصف "فرويد" الدين بأنه مسكن للبشرية ،لتتمكن من مواجهة المشاكل و أخطار الحياة، ويماثل بينه و بين المخدرات،التي تفقد الإحساس ،ويصفه بأنه عصاب البشرية، ويتم العزوف عن هذه المنومات و الأوهام

1-سيغموند فرويد،مصدر سابق **"موسى والتوحيد"** ص165.

*-يقول الله سبحانه وتعالى"قالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله،ذلك قولهم بأفواههم يضاهون قول الذين كفروا من قبل،قاتلهم الله أنى يؤفكون."سورة التوبة،الأية 29.

مستقبلا،و بذلك يدعو إلى التخلي عنها و استبدالها بالعقل و التربية غير الدينية لمواجهة غرائز البشر، وبالعلم للتكيف مع الطبيعة ،لكن هذا الاعتقاد الفرويدي ينطبق على بعض المذاهب الدينية التي تخدر أفراد الشعب ،بغرض ترك المجال للملوك السيطرة على الشعب ،و عدم محاسبة المحكومين للحكام،كالمسيحية الكاثوليكية*" Catholique" التي كانت سائدة في العصور الوسطى .

و لو فعلا يتم التخلي عن الدين مستقبلا، فلماذا استمر الدين رغم التطور العلمي والتكنولوجي الذي توصلت إليه المجتمعات الحالية في جميع مجالات الحياة.؟

في كتاب "موسى والتوحيد" حاول "فرويد" تحليل التوحيد اليهودي باستخدام أدوات التحليل النفسي الفردي ، و قد راودته شكوك و اضطرابات نفسية عديدة خوفا من اضطهاد الكنيسة له ،بسبب انتقاده للديانة اليهودية ،وهذا ما أشار إليه في توطئتين،الأولى ،كتبت في فيينا،قبل آذار 1938م.(1) و الثانية في حزيران 1938م في لندن.(2) من الفصل الثالث،و بسبب خوفه من صدور أمر من الكنيسة يحظر العمل على جميع ممارسي التحليل النفسي ،كل هذه الاضطرابات و الشكوك التي عاشها "فرويد" أثناء كتابته لهذا الكتاب تدل على أن عمله ضعيف و ليست له مصداقية تاريخية .

انطلق مؤسس التحليل النفسي من اتهام بني إسرائيل بمصادرة "موسى" فهو يرى أن موسى ليس يهوديا بل مصري الأصل،متحججا بأن كلمة موسى تعني "طفل" ،وبذلك يكون قد شوه كثير من الحقائق، و أولها الأصول اليهودية لموسى ،ففي سفر الخروج من الكتاب المقدس* العهد القديم ،هناك وصف لاضطهاد اليهود من نسل يوسف و إخوته ،حيث ولد موسى من أب لاوي و أم لاوية ،و لما رأته أنه حسن خبأته ثلاثة أشهر،ثم وضعته في تابوت و تركته في النيل، ونزلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل،فرأت التابوت ،فأرسلت أمها و انتشلته من النهر،فإذا هو صبي يبكي،فقالت ،هذا هو من أولاد العبرانيين ،فقالت أخته لابنة فرعون ،هل أذهب و أبحث لكم

---

*-المسيحية الكاثوليكية"Catholique": كلمة اغريقية الأصل"Cath olon" وتعني "موجه نحو الكل" ، و معناها الجامعة"universalité"وهي تدل على انتماء جماعة أو كنيسة ما،إلى سلطة بابا روما،كانت تؤمن بصكوك غفران تباع تشترى في العصور الوسطى للتكفير عن الخطايا،انشقت عنها البروتستانتية.

1-سيغموند فرويد،المصدر نفسه ،ص ص77-80 .

2-المصدر نفسه ،ص ص81-83.

*-الكتاب المقدس عند المسيحيين، ينقسم إلى العهد القديم وهو التوراة و العهد الجديد و هو الإنجيل.

عن مرضعة من العبرانيات،فذهبت ودعت ،فذهبت ودعت أم الولد،فأخذت المرأة و أرضعته، و قد وردت هذه القصة في التوراة ،الإصحاح الثاني من سفر الخروج كالتالي"ذهب رجل من بيت لاوي و أخذ بنت لاوي،فحبلت المرأة وولدت ابنا و لما رأته أنه حسن خبأته ثلاثة أشهر،و لما لم يمكنها أن تخبئه بعد،أخذت له سفطا من البردي وطلته بالحمر و الزفت ووضعت الولد فيه.ووضعته بين الحلفاء على حافة النهر،ووقفت أخته من بعيد لتعرف ماذا يفعل به،فنزلت ابنة فرعون إلى النهر ،لتغتسل،و كانت جواربها ماشيات على جانب النهر،فرأت السفط بين الحلفاء،فأرسلت أمتها،و أخذته و لما فتحته ،رأت الولد ،وإذا هو صبي يبكي،فرقت له وقالت "هذا من أولاد العبرانيين" ،فقالت أخته لابنة فرعون"هل اذهب و أدعو لك امرأة مرضعة من العبرانيات ،لترضع لك الولد،فقالت لها ابنة فرعون"اذهبي" فذهبت الفتاة ودعت أم الولد ،فقالت لها ابنة فرعون"اذهبي بهذا الولد و أرضعيه لي و أنا أعطي أجرتك" فأخذت المرأة الولد و أرضعته و لما كبر جاءت به إلى ابنة فرعون فصار لها ابنا و دعت اسمه موسى وقالت "إنني انتشلته من الماء".(1)

وقد وردت هذه القصة في القرأن الكريم بهذا النمط مع اختلافات طفيفة في جزئياتها،و اسم "موسى" أطلقه فرعون على الصبي الذي انتشل من الماء ،و هو من بني إسرائيل، ويشير القرأن إلى أن بني إسرائيل كانوا منتظرين قدوم موسى،بعد أن وعدهم النبي "يوسف" عليه السلام بقدوم نبي من بني إسرائيل اسمه"موسى"،و هو الأمر الذي سبب اضطهادهم،مع الرؤية التي رآها فرعون من أن هلاكه و زوال ملكه على رجل من بني إسرائيل،فأمر أن يفرق بين رجالهم و نسائهم لكي لا يولد المولود المنتظر*.(2)

اعتمد "فرويد" في نفيه لقصة موسى على شروط القصة النمطية التي حددها "رانك"" Otto.Rank "و ذلك في كتابه "ميلاد أسطورة البطل"،وهي أن يكون البطل سليل أسرة رفيعة المقام ، وهو على وجه العموم ابن ملك،ميلاده مسبوق بمصاعب ،على سبيل المثال،بفترة عقم ،وقدم نماذج على ذلك من بينها قصة "سرجون

1-الكتاب المقدس، العهد القديم، الإصحاح الثاني سفر الخروج، الآيات من 1 إلى 10.

2- الإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير، **قصص الأنبياء**،(دار الكتاب الحديث ،القاهرة،عدم وجود رقم الطبعة وسنة الطبع)ص،307،308.

*-و قد وردت قصة موسى في القرأن الكريم في عدة سور منها ،سورة القصص،طه.

*-أوتو رانك(1884-1939م)محلل نفساني نمساوي،أحد تلامذة "فرويد"أسهم بنظريته "صدمة الميلاد" .

الأكادي"* مؤسس بابل 2800ق،م ،و أوديب...الخ ،و بذلك رأى بأن قصة موسى تتناقض مع القصة النمطية تماما،حيث أن موسى انتقل من أسرة وضيعة إلى أسرة ملكية رفيعة،هذا ما جعل "فرويد" يعتقد بان القصة محرفة،و يفترض أن إحدى العائلتين ليست موجودة أصلا،و بما أنه مصري و أخرج اليهود من مصري ،فهو يعني أنه ينتمي إلى عائلة ملكية رفيعة.و بذلك يستنتج أن قصة موسى حرفت لدواعي قومية ،حتى يكون الرجل الذي أنقذ اليهود،يهودي الأصل"فكرة الرجل القومي" لكن الأسفار لا تظهر موسى بمظهر البطل القومي المنقذ للأمة اليهودية، ولو كان موسى بطل اليهود ،فلماذا قتلوه.؟

و من جهة أخرى ،إذا كان موسى غير يهودي،و لا ينتمي إلى اللاويين،فلماذا تسنى للاويين أن يطيعوا رجلا غريبا عنهم.؟ ولماذا اللاويين من دون سواهم هم اللذين أطعوه.؟

إن الديانات السماوية الثلاثة تخالف القصة النمطية، فقصة يوسف عليه السلام تخرج عن هذا الأسلوب القصصي،فهو انتقل من أسرة وضيعة إلى أسرة رفيعة،مع العلم أن الأديان لا تطرح فكرة البطل القومي بل العكس،فهي بدلا من أن تظهر معالم الرجل البطل،تظهر أن كل ما حظي به هو من فضل الله عليه،و ذلك عن طريق المعجزات،و هذا هو المراد في الأصل،و الذي حصل هو أن "فرويد" و غيره لا يعرفون بأن هذه القصص عرضت بمعرض ديني لخدمة الدين والله.

يعتقد "فرويد" أن موسى أخذ ديانة التوحيد من اخناتون و مع أنه كان من دعاة التوحيد إلا أن مفهوم التوحيد عنده مضطرب، فهو حارب باقي الآلهة و ترك المعابد للإله أتون،لكن هناك أدلة تثبت أن ديانة اخناتون ليست ديانة توحيدية ،بل هي معتقد يقوم على تأليه الخليقة باعتبارها من جوهر الله وصورة من صور وجوده،و الدليل على ذلك هو هذا النشيد الذي يمجد الشمس الأنثى أتون* باعتبارها صورة الإله "رع" يقوض خرافة ديانة

---

*-سرجون الأكادي:مؤسس السلالة الأكادية،الأساطير السومرية ،تروي سيرته على لسانه،فهو يقول"حملت بي أمي الوضيعة الشأن، من أخر أبي و أخرجتني الى العالم سرا،ووضعتني في سلة،و أغلقت الباب بالجلبانة،ووضعتني في الماء و لم أغرق،و انتشلني أحد العمال،فصرت ساقي الملك،ثم بستاني،ثم قربني الملك اليه،ثم صرت ملكا وحكمت 45 سنة."،إن ولادته تشبه قصة موسى عليه السلام.

*-أتون :في الميثولوجيا المصرية،هو رمز من رموز الإله الأوحد رع ،عبده اخناتون وجعله الإله الأوحد،والشكل الذي صوره المصريين به ،في البداية مثل برأس صقر،ثم كقرص شمس بأشعة شمس تنتهي بيد أدمية .

التوحيد:"أنت خلقت السموات العلى لتشرق فيها،ليس هناك واحد يعرفك إلا ابنك اخناتون،لقد جعلته عليما بمقاصدك و تقوتك(....)رب الأرضين".(1)

وهكذا تكون الأتونية قائمة على مزيج من وحدة الوجود ومذهب الصابئة،أي عبادة الكواكب والنجوم، والملك هو الابن المجسد للإله رع على الأرض،باعتباره صورته الذي يحكم باسمه،و بالموت يتحد الملك بالشمس،وهذه الوحدة كانت قاصرة على فرعون"اخناتون" باعتباره صورة رع.(2)

و يضاف إلى ذلك أن القرآن تحدث عن أن النبي "يوسف" وعد قومه بقدوم نبي من بني إسرائيل اسمه موسى،هذا يثبت أن عقيدة موسى ليست ديانة اخناتون،و أن عقيدة موسى في حقيقتها عقيدة سماوية منزلة، وليست عقيدة بطل أو عقيدة دنيوية من إنشاء موسى أو اخناتون.

كما أن التوراة في سفر الخروج يشير إلى العديد من الآلهة،و ذلك كالتالي"أنا ربك إلهك أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية،لا يكن لك آلهة أخرى أمامي،أي الإله الذي أخرجنا من مصر و أنقذنا من بين العبودية."(3)

وبناءا على ما سبق نصل إلى نتيجة وهي أن اخناتون لم يكن موحدا ،وكذلك الأمر بالنسبة للعقيدة الموسوية كما هي في التوراة،المحرفة.

هذا وقد عارضه تلميذه "كارل غوستاف يونغ"Carl goustaf Young ،و أقر بعجز أستاذه عن فهم الخبرة الدينية،و اتهمه بقصور و عجز تفسيره الأحادي القائم على اختزال كل السلوك الإنساني في الدوافع الجنسية،مصرحا بأن الغريزة الجنسية غريزة من ضمن باقي الغرائز،حيث يقول" والمثال الذي يقنعنا في هذا الصدد عجز "فرويد" عن فهم الخبرة الدينية ،كما يظهر في كتابه مستقبل وهم،من جانبي أفضل أن انظر إلى الإنسان في ضوء ما فيه ،من صحي وسليم ،و أن أحرر المريض من وجهة النظر التي تصبغ كل صبغة كتبها

1--مجدي الصادق،**التاريخ الحقيقي** (الطبعة الأولى ،أكتوبر 2002،الطبعة الالكترونية)،ص147.

2-مجدي الصادق، المرجع نفسه،ص 147.

3-الكتاب المقدس، العهد القديم(التوراة)، سفر الخروج الإصحاح 20.

"فرويد" ،إن تعليم "فرويد" أحادي على نحو محدد."(1)

و قد أسهمت دراسات "يونغ" في علم الأساطير في إقناعه بأن القوى الخارقة للطبيعة متجذرة بعمق في اللاوعي الجماعي Inconscience collectif والذي يطلق عليه أحيانا باللاشعور اللاشخصي، ويمثل رواسب باقية في النفس ترجع إلى ألاف السنين أو ذكريات جماعية تكررت مع الجنس البشري، عبر الأجيال" و هذا اللاشعور الجماعي بمثابة استعدادات نتهيأ بها للتجاوب مع العالم الخارجي و مواقفه ،فمثلا كل الناس لديهم الاستعداد للخوف من الظلام، و هذ الاستعداد الكامن ،قد يظهر ويتدعم نتيجة لخبرات حالية،غير أننا ورثنا هذا الاستعداد من الأسلاف،لأن الإنسان عبر العصور كان يخاف الظلام."(2) ويسمي "يونغ" الاستعدادات الكامنة في النوع البشري بالأنماط الأولية Archétypes أو النماذج البدئية،وهي أنماط سلوك بدائية تجعلنا نسلك سلوكات مشابهة للإنسان الأول،نموذج ذلك هو أننا نسلك سلوكا مشابها تجاه الأم،فالأم صورة أولية كانت في الماضي و لازالت مستمرة نتيجة خبرات الأجيال ،و كلما تطابقت الأم الصورة مع الأم الفعلية ،كان التوافق في حياة الإنسان، وهذه الاستعدادات أو النماذج البدئية تظهر في الأحلام و الأساطير و الحكايات و الخرافات.(3)

و قد جاءت نظريته هذه في "النماذج البدئية" التي هي أساس اللاشعور الجمعي،بعد أن أكدتها أدلة تجريبية صادف من خلالها رمزية الأديان في أحلام مرضاه وتخيلاتهم،و في محاولة سلوكهم السلوك المستقيم الذي ينسجم مع تعاليم هذه الأديان الأخلاقية ،بإرشاد من بصائرهم والهامتهم الخاصة.(4) وبذلك فان الدين يؤدي دورا أساسيا في حياة الإنسان ،مادام له جذور عند الإنسان القديم في المرحلة البدائية وهو من مكونات الخافية الجماعية،حيث يقول"الشكل البدائي يعبر عن بنية النفس المعقدة بمعتقدات واسعة الانتشار،كالمس والاستلاب وتجسيد أرواح الأجداد و حلول الأرواح إلى غير ذلك،و إذا عطس أحدنا مازلنا نقول له"بارك الله فيك.""(5)

1--كارل غوستاف يونغ،**علم النفس التحليلي**،تر/نهاد خياطة(دار الحوار للنشر والتوزيع،اللاذيقية ،سورية،الطبعة الثانية1997م) ص131.

2-د/ فيصل عباس،مرجع سابق "**التحليل النفسي و الاتجاهات الفرويدية،المقاربات العيادية**" ، ص.90

3-المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

4-كارل غوستاف يونغ، المرجع نفسه،ص.132،133

5-المرجع نفسه ،ص156.

و يعرف "يونغ" التجربة الدينية بأنها الخضوع لقوى أعلى من أنفسنا أو هي سيطرة قوة خارجة عنا، واللاشعور عنده ما هو إلا ميراث و مخزن للمعتقدات و الاستعدادات التي ورثها الإنسان عبر الأجيال، وهو قوة تسيطر علينا وعلى عقولنا و بذلك نصل إلى نتيجة هي أن اللاشعور هو الدين، والدين هو اللاشعور." و يترتب على تعريف يونغ للدين واللاشعور ،أن نصل بالضرورة إلى هذه النتيجة ، وهي أنه بالنظر إلى طبيعة العقل اللاواعي يكون تأثير اللاشعور علينا "ظاهرة دينية أساسية" ويلزم عن ذلك أن العقيدة الدينية و الحلم كلاهما ظاهرة دينية،لأن كلا منهما يعبر عن استيلاء قوة خارجية علينا."(1)

ينتقد "يونغ" تفسير "فرويد" ب"عقدة أوديب" على أساس أن الله ما هو إلا أب عظيم ،و يرى أنه على "فرويد" أن يعرف بأن الإنسان لا يتعلم بأن الله أبوه ،لأن الدين يرتكز على الإيمان والإيمان لا يصنع بل هبة لطف"نعمة"،فهو ميراث كامن في اللاشعور الجماعي على شكل استعداد و علينا نحن أبناء هذا العصر أن نختبر لذة الحياة الروحية، التي بواسطتها نرتفع عن مستوى الحياة البيولوجية،حيث يقول"إن الشيء الغريب أن لا يتعلم بأن الله أبوه،هذا ما لم يتعلمه "فرويد"و لا من يشاركه نظرته على الأقل،إنهم لا يجدون أبدا المفتاح إلى هذه المعرفة،اللاهوتي لا يساعد الذين يبحثون عن المفتاح،لأن اللاهوت يتطلب الإيمان ،و الإيمان لا يصنع انه في معناه الحقيقي هبة لطف"نعمة"، نحن أبناء هذا العصر،تواجهنا ضرورة اكتشاف حياة الروح ثانية،يجب أن نختبرها بأنفسنا من جديد،إنها الطريقة الوحيدة التي نستطيع بواسطتها تحطيم القوة التي تقيدنا إلى دورة الحوادث البيولوجية"(2)

إن هذه نقطة من نقاط اختلافه مع "فرويد" وبسببها أتهم بالتصوف Mysticisme ،و لكنه يرى بأنه ليس مسئولا عن تطوير الإنسان تطويرا عفويا لصيغ عفوية من التعبير ،و عن ارتباط النفس البشرية بالمشاعر و الأفكار الدينية ،و الذي يرفض هذا الجانب من النفس الإنسانية فهو أعمى، والذي يريد دحض هذه الحقيقة أو إثباتها ،فليس له حس بالواقع. (3) والعقدة الأبوية التي تتحدث عنها الفرويدية،ما هي"إلا جلباب من التدين مفهوما

1-اريك فروم،مرجع سابق **"الدين والتحليل النفسي"** ،ص.22

2- كارل غوستاف يونغ،المرجع نفسه ،ص.143

3-المرجع نفسه ،ص134،135.

بشكل خاطئ ،إنها مستطيقا(تصوف) ،عبروا عليها بلغة البيولوجيا، والعلاقة العائلية."(1) و الأنا الأعلى الذي يمثل جزءا من الجهاز النفسي الحامل للقيم الأخلاقية التي يكتسبها الفرد من المجتمع ،ما هو إلا محاولة من "فرويد" لتهريب صورة الإله"يهوه" الذي حظي باهتمام كبير في أيامه،وذلك في ثوب نظرية سيكولوجية.(2)

لكن ،ومثلما أشرنا في بداية تحليلنا للانتقادات الموجهة لفلسفة التحليل النفسي للدين،أن "اريك فروم" يعتقد بأن "فرويد" لم يعاد الدين بالجملة، وإنما عارض الدين في جوانبه الفائقة للطبيعة أو الدين الميتافيزيقي أو المتعالي،و هو يقول موضحا موقف "فرويد" من الدين"يعتقد "فرويد" أن هدف التطور الإنساني هو تحقيق المثل العليا،المعرفة(العقل،الحقيقة،اللوغوس) والحب الأخوي ،تخفيف الآلام الاستقلال،المسؤولية، وهذه المثل العليا تؤلف اللباب الأخلاقي للأديان العظمى جميعا،تلك الأديان التي تقوم عليها الحضارة الشرقية و الغربية وتعاليم كونفوشيوس* وبوذا*و الأنبياء كافة،رغم وجود بعض الفروق ،فمثلا يركز بوذا على التخفيف من الألام و يركز الأنبياء على المعرفة و العدالة ،و يركز المسيح على الحب الأخوي .و يجدر بنا أن نذكر إلى أي مدى يتفق هؤلاء المعلمون الدينيون اتفاقا جوهريا على حب التطور الإنساني وعلى المعايير التي ينبغي أن يهتدي بها الإنسان. ويتحدث "فرويد" باسم الجوهر الأخلاقي في الدين،و ينتقد في الدين الجوانب الإلهية الفائقة للطبيعة ،على أنها مراحل في التطور الإنساني كانت ضرورية ،ذات يوم و باعثة على التقدم،لكنها لم تعد الآن ضرورية،بل هي في الواقع حائل دون المزيد من النمو وعلى هذا فان القول بان فرويد"ضد" الدين قول مضلل ،اللهم إلا إذا حددنا تحديا قاطعا "نوع" الدين أو مظاهر الدين الذي يوجه إليه نقده و المظاهر التي يؤيدها."(3)

و يشير "اريك فروم" في تصدير كتابه"الدين والتحليل النفسي" إلى اتجاهين يمثلهما المحللون النفسانيون من الدين، وهو يمثل موقف ثالث،يختلف عنهما،حيث يقول"فمن المحللين النفسانيين أشخاص متدينون يمارسون الشعائر الدينية، ومنهم ،من يعد الاهتمام بالدين عرضا من أعراض الصراعات العاطفة الدينية التي لم نجد لها

1-كارل غوستاف يونغ،المرجع نفسه،ص.135

2-المرجع نفسه ،ص135.

*-كونفوشيوس(551-479ق م):فيلسوف وزعيم صيني،أفلح في اقامة مذهب يتضمن كل التقاليد الصينية عن السلوك الاجتماعي و الأخلاقي.

*-غوتاما بوذا(563-468ق م) :مؤسس الديانة أو الفلسفة البوذية،وتعني كلمة بوذا اليقظ او المستنير.

3-اريك فروم،المرجع نفسه ،ص22،23.

حلا،أما الموقف الذي أتخذه في هذا الكتاب ،فيختلف عن هؤلاء و أولئك وعلى أكثر تقدير،ممثل لجماعة ثالثة من المحللين النفسانيين."(1)

يحدد "اريك فروم" مفهوم الدين بأنه "أي مذهب للفكر و العمل تشترك فيه جماعة، ويعطي للفرد إطارا للتوجيه و موضوعا للعبادة."(2) و انطلاقا من هذا المفهوم لم توجد أي حضارة في الماضي أو الحاضر أو المستقبل،لم يكن لها دين،لذلك لا يكاد يوجد فرد ما خارج إطار العقيدة الدينية،بالمعنى الواسع،فحتى الذي لا يؤمن بالدين التوحيدي،السماوي الغيبي،يؤمن بدين من الأديان الإنسانية المعاصرة،فمنهم من يعتقد بمبدأ اقتصادي ،كالمنفعة أو الثروة أو مبدأ اجتماعي كالنجاح أو سياسي كالسلطة،و يستند إليه كمرجعية في تحديد فهمه و سلوكاته في الحياة، وعليه لا يوجد ملحد بالمعنى المطلق للكلمة، لأن جوهر كل عقيدة هو الإيمان المطلق بها، ومن زاوية التحليل النفسي لعمل الجهاز النفسي يتمركز الدين في عمق الصراع الداخلي بين قوى الجهاز النفسي الثلاث:الهو(الدوافع الجنسية والعدوانية) و الأنا الأعلى(منظمة المراقبة والمثل الأخلاقية والدينية،الضمير)و الأنا(القوة الشعورية الواعية،منظمة التفكير و التوفيق).(3)

إن الحاجة إلى مذهب مشترك يوجه الإنسان و يكون موضوعا للعبادة قائمة في صميم الوجود الإنساني، في نظر "فروم"، الإنسان مخلوق مزدوج الوجود،فمن جهة هو جزء من الطبيعة ينتمي إلى عالم الحيوان،لكنه أكثر الحيوانات ضعفا من الناحية الجسمية،في تعايشه مع الطبيعة، ومن جهة أخرى يمتلك قدرات عقلية تجعله مدركا لحقيقة عجزه ومحدوديته،و تمكنه من التنبؤ بنهايته(الموت) وبأنه مطرود من الفردوس، وهو الوحيد الذي ينتابه السخط و السأم ،و هو الوحيد الذي يعتبر وجوده مشكلة،فإذا كان جسده يربطه بالحياة أو بالطبيعة فان قدراته العقلية تدعوه إلى تجاوز هذا الانسجام مع الطبيعة و الابتعاد عنه،أي العقل يدعوه دائما إلى تجاوز هذه الثنائية بالبحث عن حلول جديدة،بتطوير قدراته العقلية ،حتى يصبح سيدا على الطبيعة وعلى نفسه،حيث يقول"و الوعي بالذات و العقل ،و التخيل،كل هذه الملكات ،قد مزقت الانسجام الذي اتسم به الوجود الحيواني ،وجعل

1-اريك فروم،المرجع نفسه،تصدير الكتاب،ص.3

2-نفس المرجع،ص.25

3-مجموعة من المؤلفين،المرجع نفسه"**فلسفة الدين،فرويد و الإبداع البشري للظاهرة الدينية،د/لطفي الحجلاوي**"ص175.176.

ظهورها من الإنسان شيئا شاذا خارقا في الكون،فهو جزء من الطبيعة خاضع لقوانينها الفيزيائية،عاجز عن تغيير هذه القوانين، ولكنه مع ذلك يتجاوز بقية الطبيعة وهو بمعزل عنها،على حين أنه جزء منها(...) ولما كان الإنسان في وعي بنفسه فانه يدرك عجزه و القيود التي تحد وجوده ،و هو يتنبأ بنهايته، وهي الموت(...) والإنسان هو الحيوان الوحيد الذي ينتابه "السام" و السخط،و أنه يشعر بأنه مطرود من الفردوس . والإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يعد وجوده مشكلة بالنسبة إليه.مشكلة عليه أن يحلها،و لا يستطيع منها فكاكا، وهو لا يستطيع أن يرجع إلى الحالة السابقة على الإنسان،حالة الانسجام مع الطبيعة،بل ينبغي أن يتقدم حتى يصبح سيدا للطبيعة ولنفسه."(1)

ولما ابتعد الإنسان عن الطبيعة و افتقد القدرة على مجابهتها،ابتكر بعقله عالما خاصا،يسوده الارتياح والطمأنينة،بتكوين علاقات نفسية جديدة تحل محل العلاقات القديمة مع الطبيعة، وهي علاقات مع الناس تقوم على المحبة و الاحترام و تبادل الرعاية والمسؤولية،وكل مرحلة يصل إليها الإنسان تتركه في سخط وحيرة ،الأمر الذي يدفعه أكثر إلى البحث عن حلول جديدة." وظهور العقل أنشأ ثنائية داخل الإنسان تدفعه إلى السعي دون توقف عن حلول جديدة و دينامية و تاريخية،باطنة في وجود عقله،الذي يدفعه إلى التطور ومن خلاله يبدع عالما خاصا يستطيع أن يشعر فيه بالطمأنينة مع نفسه و مع غيره من البشر،فكل مرحلة يبلغها تتركه ساخطا حائرا، وهذه الحيرة نفسها تدفعه صوب حلول جديدة."(2)

إن الحاجات التي تظهر تتجاوز أصله الحيواني وهي ذات طبيعة اجتماعية نفسية،تعيد التوازن و الانسجام بينه و بين بقية الحاجات الطبيعية،تجيب عن سؤال خاص بموقفه و ما ينبغي أن يفعله في الحياة.(3) و يمكن تحديد هذه الحاجة كالتالي:الانتماء(توجهه إلى الأفراد و المؤسسات الاجتماعية كبديل نفسي للعلاقة مع الطبيعة) والتجاوز(أن يتجاوز حدود الحيوانية إلى الخلق والإبداع) والتحرر(حاجته إلى أسرة وبيت في هذا العالم)و الهوية (حاجته إلى تأسيس هوية خاصة به،و أن يكون قادرا على أن يقول للآخرين "أنا- أنا" و لست أنا كما

1-،اريك فروم،المرجع نفسه"**الدين والتحليل النفسي**" ،ص.26

2-المرجع نفسه ،ص.26،27

3-المرجع نفسه ،ص27.

ترغب أنت في أن أكون) والإطار المرجعي يعني تكامل كل الحاجات السابقة لتشكيل إطارا مرجعيا للتوجيه نحو الكون الذي نعيش فيه،بما فيه العلاقات مع الأفراد،الجيش الأصدقاء منهم و الأعداء. وهو العقيدة أو المذهب الذي نؤمن به.

وهكذا ،تكون حاجة الإنسان إلى مذهب للتوجيه قائمة في طبيعة الوجود الإنساني،و لا وجود في الإنسان لمصدر للطاقة أقوى من هذه المذاهب التي يؤمن بها،و لذلك ليس له الحرية في اختياره أن تكون له "مثل عليا" أو مذهب ديني أو لا تكون،لكنه حر في اختيار بين ضروب "المثل العليا" العديدة،فقد يعبد الإنسان الحيوانات أو الأشجار أو الأصنام أو الذهب أو الحجارة أو إلها غير منظور أو إنسانا مقدسا أو زعماء الشياطين أو يعبد أسلافه أو أمته أو طبقته أو حزبه أو المال أو النجاح،،و قد يؤدي دينه إلى تطوير روح الدمار أو الحب أو التسلط أو الإخاء،و قد يضاعف من قوة عقله أو يشلها ،فالمسألة ،فيما يرى "فروم" ليست دينا أو لا دين بل أي دين هل هو من النوع الذي يساهم في تطوير قوى الإنسان و نموها أم في النوع الذي يعطلها و يعرضها للشلل.؟(1)

يميز "اريك فروم" بين الأديان التأليهية و الأديان غير التأليهية أو بين الأديان التسلطية Authortarian و **الأديان الإنسانية** Humanistique ،**و جوهر الدين التسلطي** يكمن في الاستسلام لقوة تتجاوز إرادة الإنسان،و الطاعة فيه هي الفضيلة الأساسية والعصيان هو الخطيئة الكبرى ،و الأديان التسلطية تصور الإله قوي شامل القدرة محيط علما بكل شيء، وفي المقابل تصور الإنسان بأنه عاجز،تافه الشأن،و لا يشعر بالقوة إلا بمقدار ما يكتسب من فضل الإله ومعونته عن طريق الاستسلام التام، وبذلك يكون الإله في الدين التسلطي رمز للقوة و الجبروت و هو الأعلى لأن له القوة العليا،و الإنسان ،لا حول و لا قوة له ،إلا بمعونته، وما ذكرناه ينطبق على الدين التسلطي السماوي، وينبه فروم إلى أن الدين التسلطي العلماني (أو الدنيوي) يتبع هذا المبدأ نفسه،حيث يصبح الفوهرر* أو أبو الشعب المجنون أو الدولة أو الوطن الاشتراكي موضوعا للعبادة،و تصبح حياة الفرد تافهة ،و تتألف قيمة الإنسان من إنكاره لقيمته ولقوته.(2)

1-اريك فروم ،المرجع نفسه،ص28،29.

*-الفوهرر(بالألمانية Führer):كلمة ألمانية تعني **القائد**،استخدمت كلقب للقائد النازي "أدولف هتلر"الذي حكم ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية.

2-المرجع نفسه ،ص36.

إن "فروم" يفضل الدين الإنساني على الدين التسلطي،لأن هدف الإنسان في الدين الإنساني هو أن يحقق أكبر قدر من القوة لا،أكبر قدر من العجز،و الفضيلة هي تحقيق الذات لا الطاعة و الإيمان هو اليقين بالاقتناع المؤسس على تجربة المرء في مجال الفكر والشعور، لا على تصديق قضايا ،مثل القضايا التي يؤمن بها معتنقي الدين التسلطي، والمزاج السائد فيه الفرح بينما المزاج السائد في الدين التسلطي هو الحزن والشعور بالذنب.

و يستعمل آلية الإسقاط الفرويدية ،فيقول في حين أن الإله في الدين الإنساني صورة لذات الإنسان العليا و رمز لما يمكن أن يكون عليه الإنسان ،أو ما ينبغي أن يؤول إليه ،نرى الإله في الدين التسلطي الملك الوحيد لما كان يملكه الإنسان أصلا،أعني العقل و الحب، وكلما كان الإله أكمل كان الإنسان أنقص،انه يسقط ، أفضل ما عنده على الإله، ومن ثم يفقد نفسه،وهكذا يملك الإله الآن كل الحب و كل الحكمة، وكل العدل، والإنسان محروم من هذه الصفات ،انه فقير خاوي،فصار يشعر بالضآلة،و عاجز تماما،بعد أن أسقط كل قواه على الإله، وانتهى بالنتيجة إلى أن يكون مغتربا على نفسه ،و انه في عبادته للإله يحاول أن يتصل بذلك الشطر من نفسه الذي فقده عن طريق الإسقاط، ومن الأمثلة على الأديان الإنسانية البوذية المبكرة*،فهي أفضل نموذج لهذه الأديان،فبوذا رجل عظيم مستنير أدرك الوجود الإنساني بعقله، والطاوية*،وتعاليم المسيح وسقراط وسبينوزا وبعض الاتجاهات في الديانتين المسيحية واليهودية،و دين العقل الذي نادت به الثورة الفرنسية.(1)

بناءا على الانتقادات التي وجهت للتحليل النفسي للدين،عند "فرويد" ،و التي تبين من خلالها ،أنها نظرة قاصرة،فهل يا ترى ،يكون نفس الحكم على تطبيقاته السيكولوجية الفن والشخصيات الفنية و القيم الجمالية.؟

ثالثا:نقد التحليل السيكولوجي للفن عند فرويد.

و مثلما تحدثنا سابقا ، بالتوضيح والتحليل، أن "فرويد" اهتم بمشكلة منبع الإبداع الفني،و أجاب بأن علته الأولى هي اللاشعور،و هو ناتج عن مركب أوديب،أو بصيغة أخرى هو تنفيس للرغبات الجنسية المكبوتة التي

1-اريك فروم المرجع نفسه،ص ص37-39..

*-البوذية المبكرة:B ouddhisme هي ديانة غير ألوهية ،أسسها بوذا(563-483م)،والبوذية المبكرة تشير إلى البوذية ما قبل الطائفية.

*-الطاوية T aoïsme:هي أكبر الديانات الصينية،ظهرت حوالي القرن6ق م،وهي ديانة غيرألوهية،تشمل مجموعة من المبادئ تنقسم إلى فلسفة و إلى عقيدة دينية، وهي ثاني الديانات تأثيرا على المجتمع الصيني بعد الكونفوشيوسية.

تنحدر من مرحلة الطفولة،تجلت في عقدة أوديب،فهو مثل المرض النفسي يرتد في نهاية الأمر إلى العقدة الكامنة في اللاشعور،و كيف تتم عملية الإبداع.؟ أجاب "فرويد" بأنها تتم بآلية التسامي،حيث يحول الفنان دوافعه الشبقية إلى مواضيع و أهداف غير جنسية ،ذات طابع ثقافي .لكن هل يمكن قبول تحليل "فرويد" لطبيعة الفن ومصدره.؟ و هل فعلا العلة الأولى للإبداع الفني هي اللاشعور.؟ و إلى أي مدى يمكن قبول آلية الإبداع المتمثلة في التسامي.؟

في إجابته ،على سؤال منبع الإبداع الفني،أجاب بأن الفنان يحصل على إبداعاته من اللاشعور،لكنه لم يوضح جوانب كثيرة تتعلق بعملية الإبداع ،و هي كيف تحصل هذه العملية من بدايتها إلى نهايتها، و لم يوضح لماذا هذا الفنان يبدع في مجال دون الأخر،و بناءا على هذه الاستفسارات التي أثبتت ثغرات التحليل السيكولوجي للفنان ،فانه يمكن القول بأنه قاصر،و لم يدرس المشكلة من كل جوانبها.(1)

يضاف إلى ذلك،هو أن تعليل "فرويد" مصبوغ بصبغة فلسفية ،على طريقة الفلاسفة المثاليين الذين يعللون الظواهر بالعلة الأولى،لأن العلة الأولى هي اللاشعور،بلا جدال،و هو مرتبط بالطفولة يمثل جملة الصدمات و التوترات الانفعالية والرغبات التي تم قمعها أو كبتها،و هو الذي يتدخل في توجيه أفعالنا وجهة خاصة،و من ثم فهو فيلسوف مثالي يقصد إلى التعليل بالعلة البعيدة،أي يتعامل مع أفكاره الخاصة رافعا إياها عن مقتضيات الواقع الراهن.(2)

و تفسير ذلك،أن "فرويد" يفهم القانون العلمي على أنه مفسر المظاهر الجزئية في السلوك الإنساني،لكنه لم ينتبه إلى أن علم النفس لم يبلغ المرتبة التي بلغتها العلوم الطبيعية،و لهذا السبب فسر الأمور في تحليله لشخصية "ليوناردو دافنشي" تفسيرا تعسفيا،ووقع في كثير من الأخطاء،حيث استخدم تعريفات نظرية التحليل النفسي و طبقها على كل جزء من حياة الفنان.

فقد حاول أن يلقي الضوء على طفولة الفنان ليفسر الجوانب الراشدة في شخصيته،و لما كانت نظريته

1-د/ عبد المعطى محمد و،د/ راوية عبد المنعم عباس،،مرجع سابق"**الحس الجمالي وتاريخ التذوق الفني عبر العصور.**"،ص.333

2-مصطفى سويف،مرجع سابق"**الأسس النفسية للإبداع الفني،في الشعر خاصة .**" ،ص79،80.

سابقة على التجريب،فقد تعسف في كثير من الأمور،و بذلك حول التجريب تبريرا،موجها من طرف فلسفة تحليلية ،ثباتية،و في إطار تبرير فلسفته النظرية ألقى بعدد من الفرضيات المتعلقة بجزئيات السلوك عند الفنان بالاستناد إلى معلومات ضعيفة،في تحليله لذكرى ليوناردو ،المتعلقة بزيارة النسر له ،في المهد ،وفتح فمه ،ولطمه بذيله عدة مرات.(1)

إن أول خطأ ،وقع فيه"فرويد" اكتشفه الباحث الانجليزي المختص في فن عصر النهضة "اريك ماكلوغان" irik .Maglagan،سنة1923م،حيث أثبت بأن "فرويد" اعتمد على الترجمة الألمانية لكلمة "نيبيو"nihibio، الايطالية،و هي جيير" geier" وبذلك أخطأ في قراءة"had misread" ليوناردو،فالطير الذي تخيله في المهد ،قد ادخل ذيله في فمه ،لم يكن نسرا" vulture"(باللغة الفرنسية vautour) و إنما "الحدأة "a kite(باللغة الفرنسية milan)،و المصطلح الايطالي المقابل له هو "نيهبيو"nihibio،و الحدأة هي أيضا طائرا مفترسا ،لكنه غير أكل للجوارح (الجيفة)،و مادام ليس نسرا فهو ليس رمزا "للأم" في اللغة الهيروغليفية المصرية،هذا النسر الذي يعتبر في الفولكلور المصري ممثلا للجنس الأنثوي، وليس الطائر الذي استشهد به أباء الكنيسة Church fathers.في علاقته بميلاد العذراء Virgin birth.(2)

و لو افترضنا أن ما تخيله ليوناردو نسرا،فمن أين لليوناردو هذه الثقافة الفرعونية القديمة.؟ الذي عاش في القرن 15م ،حتى يستطيع أن يربط بين النسر و الأم.؟ و أن قراءة اللغة الهيروغليفية ،اكتشفها "شامبليون" الذي عاش ما بين(1791-1832).(3)

و قد اعتمد الباحث في تفسير تخيل "ليوناردو" على قراءة بعض النقاط التي وردت في مذكرات ليوناردو،دون فيها ملاحظات عديدة حول طيران الطيور،و أكثرهم الحدأة ،لأنها تمثل بالنسبة له أحسن طير نستطيع من خلاله ملاحظة مكانيزم الطيران الطبيعي، وحركة الذيل ،في نظره تقدم كثير من الإشارات أو

1-مصطفي سويف ،المرجع نفسه ،ص.79

2 -Meyer Shapiro; **Leonardo and Freud .an art historical. study**(.source of the history of ideas.kol.17no.2 April,1956 PP147-178.published by university of Pennsylvania).p150.151.

3-مصطفى عبده، **فلسفة الجمال ودور العقل في الإبداع الفني**، (مكتبة مدبولي القاهرة،الطبعة الثانية 1999م) ص 37

التلميحات لرسم آلية الطيران Flying machine.(1)

و استنادا إلى تحليل "فاليريانو" Pierio bolzni valeriano(1477-1588م)و هو باحث ايطالي ينتمي إلى عصر النهضة ،أن الحدأة تعد رمزا "Emblem" للطيار، و أن ليوناردو اختارها ،للتوضيح على نحو ظاهري مشكلته العلمية المتعلقة بالطيران،أكثر مما كان يعتقد "فرويد" ،بمعنى كان مهتما بالطيران بدافع علمي و ليس بدافع جنسي،وبناءا على هذا فان تخيل"Fantasy" ليوناردو للحدأة التي ضربت فمه في المهد ،عدة مرات يمكنها أن تكون إشارة للحركة الطبيعية Characteristic movement،للذيل تجاه الرياح أو تجاه تيار الهواء الذي يسير في الاتجاه المعاكس له.(2)

و بناءا على كتابات "سيشرون"Cicéro،في الكهانة"Divination writes،يمكن تفسير تخيل ليوناردو للحدأة كالتالي: وهو في عهد ليوناردو انتشرت فكرة أن لمس الطير للطفل يعتبر بشرى أو فأل Omen ينبأ بالعبقرية له في المستقبل، ويذكر "سيشرون" أن "مداس"*Midas ملك فرجيا *Phrygia،أن النمل قد ملأ فمه ببذور القمح في صباه ،و عندما استيقظ ،تم التنبؤ بأنه سيصبح ثريا في المستقبل،و حدث ذلك فعلا حيث كان أغنى ملك ل"فرجيا"، و يضيف "سيشرون" أن النحل رسا على شفتي "أفلاطون" وهو نائم في المهد،و قد تم التنبؤ بأن هذا يكسبه حلاوة اللسان والكلام. .Sweetness of speech (3)

و قد كانت في وقت "ليوناردو" الأسطورة تقول،أن أجنحة الطير الهابط ،تصل ما بين شفتي الله والابن،و من هنا لم يكن تخيله ،أمرا غريبا ،إذا أخذنا في الحسبان التفكير السائد في ذلك الوقت.(4)

إن هذه الأخطاء و غيرها ،حرمت "فرويد" من تعزيز نظريته التحليلية ،و ستقودنا إلى نقد المنهج الذي

1-ibid.151.

*-مداس(715-676م):بطل الميثولوجيا الإغريقية،كان ملك فرجيا،وتقول الأساطير اليونانية أنه يملك القدرة على أن يحول أي شيء يلمسه الى ذهب،لكنه سرعان ما ندم على أمنيته،لأنه حسب الأسطورة كان لا يستطيع أن يأكل،لأن حتى الطعام يتحول الى ذهب خالص.

*فرجيا:تقع في أسيا الصغرى.

2-ibid., p152

3-ibid.152.153.

4-د/أحمد عكاشة، **أفاق في الإبداع الفني رؤية نفسية**(دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى2001م)، ص143.

استخدمه،و هو ليس منهجا علميا تجريبيا،إلا من الناحية الشكلية،لم يبدأ بفرضيات مؤقتة أو أفكار عامة ،يمكن أن يضعها جانبا إذا لم تثبت صحتها التجارب ،بل انطلق مباشرة من عامل واحد هو العامل الجنسي ، وفسر به كل جزئيات سلوك الفنان،و بذلك حملت الوثائق التي حللها ،و ملاحظاته و استنتاجاته ،فلسفته الكامنة من ورائها،فتحولت هذه الوثائق إلى تبرير مليء بالتعسف،بعيد عن الموضوعية العلمية ،و لهذا السبب فشل من الاقتراب من الفنان من حيث هو فنان.(1)

رأى "فرويد" أن آلية الإبداع هي التسامي،الذي يجرنا إلى الدافع الشبقي،فهو الموضوع الذي تجري عليه عملية التسامي ،فإذا استطاع الفنان أن يستبدل بأهدافه القريبة"الجنسية" أهدافا أخرى تمتاز بأن لها قيمة ثقافية أولا وغير جنسية ثانية ،فقد تسامى،و التسامي في نظره ينتج عبقرية في ميدان الفن أو العلم، وكيف يحدث التسامي.؟ يرى بأن هناك رابطة بين الدافع إلى البحث و الدافع الشبقي،في مرحلة الاستطلاع من طفولة الشخص،و يلقى هذا الأخير عادة كبتا،فيحدث أن يعم هذا الكبت دافع البحث أيضا،فتكون نتيجتها ،حياة فكرية ضيقة الأفق،لأن هذه المرحلة ترتبط بالنهي الديني الذي يعد البحث في الأمور الجنسية من الطابوهات ،و أحيانا يحدث أن تتغلب قوة التطور الفكري على عملية الكبت الجنسي،ثم تعود المكبوتات المدفونة في اللاشعور،على شكل قهر فكري يصبغ التفكير بصبغة جنسية،فيكتسب تفكير الإنسان اللذة والقلق مثلما هو في العملية الجنسية،و قد يحدث أحيانا أخرى أن يعجز الكبت عن الإضرار بدافع البحث،فيعجز عن غمر جزء هام من الدافع الشبقي في اللاشعور،فتتسامى الطاقة الايروسية بعد مرحلة كمون إلى حب الاطلاع أو إلى غايات ذات قيمة ثقافية،لكن لماذا يحدث المنفذ الثالث،دون المنفذين الأوليين.؟ ولماذا يأتي التسامي بعد الكبت في حالة ليوناردو دون بقية أبناء المجتمع.؟

يعترف"فرويد" في نهاية الكتاب بعجزه عن الإجابة عن هذا التساؤل،و يرى بأن منهجه أو التحليل النفسي لا يستطيع أن يدله على الاستعداد للتسامي،و يشير إلى دور العوامل البيولوجية الوراثية، و كأن التسامي الذي تحدث عنه يعود إلى استعداد عضوي خاص يشبه الملكة،و يرى أنه ربما يكون لجمال الشخص دور في ميله

1-مصطفى سويف ،المرجع نفسه"**الأسس النفسية للإبداع الفني،في الشعر خاصة** " ،ص83.

للجنسية المثلية السلبية. و لم يوضح فرويد خطوات التسامي ،بل اقتصر على تسميته فقط، فيغدو التسامي ضرب من التعليل اللفظي ،لا أكثر و لا أقل، و،يكون التسامي فكرة غامضة.(1) كما أن التسامي الفرو يدي لا يفسر لنا تنوع الإبداعات الفنية، فلماذا، دافع هذا الفنان تسامى في الرسم و الأخر في الشعر.؟ حيث يقول "مصطفى سويف"فإذا قدر لي أنا الذي لست من الشعراء أن أحمل دافعا شبقيا نحو أمي ،فهل يقدر لهذا الدافع أن يتجه تساميه إلى إبداع الشعر أم إلى إبداع القصة أم التمثيلية أم لحن أم موسيقى أم لوحة تصويرية أم إلى نوع أخر من أنواع العبقرية أم لا يتجه إلى أي عبقرية بل إلى عصاب.؟ هذا ما لم تفسره نظرية التسامي."(2)

وبناءا على ما سبق،فإننا نعترض على أن التعطش المعرفي و العلمي،و الإبداع الفني ،تسامي لرغباته الجنسية نحو أمه،و يرى "مصطفى سويف" لو تنبه "فرويد" لهذه الفكرة لبدد كثير من الغموض الشائع في نظريته.(3) وقد طرح بعض الباحثين علامة استفهام ،حول ما إذا التسامي يؤدي فعلا إلى تفريغ الطاقة الجنسية أم لا.؟ وقد أثبت"لفين"* Lewin أن التسامي لا يؤدي إلى خفض التوتر الذي يعانيه المحصور إلا إذا حقق الهدف نفسه ،الذي يطلبه الشخص،أي الدوافع الجنسية مثلها مثل الدوافع الأخرى كالأكل ،لا يمكن للإنسان أن يستغني عنها أو تتحقق خارج موضوعاتها و أهدافها،و في هذه الحالة يفقد التسامي معناه،و القلب هو الآلية التي تؤدي إلى حل الصراع ،لأن عن طريقه يصل الشخص إلى حل لهدفه الأصلي مستغلا أعراضه المرضية ،التي تبيح له في الحياة الاجتماعية ،ما لا يباح للأسوياء.(4)

وبناءا على ما سبق فانه لا يمكن أن يكون التسامي مفسرا لعملية الإبداع الفني.

إن "فرويد"ضخم من قيمة مرحلة الطفولة على حساب كل مراحل الحياة الأخرى، ومن ثمة جمد التاريخ،و لم ينظر إلى الشخص و هو ينمو تدريجيا،بل نظر إلى الطفل في ثوب راشد،و هذه من مبادئ فلسفته الكامنة من

1-مصطفى سويف،المرجع نفسه ،ص.82

2-المرجع نفسه ،ص.202

3-المرجع نفسه ،ص202.

*-كيرت لفين"Kurt lewin"(1890-1947م):عالم نفس اجتماعي أمريكي من أصل ألماني.

4-المرجع نفسه ،ص200.

وراء منهجه التي حولت الحقائق إلى نوع من التبرير التعسفي.(1) من أين أتى بهذه الفلسفة.؟ إن مصدر هذه الفلسفة ،أكيد هو عيادات التحليل النفسي،و يعاب على علماء النفس الذين تحدثوا عن سيكولوجية الفنان،بأنهم توصلوا إلى أرائهم في هذا الصدد،لا عن طريق تحليل سيكولوجية الفنانين،بل عن طريق تحليل العصابيين في العيادات،و قد وجدوا "عقدة أوديب "كامنة وراء عصابهم،و بحثوا عنها في أعمال الأدباء،ووجدوا بعض مظاهرها،ومن السهل أن يعثروا عليها ما داموا يبحثون عنها، ومن ثم استنتجوا بأن هذه العقدة كامنة وراء الفنان والعصابي على حد السواء، وهكذا وقعوا في ما يسميه المناطقة،"أغلوطة المماثلة" Fallacy of analogy.

وبذلك يكون "فرويد" و أتباعه من علماء النفس قد حولوا العالم إلى مصحة كبيرة.(2)

ويعاب على"فرويد" بأنه عمم نتائج أبحاثه النفسية على أساس بعض المدلولات اللفظية لبضع مئات من المرضى بالعصاب من الطبقة الوسطى بفيينا ،بدلا من إثبات نظريته على طبقات مختلفة و أعمار متباينة،معتقدا بأنه اكتشف حقيقة عامة مقدسة،لكن في الأصل ،لا يعبر إلا عن مجموعة وفئة لا تمثل الكل.(3)

وقد ركز"فرويد" في وصفه لليوناردو ،على صفات سلبية،منها جعله من نمط الوسواس القهري المصاب بفقدان الاردة، ولكنه لم يعلل لماذا أصيب بهذا المرض.(4) و وصفة بكونه مصابا بالجنسية المثلية السلبية والكسل الجنسي، بالاستناد إلى معلومات ضعيفة.

و لا يمكن قبول تفسير "فرويد" لرفض ليوناردو لسلطة الكنيسة ،كثورة على سلطة الأب الذي يعتقد لاشعوريا بأنه أهمله،لأنه وقع مثلما تحدثنا سابقا في أغلوطة المماثلة في تعميم "عقدة أوديب" على الفنان والعصابي.

يفسر مؤسس التحليل النفسي،حلم ليوناردو بالطيران بأنه رغبة لاشعورية في العملية الجنسية،و أن هذا الاهتمام له جذور في مرحلة الطفولة ،حيث تحول كبته الجنسي إلى شوق للعملية الجنسية،لكنه لم يفسر لنا ،لماذا

1-مصطفى سويف،المرجع نفسه ،ص.83

2-المرجع نفسه ،ص85.

3-د/ أحمد عكاشة،،المرجع نفسه **"أفاق في الإبداع الفني رؤية نفسية"**.ص.131

4-د/ المرجع نفسه،ص142.

تحول كبته الجنسي إلى الرغبة في الطيران ،و لم يتحول إلى أشياء أخرى.؟(1)

و قد أخطأ "فرويد" في قوله أن ابتسامة لموناليزا لم تظهر في أي عمل ،لقد عرفت هذه الابتسامة في الفن الفلورنسي قبل ظهور ليوناردو.(2)

و ختاما للدراسة النقدية، للدراسة التحليلية التي قام بها "فرويد" عن ليوناردو،هي أن أعماله و أبحاثه العلمية والعملية في كثير من مجالات الحياة،مثل أبحاثه في تشريح جثث الإنسان و الحيوان و تصميم الآلات والطائرات،و غيرها من الأعمال تدل على واقعية الفن و على إبراز دور العقل والموهبة في الإبداع الفني.(3) وان يكن للدوافع اللاشعورية دور ،إلا، أنه،يبقى نسبي و ضئيل.

هذا،فيما يتعلق بالدراسة التحليلية للفنان الايطالي "ليوناردو دافنشي"،أما بالنسبة للدراسة التحليلية للروائي الروسي "دوستويفسكي" من خلال رواية "الإخوة كارامازوف"،فان "فرويد" ركز على جانبين:الأول يتعامل مع شخصية"دوستويفسكي" بشكل عام ،و يصفه بأنه مصاب بالماسوشية والشعور بالذنب،الناتجة من محاولته قتل الأب،و يصفه بأنه يعاني من الصرع الهستيري(نوبات هستيرية شبيهة بالموت) و أن صراعاته الداخلية مع فكرة الأب و الله والسلطة،لم تنتهي حتى موته، و الجانب الثاني، يتناول نقطة خاصة في حياة "دوستويفسكي" وهي الميول الهدامة في شخصيته، وولعه بالقمار،و يصفه بالمجرم.(4)

و قد تحدث "فرويد" عن أربع وجوه ميزت شخصية الروائي،وهي:الفنان و المبدع و المذنب والعصابي،لكنه ركز على الجانبين السلبيين،و هما العصابي و الخاطئ (المذنب)،أما الجانبان الايجابيان ،فلم يوجه لهما أي اهتمام،مكتفيا فقط بالقول بان مكانة "دوستويفسكي" في الأدب العالمي ،لا يشوبها الشك،ثم يتناول جوانب مناقضة للجانب الأخلاقي ،وهي جوانب سلبية مرضية.(5) حيث وصفه بالمجرم ومبرره هو اختياره

1-د/ أحمد عكاشة،المرجع نفسه ،ص.142

2-د/ المرجع نفسه،ص.144

3-د/ مصطفى عبده، المرجع نفسه «**فلسفة الجمال ودور العقل في الإبداع الفني**"ص.38

4-د/ شاكر عبد الحميد، علم النفس الإبداع(دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع،القاهرة،لا يوجد رقم الطبعة و سنة الطبع)، ص.58

5-المرج نفسه ،ص59.

لمادة موضوعاته ،تجسدت في اختياره لشخصيات روائية قاسية ،عنيفة ،مغتالة مفرطة في الأنانية،بمعنى أنه يحمل ميول مماثلة داخل نفسيته، ومن خلال بعض الحقائق كولعه بالقمار واعترافه باعتدائه على فتاة ، وقد استنتج "فرويد" وجود نزعة هدامة في شخصية الروائي،كانت يمكن أن تجعل منه مجرما،و قد وجهت نحو ذاته ،فجعلت منه ماز وشيا،يعاني من الشعور بالذنب ومن النوبات الصرعية ، وساديا،و الازدواجية الكامنة في شخصيته جسدها في شخصياته الروائية كالكذب على نفسه وعلى الناس ،و الضعف والمرض و العهر و الفجور و القساوة في الشهوانية،تشبه حشرة رهيبة،هذه التفسيرات و إن كان لها جانبا من الصحة،إلا أنها تستند إلى معلومات ضعيفة،فمثلا في إثبات أن "دوستويفسكي" كان مذنبا،يعتمد على فرضية استنتجها من مؤلفاته وهي اعتدائه على فتاة ،ومن ولعه بالقمار، وهما فرضيتان لا يبرران بأنه كان فعلا مجرما.

و رغم ذلك استطاع أن يكشف بعض الجوانب الهامة في شخصية الأديب ،والمتمثلة في الصراع النفسي الذي عاناه"دوستويفسكي" و الأزمات الروحية التي عاشها والصراع مع العاهة المضنية، وهي عاهة الصرع،الذي كان قاسيا عليه طوال حياته،وقضى شطرا كبيرا من شبابه في العبث والمجون،فقد شرب الخمر بإفراط وعاشر النساء و لعب القمار،فعرف الجوع و الحرمان و عانى المرض الحسي،لكن لم يركز "فرويد" على هذه المعاناة باعتبارها تجربة مكنته من معرفة الإنسان و معاناته، ومن إدراك معاناة الذين كانوا يعيشون أشبه بحيوانات، نتيجة النظام الإقطاعي الاستبدادي الذي كان يقمع الحريات الفردية في الاتحاد السوفيتي آنذاك ،و لم يوجه اهتمامه إلى هذه التجربة الخاصة الحاملة لأفكاره الخاصة وفلسفته في الوجود ،و التي تعبر على الضمير المعذب للإنسان الروسي،الذي يعاني الظلم والاضطهاد، قد جسدها و أسقطها في شخصياته الروائية.

إن "دوستويفسكي" لا ينظر إلا إلى روح الإنسان وحريته،وكل اهتمامه كان منصبا على الناس و طبيعتهم وسلوكهم،و أمزجتهم المفرطة،و طرق حياتهم و مشاعرهم وتفكيرهم،حيث أظهرت الرواية المدن بأحيائها الفقيرة ،و الحانات و الشقق النتنة،و قد صورها تصويرا مدهشا،ففيها يولد الإثم ،ومن خلال حياة الناس

المنعرجة تتولد مخططات الجريمة(1) ،إن هذا الجانب الإنساني في شخصية الروائي لم يكن محل اهتمام من طرف مؤسس التحليل النفسي.

أما بالنسبة لتحليل"فرويد" لرواية "غراديفا" لمؤلفها الألماني"ويلهم جونسون" فإنها تعتبر من النماذج التطبيقية الأولى المعتمدة في التحليل النفسي للأدب،حيث يتم التركيز فيها على النص من أوله إلى أخره دون الرجوع إلى المؤلف أو إلى حياته الخاصة، وما يميز هذه الدراسة أنها تتضمن بعض الأحلام و الاستيهامات المثيرة التي يقوم بها البطل،الأمر الذي يجعل قراءة النص وفهمه مستعصية على الفهم.(2)

وهي واحدة من الدراسات التي ربط فيها بين ثلاثة عناصر أساسية:الفن و الأحلام و التحليل النفسي،بطلها عالم الآثار،الشاب"روبرت هانولد" الذي عثر على منحوتة"غراديفا" في روما،ومعناها "التي تتقدم" فراح يتجول بمخيلته بحثا عن حقيقة مشيتها،هل هي مطابقة للواقع أم لا.؟

و قد حاول "فرويد" في هذه الدراسة التحليلية أن يثبت بأن الأحلام في الفن تفسر بنفس الطريقة التي تفسر بها الأحلام الحقيقية،من خلال أولا: ارتباط الأحلام بالواقع،فهي تمثل تحقيق لرغبات جنسية مكبوتة و ثانيا:ارتباط هذه الأحلام بمرحلة الطفولة، كباقي الدراسات التحليلية الأخرى،انطلق"فرويد" من نظرية مسبقة وهي آلية الحلم ومضمونه الكامن،و حاول تبريره تبريرا تعسفيا،على الوقائع الجزئية"فغراديفا" التي فجرت أحلام "هانولد" وهذيانه ما هي إلا "زويه" الفتاة الواقعية التي يحمل معها ذكريات طفولية كامنة من ورائها دوافع جنسية مكبوتة،فكانت "زويه" بمثابة الطبيب الشافي لهذيان"هانولد" ،و بذلك نستطيع الحكم بأن هذه الدراسة لا تحيد عن الإطار الذي انتهجه "فرويد" لنفسه ،و هو تفسير الظواهر بالعلة الأولى ،هي الدوافع الجنسية،و هي طريقة الفيلسوف المثالي،بدليل أنه يصرح في ذيل الطبعة الثانية ،بأنه حاول لفت انتباه مؤلف

1-**مجلة دراسات عربية**،(العددان 6و 7 السنة الثالثة والعشرون،نيسان ،أيار،أبريل مايو،1987،النزعة الأنثروبولوجية عند دوستويفسكي،د/نبيل رشاد،سعيد،)ص،95،96

2-**مجلة قراءات،مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة و مناهجها**(جامعة بسكرة،العدد الخامس 2013،لاشعور النص في استراتيجيات القراءة،د/جمال ولد خليل،جامعة نواكشوط،موريتانيا)ص62.

الرواية لدرسته التحليلية ،لها،حتى يمد له يد المساعدة،لكنه لم يبال به،حيث يقول"بعد نشر دراستي التحليلية عن غراديفا حاولت أن أثير اهتمام الكاتب الطاعن في السن بهذا الاتجاه الجديد للأبحاث التحليلية النفسية،لكنه أمسك عن بذل مساعدته."(1)

تعرضت نظرية التحليل النفسي الفرويدية، إلى انتقادات مريرة ،بسبب اهتمامها بالمبدع وإهمالها للشكل الفني،فالجوانب الموضوعية الخاصة بالعمل الفني ،قد تم تجاهلها،أي تجاهل الخصائص النوعية المميزة للعمل الفني، ومبرر ذلك أنه لم يهتم بدراسة الظواهر الفنية ،أو الإدراك الخاص بالعمل الفني،فقد كان يختار الأعمال الفنية المثيرة للاهتمام،من وجهة نظر التحليل النفسي،باعتبارها تركز على الدوافع الجنسية و الأفكار اللاشعورية.(2)

فقد فشل "فرويد" في التعامل مع القضايا الجوهرية المطروحة في سيكولوجية النقد الفني و إدراك الفن،و رغم ذلك ،كان له الفضل في توجيه الانتباه إلى أهمية اللاشعور في إدراك الفن و في ظهور اتجاهات جديدة تنظر إلى الفنون والقيم الجمالية نظرة سيكولوجية . .(2)

إن ما يعاب على طريقة التحليل النفسي للأعمال الأدبية والفنية ،التي انتهجها "فرويد" هو اهتمامها بالجوانب البيوغرافية للمبدع ،حيث انتقد "جان بليمان نويل"j.B.noel،و ، الذي يعد أول من استخدم عبارة"**النقد النفسي للأدب**"،نظرية التحليل النفسي الفرويدية واتهم "فرويد" بانحصار تحليله على المبدع فقط ،و دعى إلى إهمال مؤلف العمل الأدبي و التعامل مع النص،في استقلال تام عن صاحبه،و هو يرى أن تحليل الكاتب لدراسة عمله الأدبي،يماثل القيام بتحليل نفسي لأم المريض،بدل المريض نفسه،و عندما نقول ب"**لاشعور النص**" لا يعني ذلك في نظره أن هناك رسالة مبعوثة من مرسل إلى متلقي،فهناك من نبعث إليه تلغراف و لا مستقبلا يفك الألغاز،و يكمن لاشعور النص في تلك الفراغات التي يحتوي عليها النص الأدبي، وهي فراغات يمكن أن تصرخ في صمت،و هي تشبه في ذلك بصراخ الغرائز من أعماق اللاشعور،فهو يشمل كل القيم الدلالية

1-سيغموند فرويد،مصدر سابق "**الهذيان و الأحلام في الفن**"،ذيل الطبعة الثانية،ص.107

2- د/شاكر عبد الحميد ،مرجع سابق"**التفضيل الجمالي وسيكولوجية التذوق الفني**" ،ص159،160.

التي تتستر خلف النص،و هذه القيم قابلة للظهور عند كل قراءة متجددة ،و يشبه لاشعور النص بلهب يفلح كل من حاول لمسه، وبالذرة التي تخفي في حجمها الصغير قوة هائلة.(1)

إضافة إلى فكرة "لاشعور النص" عند "جان بلمان نويل" الذي يمثل اتجاه تأثر بالمفاهيم السيكولوجية الفرويدية، هناك الاتجاه السيكولوجي الجديد ل"جاك لاكان"jacques lacan، ،و السيكولوجية اللاكانية، قائمة على **مبدأ اللاشعور بنية لغوية** ،في حديث عن "الرسالة المسروقة" ،يرى "لاكان" أن اللاشعور ما هو إلا بنية لغوية، ودليله على ذلك أن المحللين النفسانيين،لا يستطيعون التعرف على لاشعور مرضاهم إلا من خلال الحوار معهم،وكان"فرويد" اعتقد بأن الأحلام بنية لغوية تحتوي على رموز واستعارات تنعدم فيها الروابط المنطقية،و لا يتم فهمه إلا بتحليل البنية الرمزية.

و قد قدم تحليلا لنص الرسالة المسروقة"لادغار ألان بو""Edgar Allan Poe"،هذه الرسالة نقلها إلى اللغة الفرنسية الشاعر الفرنسي"شارل بود لير""Charles Baudelaire"،و مضمونها ،هو أنه في غفلة عن الملك يفطن الوزير ،و يدرك بأن الملكة تحاول إخفاء الرسالة التي توصلت بها،لكنه يستولي عليها،أمام أعينها،فهي لا تستطيع الاحتجاج،حتى لا يعرف الملك سرها،ثم تتعقد القصة ،لأن شخص أخر يستولي على الرسالة،و هكذا تصبح الرسالة بنية لغوية،في ضوئها تتحدد النوايا الواعية و غير الواعية،لكل من اطلع عليها،كما يتحدد بواسطتها سلوك الأفراد و أقوالهم،وعلى هذا الأساس اعتقد "لاكان" بأن اللغة تحكم الإنسان ،مادامت محملة سلفا بالدوال،وعليه ،فليس الإنسان هو الذي يتحدث اللغة ،بل اللغة هي التي تتحدث من خلاله،لذلك ،المهم ليس منطوق الكلام الخارجي،بل ما يكمن وراءه من نوايا واعية و لاواعية.(2)

و قد كان لمدرسة التحليل النفسي الفرويدية أثرا بالغا في الأدب العربي،حيث دخلت النزعة النفسية في فهم الأدب الحديث و نقده ،مع كثير من الأدباء مثل دراسات العقاد في ابن الرومي و أبي النواس ،و شخصية جحا،و

1-مجلة قراءات،نفس العدد والموضوع،ض64،65.

*-ادغار ألان بو(1809-1849م):شاعر رومانسي وناقد أدبي ومؤلف أمريكي.

*-شارل بودلير(1821-1867م):شاعر وناقد فني فرنسي،من أهم أثاره :ديوان "أزهار الشر"

2-المرجع نفسه ،نفس العدد والموضوع،ص64.63.

العبقريات الإسلامية،وطه حسين في دراساته عن أبي العلاء المعري ، وحاول كل من "عز الدين إسماعيل" "في التفسير النفسي للأدب"(1962) و "مصطفى سويف" في "الأسس النفسية للإبداع في الشعر" والدكتور"شاكر عبد الحميد" و غيرهم من المؤلفين الذين اعتمدنا عليهم في بحثنا هذا من تطبيق التحليل النفسي الإبداع الأدبي والفني،و تحليل شخصية المبدعين،تحليلا سيكولوجيا.(1) لكنه ظل محدودا باستثناء النموذج الأكمل للناقد العربي الملتزم بهذا المنهج "جورج طرابيشي"(1939-.....) وهو مفكر و كاتب و ناقد ومترجم عربي سوري،و ذلك في كتبه الكثيرة منها،لعبة الحلم والواقع،دراسة في أدب توفيق الحكيم(1972)،الأدب من الداخل(1978)،رمزية المرأة في الرواية العربية(1981)،عقدة أوديب في الروايات العربية(1982).(2)

لابأس الآن ،أن نتعرض إلى وجهة نظر المنشقين عن "فرويد" في الإبداع الفني،ف"أدلر"يرفض رد الإبداع إلى تسامي الدوافع الجنسية و العدوانية المكبوتة والمرتبطة بطفولة الشخص،و يفسر الإبداع بعقدة الشعور بالنقص أو الدونية Infiriority feeling،فالعبقرية أو النبوغ ينتج من الشعور بالنقص، وخاصة النقص العضوي،هذا النقص يدفع صاحبه إلى مواجهة النقص بشجاعة،عن طريق عملية التعويض Compensation الذي يدفع صاحبه إلى التفوق في مجال أخر،و هي النقطة التي تميز العبقري عن العصابي الذي يتخذ النقص حجة لعدم بذل أي جهد،و يضخم لنفسه ما كان يمكن أن يقوم به، لو لم يصبه ما أصابه.(3)

أما بالنسبة للمنشق الثاني"كارل غوستاف يونغ" مؤسس علم النفس التحليلي،فان المصدر الرئيسي للخلاف بينه، وبين "فرويد"، هو رفضه للفكرة الفرويدية،القائلة بأن الطفولة هي المسؤولة بشكل أساسي عن تحديد سلوك الفرد الراشد ، المريض أو السوي،و إن كان يتفق معه في دور اللاشعور في الإبداع و في العصاب،على حد السواء،فانه يختلف معه في تحديده للاشعور،لأن "فرويد" يرى بأن معظم اللاشعور مكتسب و فردي (شخصي)،لكن "يونغ"، يميز بين نوعين من اللاشعور،الأول شخصي،وهو الذي تكلم عنه "فرويد"،و الأخر لاشعور جماعي،يمثل تجارب الإنسانية،و قد انتقلت إلينا من أسلافنا البدائيين،عبر نفوس أبائنا و أجدادنا ،فهو

1-**مجلة كاليكوت**،(المجلد الثاني العدد الأول ،يونيون 2001،مدرسة التحليل النفسي في النقد الأدبي،ن شمناد)،ص.18،19

2-المرجع نفسه، نفس العدد والموضوع،ص.22.

3-د/ حسن احمد عيسى، **الإبداع في الفن والعلم** (سلسلة عالم المعرفة،المجلس الوطني للثقافة،الكويت سنة1979،عدم وجود رقم الطبعة).،ص68.

رواسب بدائية باقية في النفس الإنسانية تعود إلى ألاف السنين،أطلق عليها اسم "النماذج البدئية" archétypes، تنعكس في تعبيرات رمزية هي الأساطير و الحكايات،بعد أن تكون قد خضعت لبعض التغيير،بسبب ارتفاعها إلى مستوى الشعور،و أصبحت تراثا شعبيا يحكى و يعيش في نفوسنا ، ومبرره هو أبحاثه في العيادات النفسية،حيث أثبتت وجود مظاهر اللاشعور الجماعي في الأحلام ، وعند الذهانيين المصابين بالأمراض العقلية.(1) و يضيف إلى أن البيولوجيا أطلعتنا على بقايا جسدية نقلتها الوراثة من الأسلاف،و إذا كان كذلك فبديهي أن تكون هناك وراثة نفسية.، واللاشعور الجماعي واحد لدى جميع المجتمعات،وهو مصدر كل الأعمال الفنية العظيمة لذلك كانت الروائع في الأعمال الفنية خالدة لأنها نابعة من منبع واحد،تشترك فيه كل الأجيال. وإذا غاص الفنان في الأعماق فانه يبلغ قلب الإنسانية،و عندما يعرض عليهم أي عمل فني يتجاوبون معه،في كل مكان لأنه منهم ،و لهم.(2) لكن كيف تتم عملية الإبداع عند يونغ.؟

إذا كان "فرويد" يرجع الإبداع إلى تسامي الدوافع اللاشعورية المكبوتة في مرحلة الطفولة و المرتبطة ب"عقدة أوديب"،بعد أن تمر بمرحلة كمون،بمعنى يعلل الحاضر بالماضي،فان "يونغ" يعلل الماضي بالحاضر،فالإبداع في نظره يعود إلى انسحاب الليبيدو Libido من رموزه الاجتماعية التي كان مرتبطا بها في الخارج لأنها لم تعد قادرة على أداء مهمتها،أو لا تصلح لذلك ،بسبب تطور الحياة الاجتماعية،الذي ساهم في تغير الثقافة الإنسانية، حيث يتجه الليبيدو إلى أعماق الشخصية،فتتكشف له الرواسب البدائية الكامنة في اللاشعور الجمعي،التي يشاهدها الأشخاص العاديون في الأحلام،بينما العباقرة يشاهدونها في حالة اليقظة.(3) ويعمل الفنان على إخراج هذه الكوامن في رموز تتجلى في شكل أعمال فنية،و قد ميز بين نوعين من الأعمال الفنية،**الأعمال السيكولوجية**:يقتصر فيها عمل المبدع على توضيح المضمون الشعوري، وهي تضم كل الأعمال التي تتناول شؤون الحب والبيئة و الأسرة والجريمة،و الشعر التعليمي،و الشعر الغنائي، والدراما و التراجيديا

1-مصطفى سويف،المرجع نفسه"**الأسس النفسية للإبداع الفني،في الشعر خاصة** "203،204.+د/حسن احمد عيسى،المرجع نفسه،ص،ص 69--.71

2-المرجع نفسه ،ص204.+د/ أحمد حسن عيسى،المرجع نفسه ،ص.70

3-د/ أحمد حسن عيسى ،المرجع نفسه ،ص،70.

والكوميديا،حيث يقول"و الأعمال الأدبية التي تندرج تحت هذا التصنيف ،لا حصر لها،فمنها الروايات الكثيرة التي تعالج شؤون الحب والبيئة و العائلة والجريمة و المجتمع، منها الشعر التعليمي والجانب الأكبر من الشعر الغنائي، ومنها الدراما في فرعيها التراجيدي و الكوميدي،مهما كان الشكل الخاص الذي يتخذه العمل الفني ،السيكولوجي،يظل يأخذ مادته من المجال الواسع ،من الخبرة الإنسانية الواعية من واجهة الحياة،إذا جاز لنا التعبير."(1)

الأعمال الكشفية: وتستمد وجودها من اللاشعور الجمعي، وهو ليس حكرا على الفنان بل كذلك الراءون الأنبياء.(2) حيث تكمن بقايا التجارب الأولى،تجارب الأسلاف، ومن هذا الصنف نجد الجزء الثاني من فاوست ل"غوتة" Johann Wolfgang Von Goethe . و "راعي هرمس" عند "أليغييري دانتي" Alighieri Dante ،حيث يقول"الفرق العميق، نحييه بين القسمين،الأول والثاني من"فاوست" ،يعلمنا الفرق بين الإبداع الفني السيكولوجي والرؤيوي(أي الكشفي)،إن هذا الأخير يعكس جميع شروط الأول،فالخبرة التي تقدم مادة التعبير،لا تعود خبرة مألوفة،بل شيء غريب يستمد وجوده من الأرض الواقعة في مؤخرة عقل الإنسان،تلك الأرض التي تشعرنا بهاوية الزمان الذي يفصلنا عن عصور ما قبل التاريخ،أو تذكرنا بعالم فوق بشري،يتلاقى فيه النور والظلام،إنها خبرة بدئية تتجاوز فهم الإنسان."(3)

و هذا النوع الأخير هو الذي يهتم به "يونغ"،و يقوم به الفنان الأصيل،حيث ينكشف له مضمون اللاشعور عن طريق الحدس،(وهو يميل إلى اعتباره قدرة فطرية) وفي حالة اليقظة،و يسقطه في أعمال فنية على شكل رموز.(4) و الرمز لا يكون من أصل لاشعوري بحت،لأن الأصل اللاشعوري هو النماذج البدئية،تبرز في الشعور،فيكون الرمز يتضمن عناصر شعورية و أخرى لاشعورية ،وبذلك ،الإبداع الفني يتم بالحدس،الذي

1- كارل غوستاف يونغ ،مرجع سابق" **علم النفس التحليلي**"،ص.162

2-المرجع نفسه ،ص.167،168

3-المرجع نفسه ،ص 162،163.

*غوتة(1749-1832م):أديب ألماني،يعد احد عظماء الأدب الغربي.

*-دانتي(1265-1321م):شاعر و رجل سياسي ايطالي، من فلورنسا،يعرف في الأدب الايطالي ب"الشاعر الأعلى" و يسمى أيضا ب"أبي اللغة الايطالية".

4-مصطفى سويف،المرجع نفسه ،ص204،205.

بواسطته،يصل الفنان إلى الوتر المشترك بين الإنسانية، وعن طريق الإسقاط،يتم تحديد العمل الفني وتحويله في شيء خارجي هو الرمز،(1) والفن ليس تعبيرا فرديا بل هو تعبير جمعي أو تعبير عن المخزون اللاشعوري للذات الجماعية،فالفنان في إبداعه لا يعبر عن ذاته بل عن اللاوعي الجمعي، و بذلك يقوم"يونغ" الأعمال الفنية بناءا على نظرية اللاوعي الجمعي وإشباع احتياجات الجماعة،و الاستجابة إلى مطالبها،لا بناءا على ما يمتاز به الفن من جمالية.

و يمكن الحكم على آلية الإسقاط اليونغية، بأنها لم تأتي بالجديد في مجال الإبداع الفني،بل بقي "يونغ" حبيس المفاهيم السيكولوجية في نظرتها للفنان ،و صورة الفنان لديه شبيهة بصورة الفنان عند الفرويديين، والقائلين بالإلهام*،فالفنان ينزل عليه الوحي في ومضة، وتبقى هذه الصورة ناقصة لا تعبر عن حقيقة الإبداع الفني.(2)

هذا، و قد ظهرت اتجاهات جديدة في علم النفس تفسر الإبداع من وجهة نظر مختلفة منها أصحاب علم النفس الأنا،هذه الاتجاهات الجديدة غيرت من وجهة النظر حول الفن داخل مجال التحليل النفسي،حيث أصبح ينظر للعمل الفني باعتباره نشاطا مستقلا للانا،ينتج على نحو مستقل عن الطاقة الغريزية،و تحول الاهتمام أكثر للواقع الاجتماعي،الذي يقوم فيه الأنا بالدور الكبير،أكثر من الاهتمام بالدوافع الجنسية الجامحة التي أولى لها "فرويد" اهتماما بالغا، من أشهر ممثلي هذا الاتجاه "أرنست كريس"Ernst kriss ،قدم نظرية مفصلة حول الخبرة الجمالية،من خلال عملية دائرية تحتوي على مراحل،هي: التعرف على العمل الفني،التوحد معه،ثم التوحد مع الطريقة التي أنتج بها هذا العمل.(3)

إن الإبداع الفني،في نظره هو عملية نكوص في خدمة الأنا Regression in the service of the ego

---

1- مصطفى سويف،المرجع نفسه ،ص.206،207

2-المرجع نفسه ،ص 208.

*-نظرية الإلهام:ترى أن الإبداع الفني نابع من الوحي أو هو عبارة عن أشعة إلهية تصدر من المبدأ الأوحد إلى الفنان بطريقة مباشرة دون وساطة ، من دعاتها،أفلاطون،كروتشة،إن كل عمل فني في نظرهم هو منزل من السماء.

3-د/ شاكر عبد الحميد،المرجع نفسه" **التفضيل الجمالي و سيكولوجية التذوق الفني**" ص140.

فالأنا توقف ضوابطها أو القيم الاجتماعية التي تؤمن بها بصورة مؤقتة وتسمح للمحتويات اللاشعورية بالتعبير عن نفسها، في صورة رموز أو روائع فنية" انه نكوص يكون بمنزلة التنشيط البدائي لوظائف الأنا، وهو تنشيط يتطلب استرخاء وتحررا خاصا من وظائف هذه الأنا،أي حركة معينة من مبدأ الواقع(الخاص بالأنا) إلى مبدأ اللذة(الخاص بالهو)، وقدرا كبيرا من الاقتراب من الهو بتخيلاته الرمزية،البدائية،غير المقيدة،و هذه الحركة في نظر كريس شرط لابد منه لأي شكل من أشكال الخبرة الجمالية."(1) و أن خبرة النكوص في "خدمة الأنا" كامنة في المبدع خلال عملية الإبداع،و خلال عملية التلقي،هذه الأنا التي أعادت تأكيد وظائفها،فأصبحت مبدعة أو معيدة للإبداع بالنسبة للمتلقي من خلال خبرة التلقي، ويشير "كريس" إلى أن خبرة التلقي لا تتطابق مع خبرة الإبداع،لكنها تحاول العودة إلى المصادر اللاشعورية الخاصة بالإبداع،و هنا تحصل للمتلقي الإثارة أو المتعة في النهاية،و قد يتحرر من التوتر الناشئ من حواجز،أحالت دون تحقيق رغباته،هذه الحواجز التي تتحطم خلال عملية الإبداع والتلقي معا،و هكذا يحدث التواصل السيكولوجي بين المبدع والمتلقي،و لاتهم في الخبرة الجمالية معلومات الفنان الخاصة و أهدافه، بل الذي يهم هو العمل الفني،ولذلك، خبرة التذوق للعمل الفني تخضع لعوامل عديدة ،ثقافية و اجتماعية ،والى استعدادات خاصة بالفرد.

و الاستجابة الجمالية، في نظره تمر بثلاث مراحل:في المرحلة الأولى،يتم التعرف على موضوع العمل الفني،فيدمج داخل الإطار المعرفي الخاص بالفرد، وفي المرحلة الثانية يصبح العمل الفني جزءا من الفرد،فيتقمص المتلقي العمل الفني و يتوحد معه، وفي هذه الحالة تكتسب الحركات الجسمية أهمية خاصة في الخبرة الجمالية، وهو يحدث على نحو خاص كلما كان العمل الذي يتلقاه الفرد أقرب إلى حياة الإنسان الشخصية أو الواقعية.(2)أي في هذه المرحلة، يتوحد مع العمل الفني فقط،أما في المرحلة الثالثة فيتقدم المتلقي من التقمص(أو التوحد) إلى المحاكاة،و في هذه الحالة يتوحد مع الفنان، لا مع العمل الفني فقط، وهكذا يصبح نشاط التلقي بمثابة الإعادة لنشاط الإبداع ذاته.(3)

1-د/شاكر عبد الحميد، المرجع نفسه،ص.142

2-المرجع نفسه ص ص141-144.

3-المرجع نفسه ص،144،145.

و لابد من الإشارة إلى أن فكرة النكوص في خدمة الأنا عند "كريس" باعتبارها تمثل رجوعا مؤقتا إلى مرحلة مبكرة من النمو السيكولوجي، هي عملية نشاط لكل من الخيال الحر و الدوافع الغريزية.(1)

و لابد من الإشارة إلى أن"كريس" سار على نهج "فرويد" في تطبيق التحليل النفسي على الشخصيات الفنية،حيث أقام دراسة تحليلية على النحات النمساوي الألماني"فرانز زافر ميسر شمت" Franz zaver Messerschmitt ،و توصل إلى وجود جنسية مثلية كامنة لدى هذا الفنان،من خلال تمثالين نصفيين كان عنوانهما" الرؤوس ذات الشكل المنقاري" The beak heads، وهو تفسير يتسم بالتعسف على الطريقة الفرويدية.(2) وهذا مبرر على أن "ارنست كريس" لم ينفصل عن "فرويد" وبقي حبيس المفاهيم و الفلسفة الكامنة وراء منهج التحليل النفسي الفرو يدي.

ودائما في إطار الاتجاهات الجديدة التي ظهرت في علم النفس،و التي تندرج ضمن إطار ما بعد الفرويدية،نجد نظريات العلاقة بالموضوع ،و التي من أبرز "ميلاني كلاين""M. Klein" ،و "وينيكوت،دونا لد وود"* Winnicott donald.woods، و"حنا سيجال""Hanna segal"،و غيرهم ،حيث درسوا أثار الخبرة الجمالية من خلال العلاقات المبكرة للطفل مع الأشياء و الأشخاص و خاصة الأم،إن الخبرة الجمالية حسب هذا الاتجاه تمثل منطقة وسطى بين الذات والعالم الخارجي، وفي هذه الحالة يتم النظر إلى الشكل الفني و محتواه على أنهما دائما في اندماج و انصهار معا، وكل محاولة للفصل بينهما تفقد العمل الفني جماليته.(3)

إن الخبرة الجمالية في نظرهم تحدث "إعادة استثارة" سواء عند المبدع أو المتذوق لحالة ماضية تمتد جذورها إلى الطفولة وخاصة في المرحلة المرتبطة بالعلاقات الرمزية مع الموضوعات الانتقالية، أي تلك الموضوعات التي تنقل الطفل بعد فطامه،خاصة من التعلق بثدي الأم إلى التعلق بموضوع انتقالي خارجي،ينتقل به من مرحلة الارتباط التام بالأم و الاعتماد عليها إلى مرحلة الاستقلال النسبي عنها،و من ثم يحدث نمو خاص

1-د/ شاكر عبد الحميد، المرجع نفسه، ص.145

2- المرجع نفسه،ص148.

*-وينيكوت دونا لد وود(1896-1971م): وهو طبيب أطفال بريطاني عمل على تحليل العلاقة بين الوليد و الأم،و الطفل و الأم والعالم الخارجي.

3-المرجع نفسه ،ص 149،150.

للذات، ومن خلال التعلق الانتقالي أو التحولي أشار"وينيكوت" إلى قدرة الفرد اللاحقة على إقامة صلات أو روابط إبداعية بين عالمه الداخلي والعالم الخارجي،و يعتبر اللعب الخيالي جسرا ضروريا يربط بين تخيلات الطفل،التي تتموضوع أولا في موضوع تحولي انتقالي(لعبة ،عصى،رفيق خيالي.....) وبعد الاستثمار الذي يقوم به بعد ذلك ،لهذه الموضوعات،في خبراته الثقافية بصفة عامة ،وخبراته الجمالية بصفة خاصة،فالموضوع التحولي هو النموذج الأولي للموضوع الجمالي،فيكون نوع من العلاقة بموضوع ما ،علاقة تتسم بالمتعة و اللفة و الحميمية،مثلما كانت العلاقات القديمة المبكرة مع الأم،مع العلم أن هذه النظريات ظهرت لوجود ثغرات ونقائص في أفكار "فرويد".(1)

يرفض "غولد شتاين" Hurt gold Stein ،التفسير السيكولوجي للفن عند "فرويد"،و هو يرى أن الإبداع يعود إلى دافع تحقيق الذات، فالانجازات الثقافية التي يحققها الإنسان لا تعود إلى الدوافع اللاشعورية الجنسية المكبوتة ،التي تهدف إلى تخفيف التوتر الناشئ عن إلحاح هذه الرغبات،بل هي تعبير عن قدرة الإنسان وميله إلى تحقيق ذاته من خلال عملية الإبداع ذاته،فالمبدعون يميلون إلى الارتباط بالعالم المحيط بهم ،و لا يتسنى لهم ذلك إلا بالإبداع،الذي يعد رابطة تربطهم به،بحيث يغدو ما أنتجه المبدع جزءا منه ومن العالم الذي يعيش فيه.(2)

و من الذين نادوا بهذه النظرية،"أبراهام ماسلو" a.H.maslaw ،أسس نظرية في الحاجات The Hekierchy of needsتحل محل الغرائز،فهناك أنواع كثيرة من الحاجات،تحرك سلوك الإنسان،الحاجات العضوية والبيولوجية(المأكل و المشرب والملبس)ثم تليها الحاجات الاجتماعية ،التي تدفعه إلى العيش ضمن المجتمع،ثم مجموعة الحاجات النفسية،مثل الحاجة للشعور بالأمن والشعور بالحب المتبادل،وفي قمة هذا الهرم تأتي الحاجة إلى تحقيق الذات،و لا يمكن للفرد أن يشبع مستوى من الحاجات دون أن يشبع المستوى الأدنى

-1-د/ شاكر عبد الحميد، المرجع نفسه،ص150،151.

*-غولد شتاين(1875-1965م):عالم أعصاب وطبيب نفساني ألماني

2-د/ حسن أحمد عيسى،المرجع نفسه **"الإبداع في الفن والعلم"** ص77.

*-أبراهام ماسلو(1809-1970م):عالم نفساني أمريكي،معروف بنظريته في الحاجات.

منه،وتحقيق الذات يتجلى في مظاهر الإبداع لدى جميع الناس،أي حتى عامة الناس في ممارستهم للأعمال اليومية العادية كالزوجة أو ربة البيت التي تظهر في منزلها نوعا من الطرافة والتجديد.(1)

ونفس الرأي نجده عند "روجرز" الذي،ساهم في تأسيس التوجه الإنساني في علم النفس،فالإبداع في نظره نابع من ميل لدى الإنسان ،لكي يحقق ذاته ويستغل أقصى إمكانياته.(2)

و أخيرا، نستنتج أنه لا يمكن قبول التفسير السيكولوجي لنشأة الأخلاق وطبيعتها،رغم أهمية الجوانب النفسية في نشأتها،لأن للقيم الأخلاقية مرتبة سامية في حياة الإنسان،فهي تشمل عددا هائلا من الواجبات و التحظيرات،تعلو عن الليبيدو"الأنا التحتاني" .و لا يمكن أن نقبل التحليل السيكولوجي للدين عند"فرويد" لقيامه على حجج واهية، و لاشتمال الدين على فهما متناسقا للكون،و على رسالة في الحياة ، فلا يمكن أن يعود بأي حال من الأحوال إلى نكران الغرائز أو إلى "عقدة أوديب" و الخوف والقلق و الضائقة البشرية، و لاستمراره،رغم التطور العلمي والتكنولوجي،الذي بلغته البشرية. و أما بالنسبة للتفسير السيكولوجي للفن،فرغم تأثير الدوافع الجنسية في الإبداع الفني،إلا أننا لا نستطيع قبول تفسير الإبداع الفني بتسامي الدافع الشبقي المرتبط بالأم،لعجزه عن تفسير تنوع الإبداعات، و لأنه لا يوجد مبرر على أن التسامي يمكن الفنان من تفريغ الطاقة الجنسية،على أساس أن الليبيدو مثل بقية الدوافع الأخرى كالجوع لا تشبع خارج موضوعاتها و أهدافها.

1-د/ حسن أحمد عيسى،المرجع نفسه ،ص.79

2- المرجع نفسه،80.

الخاتمة

لقد تبين بعد الدراسة التحليلية النقدية لنشأة الأخلاق و الدين و طبيعتهما، ولحقيقة الإبداع الفني وطبيعة الذوق الجمالي عند"فرويد" بأن أطروحة "فرويد" في مجال القيم غير قائمة على حجج علمية رغم أهمية الدوافع النفسية في نشأتها وطبيعتها ،و ما نستنتجه هو:

إن نشأة الأخلاق بإرجاعها إلى أسطورة قتل الأب البدائي ،هي مجرد فرضية ليس لها ما يبررها علميا، و أن "عقدة أوديب" التي تعتبر نواة الصراع الجنسي في القبيلة البدائية بين الإخوة غير الأشقاء على الأم ،و الذي أفرز جريمة القتل ،و منه الشعور بالذنب، الذي أنتج الأخلاق والدين، هذه العقدة ليست موجودة في جميع المجتمعات ،بل ترتبط بالشكل الأسري الأبوي الموجود في المجتمعات الأوروبية الآرية، وبذلك تكون نظرة "فرويد" قاصرة ترتبط برؤية واحدة هي الثقافة الأوروبية .

و لا يمكن رد الأخلاق إلى الشعور بالذنب،لأنه يستلزم وجود الضمير، والضمير ناتج من الحضارة، وهو مجرد من الغريزة البيولوجية،أي ليس فطري، ولا يمكن رد الأخلاق إلى الليبيدو ،لأن للقيم مرتبة سامية في حياة الإنسان،فهي تشمل عددا هائلا من الواجبات و التحظيرات، تعلو عن الليبيدو"الأنا التحتاني"،أي لا تعود في نشأتها إلى الغريزة الجنسية، وعليه ،فلا يمكن قبول التفسير السيكولوجي لنشأة الأخلاق و طبيعتها رغم أهمية الجوانب النفسية في نشأتها.

إن التحليل السيكولوجي للدين ،عند "فرويد" قائم على حجج واهية،فلا يمكن أن يعود الدين في شكله البدائي المتمثل في "الديانة الطوطمية" إلى "عقدة أوديب"،و جريمة قتل الأب البدائي، والشعور بالذنب الناتج عنها،لأنها مجرد فرضية ليس لها أساس علمي و واقعي، وهو ليس مجرد حالة نفسية لقضية وهمية تعود إلى أثار الطفولة،ترتبط ب"عقدة أوديب"،أي حاجة الفرد إلى حماية أخرى دائمة تعوض حماية الأب"الله أب عظيم"، لأن هذه النظرة عاجزة عن تفسير المعجزات والخوارق الطبيعية التي اقترنت بالرسالات السماوية،و لأن الدين أجاب عن ألغاز فلسفية كبرى تتعلق بالموت و الحياة و المصير،و قدم حلولا لمشاكل بشرية تتعلق بالعلاقات الاجتماعية وطبيعة تنظيمها،و لا يمكنه أن يعود إلى الليبيدو كأساس "عقدة أوديب"، لأنه لا يمكن

لنكران الغرائز أن ينتج نظاما دينيا متكاملا يقوم على الالتزام بجملة من الأوامر و النواهي تجاه الله،وفهما متناسقا للكون و لرسالة الإنسان في الحياة ، ولا يمكنه أن ينتج نظاما أخلاقيا متكاملا مثلما هو في العقيدة الإسلامية، لأنه عكس ما تنبأ به مؤسس التحليل النفسي ،الذي اعتقد بأنه يتم التخلي عن الدين مستقبلا،فالدين مستمر رغم التطور العلمي والتكنولوجي الذي توصلت اليه المجتمعات الحالية.

إن "فرويد" ملحد رغم اعتزازه بيهوديته،لأن اليهودية التي يعتنقها، تمثل رؤية فلسفية خاصة ،وليست ديانة ميتافيزيقية،هي ديانة وضعية بشر بها بطل قومي و منظر ديني هو"موسى"، وقد فسر الديانات السماوية تفسيرا تطوريا - داروينيا ،وفق خط تصاعدي، واحد، من اخناتون إلى موسى إلى المسيح عيسى إلى محمد عليه السلام،و بذلك أسقط الداروينية ،التي تمثل فلسفة الحادية،على تفسيره لكل الحقائق ،على طريقة تطبيق القانون على الوقائع الجزئية،فشوه كثير من الحقائق الدينية،رغم وضوح الأدلة التاريخية على أن هذه الديانات سماوية ،تختلف عن بعضها البعض،و عليه ،لا يمكن قبول التحليل السيكولوجي الفرويدي للدين.

أما بالنسبة للتحليل السيكولوجي للفن ،فرغم تأثير الدوافع الجنسية في الإبداع الفني،إلا أننا لا نستطيع قبول تفسير الإبداع الفني بتسامي الدافع الشبقي المرتبط بالأم، لأنه عاجز عن تفسير تنوع الإبداعات ،و لأنه لا يوجد مبرر على أن آلية التسامي تمكن الفنان من تفريغ الطاقة الجنسية ،باعتبار الليبيدو دافع مثل بقية الدوافع الأخرى كدافع الجوع،لا يشبع خارج الموضوع والهدف، و لأن آلية التسامي تبقى غامضة، لم يوضح "فرويد " جزئياتها، وبذلك تطبيقاته للتحليل النفسي على الشخصيات الفنية و الأعمال الأدبية والفنية،تتخللها كثير من النقائص و الضعف،و أضعف عمل قام به ،هو الدراسة التحليلية للفنان الايطالي "ليوناردو دافنشي" حيث انطلق فيها ،من خطأ فادح وقع فيه ،اكتشفه الباحث الانجليزي المختص في فن عصر النهضة " اريك ماكلوغان" سنة 1923م، يرتبط "بذكرى ليوناردو" التي اعتمد عليها في تحليل شخصية الفنان،و هو أن "فرويد" أخطأ في قراءة "ليوناردو" لأن الطير الذي تخيله الفنان،ليس نسرا"Vulture" و إنما حدأة"Kite" ،و مصدر الخطأ هو اعتماده على الترجمة الألمانية لكلمة نيهبيو"Nihibio" وهي ،جير " Geier"، وبذلك جل التفسيرات التي توصل اليها "فرويد" خاطئة، وركز على الجوانب السلبية للفنان،و اعتمد على نتائج أبحاثه في العيادات النفسية للعصاب،و حاول تطبيقها في تحليل سيكولوجية الفنانيين،فوقع في أغلوطة المماثلة.

و قد كانت تفسيرات مهندس التحليل النفسي مملوءة بالتعسف،لأنه انطلق من عامل واحد،و فسر به كل جزئيات سلوك الفنان،فكانت تحليلاته تعسفية،تختفي من ورائها فلسفة كامنة ،على طريقة الفلاسفة المثاليين، هي تفسير الظواهر بالعلة الأولى" العامل الجنسي"،لأن أبحاث "ليوناردو" العلمية و أعماله في مجالات عديدة تثبت بأن للعقل و الموهبة دورا كبيرا في الإبداع الفني و العلمي، رغم الدور النسبي الذي تلعبه الدوافع اللاشعورية في الفن.

وبالنسبة للدراسة التحليلية ل"دوستويفسكي" من خلال "الإخوة كارامازوف" و لرواية "غراديفا" للكاتب الألماني" ولهام جونسون"،فإنها لا تحيد عن الإطار الذي انتهجه"فرويد" لنفسه و هي طريقة تفسير الظواهر بالعلة الأولى،و هي الدوافع الجنسية،طريقة الفيلسوف المثالي، وقد اهتم بالمبدع و أهمل العمل الفني و الأدبي رغم أهمية الدراسة التي قام بها،واكتشافه لكثير من الحقائق المرتبطة بشخصية الفنان"دوستويفسكي" و الصراع النفسي الذي عاشه و عاناه في الحياة والعاهة المضنية المتمثلة في الصرع" L'épilepsie "،و رغم أهمية التحليل النفسي في الفن،الذي كان له تأثيرا كبيرا في توجيه الأدباء و الباحثين إلى الاهتمام، بالجوانب النفسية للمبدع ،و ظهور "النقد النفسي للأدب" في الأدب الغربي و في الأدب العربي، وظهور اتجاهات جديدة في هذا المجال، ناقدة للجمالية الفرويدية، ومكملة لها في نظرتها لمصدر الإبداع الفني و لطبيعة الذوق الفني.

و بالنسبة للمقاربة الفرويدية الكانطية ،يمكن القول أن الأطروحة الكانطية في مجال القيم أقرب الى الحقيقة من الأطروحة الفرويدية، رغم مثاليتها،لأن الأولى تعبر عن ماهية الانسان العاقلة ،و بالتالي تعبير عن المرتبة السامية التي تحتلها القيم في حياة الانسان،على خلاف للأطروحة الفرويدية التي اختزلت انسانية الانسان في جانبه الحيواني.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا-قائمة المصادر باللغة العربية:

1-فرويد،سيغموند،الطوطم والحرام،تر/ جورج طرابيشي،دار الطليعة للطباعة و النشر ،الطبعة الثانية.

2- فرويد،سيغموند ،الحب والحرب و الحضارة والموت،دراسة و ترجمة الدكتور عبد المنعم الحفني،دار الرشاد،القاهرة،الطبعة الأولى 1992م.

3- فرويد،سيغموند ،التحليل النفسي لرهاب الأطفال(هانز الصغير) تر/ جورج طرابيشي،دار الطليعة للنشر،بيروت لبنان،الطبعة الأولى 1984م .

4- فرويد،سيغموند، الموجز في التحليل النفسي،تر/ سامي محمود علي وعبد السلام الفقاس،مكتبة الأسرة 2000م.

5- فرويد،سيغموند، الهذيان و الأحلام في الفن،تر/ جورج طرابيشي،دار الطليعة للطباعة والنشر ،بيروت،الطبعة الأولى 1978م.

6- فرويد،سيغموند ،دوستويفسكي وجريمة قتل الأب،تر/ د،شاكر عبد الحميد،عن كتاب علم النفس الابداع،دار غريب للطباعة و النشر والتوزيع،القاهرة.

7-فرويد،سيغموند،حياتي والتحليل النفسي،تر/ مصطفى زيور و عبد المنعم المليجي،دار المعارف،منتدى الاسكندرية،مصر سنة 1994م.

8- فرويد،سيغموند،قلق في الحضارة،تر/ جورج طرابيشي،دار الطليعة للطباعة والنشر،بيروت،الطبعة1996م.

9- فرويد،سيغموند ،ليوناردو دافنشي،دراسة تحليلية،تر/ د، أحمد عكاشة،المكتبة الأنجلو المصرية،القاهرة،سنة 1970م.

10-فرويد،سيغموند،موسى والتوحيد،تر/جورج طرابيشي،دار الطليعة للطباعة والنشر،بيروت،لبنان ،الطبعة الرابعة. 1986م.

11- فرويد،سيغموند،تفسير الأحلام،تبسيط وتلخيص الدكتور نظمي لوقا،دار الهلال،مصر 1962.

ثانيا-قائمة المصادر باللغة الأجنبية:

1- Freud .Sigmund .l'avenir d une illusion. Traduction française par Bonaparte. Edition électronique réalisé par traitement de texte Microsoft 2001

2- Freud. Sigmund Dostoïevski et le parricide, Les Frères Karamazov par. Fiodor Dostoïevski traduit du russe par Henri mongault .tome premier.la bibliothèque électronique du Québec. Édition de référence paris Gallimard.

3-sigmound.freud .le mot d'esprit et ses rapports avec l'inconscient. Traduit de l'allemand par Marie Bonaparte et le Dr.M Nathan en 1930. Paris: Gallimard, Réimpression: Gallimard, 1971.

4-Freud.sigmund.totem et tabou. Traduit de l'allemand en 1923 par dr.s Jankélévitch .impression 1951 .édition électronique réalisé avec traitement de texte Microsoft Word.

ثالثا- قائمة المراجع باللغة العربية:

1-اسماعيل عز الدين،التفسير النفسي للأدب،الطبعة الرابعة،دار غريب للطباعة القاهرة.

2-ابراهيم الشناوي،أمينة،التفضيل الجمالي لخصائص المثير المرئي،رسالة ماجستير،كلية الآداب،قسم علم النفس،طنطا سنة1999م.

3-الصادق مجدي، التاريخ الحقيقي، الطبعة الأولى، أكتوبر 2002م،الطبعة الالكترونية.

4-البسيوني محمد،التربية الفنية والتحليل النفسي،دار الكتب والوثائق القومية،القاهرة الطبعة الثانية 1983م.

5-العوا عادل،العمدة في فلسفة القيم،دار طلاس للدراسات و الترجمة والنشر،دمشق الطبعة الأولى 1986م. و الترجمة ،دمشق سوريا،الطبعة الأولى 2000 .

6-بيلي برسيفال،نقد نظرية التحليل النفسي،تر/ وتعليق الدكتور محمد هلال،دار المناهج للنشر والتوزيع،سلطنة عمان الطبعة 1999م.

7-بيش ادغار،فكر فرويد،تر/جوزيف عبد الله،المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر،بيروت،لبنان،الطبعة الثانية 1993م.

8-بن كثير،أبي الفداء اسماعيل،قصص الأنبياء،دار الكتاب الحديث،القاهرة .

9--دوستويفسكي فيود ور،الاخوة كارامازوف،تر/سامي الدروبي،دار الكتاب العربي للطباعة و النشر،القاهرة الجزء الأول.

10--دوستويفسكي فيود ور،الاخوة كارامازوف،تر/سامي الدروبي،دار الكتاب العربي للطباعة و النشر،القاهرة،الجزء الثاني.

11--دوستويفسكي فيود ور،الاخوة كارامازوف،تر/سامي الدروبي،دار الكتاب العربي للطباعة و النشر،القاهرة الجزء الثالث.

12-كانط،ايمانويل،نقد العقل العملي،تر/هنا غانم،توزيع مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ،الطبعة الأولى 2008 .

13-كانط،ايمانويل،نقد ملكة الحكم،تر/غانم هنا،المنظمة العربية للترجمة،بيروت ،لبنان،الطبعة الأولى .2005

14-كانط ،ايمانويل،الدين في حدود مجرد العقل،تر/فتحي المسكيني،جداول للنشر و التوزيع،الحمرا،شارع الكويت،الطبعة .2012

15-كانط،ايمانويل،تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق،تر/عبد الغفار مكاوي،مراجعة عبد الرحمن بدوي،الهيئة المصرية العامة للكتاب،الطبعة الثانية 1963م.

16-ليبين فليري،فرويد التحليل النفسي و الفلسفة الغربية،تر/زياد الملا،مراجعة كم نقش،دار الطليعة الجديدة ،دمشق،الطبعة الأولى 1997م.

17-ميمون الربيع،نظرية القيم في الفكر المعاصربين النسبية و المطلقية،الشركة الوطنية للنشر والاشهار،الجزائر،الطبعة الأولى 1978م.

18-ميرشنت مولوين،ليتش كليفورد،التراجيديا و الكوميديا،تر/ أحمد محمود،سلسلة عالم المعرفة الكويت،1979م.

19-محمد علي محمود،الاتجاه التجريبي عند ليوناردو دافنشي،دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر ،الاسكندرية،الطبعة الأولى.

20-مجموعة من المؤلفين،فلسفة الدين،منشورات،منشورات ضفاف بيروت،منشورات الاختلاف،اشراف د/ علي عبود المحمداوي،الطبعة الأولى2012م.

21-نويل جان بليمان،التحليل النفسي و الأدب،و الأدب،تر/ حسن المودن،المجلس الأعلى للثقافة ،مصر1977م.

22-عبد الحميد شاكر،علم النفس الابداع،دار غريب للطباعة و النشر والتوزيع،القاهرة.

23-عكاشة أحمد،أفاق في الابداع الفني رؤية نفسية،دار الشروق،القاهرة الطبعة الأولى 2001م.

24-عبد المنعم عباس،راوية،الحس الجمالي و تاريخ الفن دراسة في القيم الجمالية والفنية،دار النهضة العربية للطباعة و النشر،الطبعة الأولى 1988م.

25-عبد المعطى محمد على،عبد المنعم عباس راوية، الحس الجمالي و تاريخ التذوق الفني عبر العصور،دار المعرفة الجامعية ،الاسكندرية ،طبعة 2003

26-عباس فيصل،التحليل النفسي والمقاربات العيادية،دار الفكر العربي،بيروت لنلن 1996م.

27-عبد الحميد شاكر، التفضيل الجمالي و سيكولوجية التذوق الفني، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون و الآداب، الكويت، .1978

28-عيسى أحمد حسن،الابداع في الفن و العلم،سلسلة عالم المعرفة،المجلس الوطني للثقافة،الكويت،سنة1979م.

29-عبده مصطفى،فلسفة الجمال و دور العقل في الابداع الفني،مكتبة مدبولي،القاهرة،الطبعة الثانية 1999م.

30-فرويد أنزنو ،أبراهام ماري،بونابرت، التصعيد دروب الابداع ،تر/ وجيه أسعد ،منشورات وزارة الثقافة السورية،دمشق .1966

31-فيغو سكي،ل،س،السيكولوجيا وعلم الجمال،تر/ أحمد محمد خنسة،دار علاء الدين للنشر والتوزيع و الترجمة ،دمشق سوريا،الطبعة الأولى 2000 .

32-غوستاف،كارل يونغ،علم النفس التحليلي،تر/نهاد خياطة،دار الحوار للنشر والتوزيع اللاذقية ،سورية،الطبعة الثانية 1997م.

33-سويف مصطفى، الأسس النفسية للإبداع الفني، في الشعر خاصة،دار المعارف،القاهرة الطبعة الرابعة1981م.

رابعا-قائمة المراجع باللغة الأجنبية:

1- Bakan david .Sigmund Freud and the Jewish mystical tradition. Library of congress. the fifth Princeton 1958 United states of America.

2- Malinowski. Bronislaw .la sexualité et sa répression dans les sociétés primitives. Traduction francaise1930.édition électronique .réalisée avec le traitement de textes.microsoft word.en mars 2002 .une collection développée en collaboration avec la bibliothèque Paul Émile boulet de l'université du Québec Chicoutimi.

خامسا-قائمة المجلات:

1-دراسات عربية،العددان 6 و 7،السنة الثالثة و العشرون،نيسان،أيار،أبريل،مايو 1987م.

2-قراءات،مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة و مناهجها ،جامعة بسكرة،العدد الخامس 2013م.

3-كاليكوت، المجلد الثاني ،العدد الأول،يونيون 2001م.

4--Meyer Shapiro. Leonardo and Freud .an art historical. Study.source of the history of ideas.kol.17no.2 April,1956 PP147-178.published by university of Pennsylvania .

سادسا-قائمة المعاجم و الموسوعات:

1-بدوي عبد الرحمن، موسوعة الفلسفة،الجزء الأول و الثاني،المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت،الطبعة الأولى 1983م.

2-لالاند،أندريه،موسوعة لالاند الفلسفية،المجلد الأول،تعريب أحمد خليل،اشراف أحمد عويدات، منشورات عويدات،بيروت،لبنان،الطبعة الثانية 2001م.

3-لابلانش جان و بونتاليس ،ج،ب،معجم مصطلحات التحليل النفسي،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،تر/ الدكتور مصطفى حجازي،الحمراء، بيروت، الطبعة الثانية 1987م.

4-عبد المنعم الحفني،الموسوعة النفسية،مكتبة مدبولي،القاهرة،مصر،الطبعة الرابعة2002م .

5-سامي محمود علي،معجم لمصطلحات التحليل النفسي،الجزء الأخير من كتاب الموجز في التحليل النفسي،تر/ سامي محمود علي وعبد السلام الفقاش.مكتبة الأسرة ،مصر،2000م.